الأبطال

تأليف الفيلسوف الأكبر

توماس كارليل

عربه

الكاتب الكبير

محمد السباعي

الطبعة الثالثة

١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة المصرية بالأزهر

كلمة المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعـــد فهذا كتاب الأبطال وعبادة البطولة وضعه الكاتب الأشهر ، والفيلسوف الأكبر ، توماس كارليل ، وعربه كاتب هذه الكلمات ، وطبعه السيد الشريف الشيخ عبد الرحمن البرقوقى الكاتب الأديب ، صاحب القلم والقرطاس والفلاح المزارع ، رب المحراث والفاس ، الذى رأى أن هنالك شيئاً خلاف الأرض يزرع فيثمر فمال منذ برهة (وليست أول ميلة) الى ثرى الصحيفة فأمطرها غيث المداد وبذر بها حب القرائح فأنبتت روضة غناء يدعوها الناس « مجلة البيان » ورأى أن هنالك غير الآبار شيئاً يستنبط فعمد الى اللغة الانكليزية فشق بحد اليراع متونها عن خير ينبوع من الحكمة انبجس ففاض فتدفق اسمه عند البريطان Heroes and Hero-worship ونسميه نحن الأبطال وعبادة البطولة ، وهو ذاك الذى تحمله الآن يدك الكريمة أيها القارىء

والسيد عبد الرحمن البرقوقى رجل خليق أن يعلم عنه قراء المصريين شيئاً ، وأن يشغل حيزاً فى ذاكرة كل فرد منهم ومكانة فى نفس كل واحد ، ولولا حياء ملكه منذ كان فى المهد ، وحشمة وتواضع ولولا أنه ليس من النفر الأدعياء الذين لم تمتلىء الا من القحة والسماجة والغش أوعيتهم ، ولم تشحن بغير الغرور والضلالة والسفه حقائبهم ، لكان بامتداد الذكر وانتشار الصيت أولى من مائة إنسان لفتوا الأنظار ، وشغلوا الافكار ، واغتصبوا الشهرة اغتصابا ، واستلبوا كساء الفخار استلابا ، فحق عليهم قول القائل

أيها المدعى سليما سفاها   لست منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت من سليم كواو   ألحقت فى الهجاء ظلما بعمرو

وأرى أن للسيد البرقوقى عليكم معشر القراء لحرمة الكتابة والادب حقا من مكانة ينبغى أن تكون له فى نفس كل منكم ، ومحل يجب أن ينفسح له فى ذاكرة كل فرد ، ويكرهى أن أرى حقه مغصوبا ، وملكه مسلوبا ، وأنظر محله من النفوس يشغله الجاهل الدعى غير مستح ولا محتشم ، وما ذلك بمستغرب من الوقح الذى نضب من وجهه ماء الحياء ، على أنى كثير التنبؤ بأن هذه الشبهة لاتلبث أن تستنير وهذا الضلال لاينشب أن ينجلى ، فيقصى الدعى ويستدنى الاصيل ويؤخذ للمسروق متاعه من السارق حتى يقول هذه بضاعتنا ردت الينا ، وقل جاء الحق وزهق الباطل

السيد عبد الرحمن البرقوقى كاتب نفيس ، حسن المنحى قريب المنال ، دانى القطوف ، عذب المورد ، ناصع البيان ، قد نزهت عباراته عن الخلل واللغو والركاكة والابهام ، وحصنت من الناقد وارتفعت عن مقام المتحدى والمناظر

حزن مستعمل الكلام اختيارا　　وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـ　　ـن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون فى الحلل البيـ　　ـض اذا رحن فى الخطوط السود

ومن شك فى قولى هـذا فعليه بشرح الاستاذ لكتاب التلخيص ، ذلك الذى أعجب به حكيم العصر الشيخ محمد عبده وأطراه وأثنى عليه ، ذلك أو مقدمة الاستاذ فى أول أعداد « البيان » وما نشر فى ذاك العدد أيضا من كتابه المسمى « حضارة العرب فى الاندلس » وكم له من مقالة شائقة ، وكلمة مأنوسة وجملة أنيقة ، برز بعضها منذ أعوام على صفحات المؤيد وبعضها يهم أن يبرز ويشرئب أن يظهر

بها ثمر الفضل الغزير فيانع　　وآخر فى أكمامه متنظر

وقد كان للسيد البرقوقى — لو أنه من طلاب الدنيا ولولا أنه انما يعمل للخير العام والمصلحة الدائمة — مندوحة عن أخطار ثروته ومنبع هنائه وسعادته ، بالبذل منها ماقضت الحاجة فيما هو اليوم قائم به من مسائل التعريب والتأليف والطبع والنشر عمل وايم الله قلما نهضت به الشركات والجمعيات فكيف بفرد ضئيل الثروة منزور المادة

رزقه وزان حاجه — نقول قد كان للسيد لولا انه رجل الاخلاص والخير الأبدى مندوحة عن ركوب ذلك الهول وامتطاء تلك الخطة العوصاء فى طلاب الدنيا من طريق التجارة أو الزراعة أو التحرير والكتابة فيتخذ من قلمه أحبولة للرزق بدل أن يجعله بالوعة تأخذ من وفره وثرائه، ولكن الشيخ أيده الله يفقه معنى المجد والحسب ويعلم سر الحياة وله أمل فسيح الخطوة يتجاوز به شهوات المأكل والمشرب والزينة والرفاهية الى قصوى غايات الفخار والشرف

يبادر غايات من المجد طوحت ... به خلف غايات الرياح الخواطر

***

ماسره اللؤم والغضارة فى العيش بديلا بالمجد والقشف

(وبعد) فان فكرة التأليف والتعريب التى قد مضى فى تنفيذها الأستاذ منذ أشهر ليست خاطراً خاطراً ولا هى من عفو الساعة ووحى البديهة وانما فكرة اختمرت فى نفس الشيخ، ورأى نضج وأينع. ولقد أذكر أنى كنت فى دار الجريدة يوما ما أكتب أو أعرب مقالة وكان ذلك منذ أعوام فاذا أنا بالسيد عبد الرحمن البرقوقى يزورنى ويخبرنى بأنه اطلع على كلمات لى وأخرى لفحول الانكليز مما كنت انشره وأنه قد لذ تلك الشذارت المعربة وأعظمها (١) وأكبر مؤلفيها ولاسيما كارليل وجعل يتلهف على رجال يكثرون من تعريب حكم المغرب تلهفا يشف عن أشد الاخلاص والغيرة ثم اقترح على تعريب

---

(١) فعل ماض بمعنى احترم وأجل وكذلك أكبر

صفوة مؤلفات كارليل ومشاركته فى اصدار مجلة حالت أحوال دون ذلك حينذاك وعدتنا عنه عوادى الزمن ومضت شهور وأعوام : وانى ذات يوم لسائر فى شارع عبد العزيز فاذا بمنظر من أعجب مارأيت وماهو الا الشيخ البرقوقى بعمامته وجبته واقفاً فى دكان لم يتم بناؤه وسط جماعة الفعلة والنجارين والحدادين يقترح عليهم فى عمل المكان واتقانه فناديته وبعد التحية قلت «عجباً ياأستاذ» أبدالا تريد أن تكون أم بزازاً أم حلوياً أم خبازاً ، أم ماذا ؟ قال «بل كاتباً ورب مجلة فان شئت أن تكون شريكى فما أسعدنى إذن» فكان منى جواب الفعل أسبق الى الأستاذ من جواب اللسان . وها نحن أولاء قد أخرجنا للناس ولما يمض نصف عام على يوم اتفاقنا أربعة أعداد من مجلة البيان وجزأ من كتاب مختارات لوبان أو بلاغة الانكليز ثم كتاب الابطال للفيلسوف كارليل وسنقول عنهما كلمة بعد اهداء أجزل الحمد وأكرم الثناء للسيد الجليل والأستاذ النبيل ، صاحب الفكرة وممضيها بقوة الحزم والعزم والهمة : المرتخص فى سبيل المجد كل غالية من المال : المذيل[1] فى ابتغاء العلى كل كريمة من الوفر : المنفذ القول يقوله ولو كان فى ذلك هلاكه

اذا هم القى بين عينيه همه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

---

(١) المبتذل

ولد توماس كارليل فى قرية أكلفكان بأقليم أناندال بجنوبى اسكوتلانده لأربع خلون من شهر تشرين ١٧٩٥ وذلك قبل نهضة نابليون لغزو العالم بأربعة أشهر وقبل وفاة روبرت بارنز شاعر القرن الثامن عشر بسبعة أشهر ، ولو أنه ولد على بضعة أميال من جنوب تلك القرية لكان رجلا انكليزيا ، وكان أبوه بناء وبيديه بنى البيت الذى ولد فيه ابنه — دليل على متانة أخلاق الرجل واستبداد ذهنه واستقلال رأيه واستغنائه عن الغير بقوة نفسه ، وكان قليل الكلام كثير العمل جلد الحصاة صليب العود ولكنه ليس بفظ ولا غليظ فكأن قلبه بئر السلسل الزلال حولها من الحجر الأصم سور وحجاب وأبت أخلاقه ان تجاور

خلائق اصفار من المجد خيب

فهجر القوم الذين كان يعيش بينهم أولا وانضم إلى فئة من أهل الخلاف والسخط ولو أنه أصاب من العلم حظا أوفر لجاز أن يكون مدير بلده ولكنه كان وحاله تلك يخيف المدير ويقلقه ، وهو الذى أراده مدير بلده حين يقول «اعط الرجل أجرته ودعه يذهب عنا فانه وعر المقادة صعب المراس» وكان حسن البيان مشرق ديباجة الكلام كثير الاستعارة والتشبيه على جهله معني التشبيه والاستعارة — برهان على

ان ابنـه انمـا عنه لا عن والدته ورث الفحولة والعبقرية ، اما والدة كارليل واسمها مارغريت ايتكين فكانت ورعة تقية شفيقة حدبة رحيمة كثيرة الشغف والحنان واللهف والحنين دمثة الجناب مانوسة الجانب مأمونة الناحية طلقة الجو رطيبة الظل ، وقد قال عنها كارليل «ما أنست بانسان قط أنسى بوالدتى ولا وجدت ممرحا الا فى ساحة كرمها ولا مرتعا الا فى كنف حلمها ولا مرعى فى غير روضة شيمها ولا مشربا فى خلاف غدير طبعها وخيمها» وحق له أن يقول ذاك عن أم كانت عليه أبدا خفاقة الاحشاء قلقة الضلوع وعلى مصلحته ساهرة المقلة جمـة الرجاء تلعاء الجيد

وتلقى مبادىء العلم فى مدرسة القرية ثم فى مدرسة قرية اسمها «انان» ثم دخل جامعة ادنبرج فى الثالثة عشرة من عمره ، وفى التاسعة عشرة أى فى عام ١٨١٤ صار مدرسا للرياضة بمدرسة «انان» وبعد ثلاثة أعوام من ذلك صار رئيس مدرسة ببلدة «كركالدى»

وهنا علق فتاة مليحة تدعى مرغريت جوردون وهى التى وصفها فى كتابه «سارتور رزارتوس» أو فلسفة الملابس باسم «بلومين» والتى كانت تكون زوجه لولا تعرض أصدقائها وفيها يقول

وكان الفتى المنفرد «يعنى نفسه» صاحب الخيال المشتعل يكبر ملكات العالم «يعنى النساء» ويقدسهن ويرى لهن جلالا إلهياً ، ولم يك

حظه منهن الا حظ اللمس من الخيال والغليل (١) من الآل (٢)

تراه عيني وكفى لاتباشره   حتى كأنى فى المرآة أبصره

فكن له كأنهن من الهواء مخلوقات ، ومن الضياء مصوغات ، أرواح فى أشباح ، وأذهان فى ألوان

خلق من الماء والالوان نيران

وكأنهن ملائكة تحمل كل منهن معراجا يرتقى فيه العاشق إلى مقامات الابرار فى الجنان ، فليت شعرى هل قضى الله للفتى المنفرد « يعنى نفسه » أن يظفر يوما ما باحدى هذه الملكات ؟ بل أين منه ذلك هيهات هيهات

وأما والذى خلق الهوى وجعله جنة المحب وجحيمه لئن قضى الله للفتى أن تهبط عليه واحدة من تلك الخيالات المليحات فتتحول له جسما حيا ملموسا وحقيقة محسة ثم تلحظه بنظرة انعطاف وتودد وتقول له بعينيها « لك الآن أن تحب وتحب » إذن فاى بركان هاجع يثور ، وأى جاحم كامن يجيش ويفور !

وقد اشتعل مثل هذا الحريق يوماما فى فؤاد الفتى المنفرد اشتعالا بركانيا وكيف يكون الأمر غير ذلك وللفتى مزاج رقيق وطبع سريع الهياج فيه « كاربون » الحدة و « فوسفور » الشهوة و « كبريت » الانفعال تنتظر أدنى شرارة من لحاظ دعجاء المحاجر قتالة الالحاظ فتاجج وتشتعل

(١) الغليل العطش (٢) الآل السراب وهو مايحسبه الظمآن ماء وليس بماء

وما شرار اللحظ فى هذا العالم بالشىء المفقود ، فليت شعرى إذا هبطت عليه من آفاق العزة مليحة حسناء فرمت « كبريته » بشرارة من لحظها ماذا يكون المآل ؟ أتكون زخارف نارية [1] تتوالى بارقاتها فى نظام ، وتتابع نيراتها فى نسق مؤلفا من جميعها عصر غرام بهج وزمن متاع هنى ، ام تكون ثورات بركانية ذات معمعة وزفير تنشق لها كبد الفتى وينفطر فؤاده (وهذا هو الموت) — أو تهتك حجاب الخيال وتعيث فيه فيختل ميزانه ، ويجمح عنانه (وهو الجنون) حتى يخرب ذلك العالم الذهنى الذى شاده الله فى نفس الفتى ويصبح ولم يبق منه الافوهة بركان خامد

بين جنات الزهر والريحان الجمة الفنون والألوان ، العبقة الأرجاء بشذا المسك ونفح الطيب تشعل ورودها مجامر الند والعنبر

تشب خزاماها إذا الشمس طفلت   مصابيح لم يقبس لها النار قابس

أتاح الرحمن الرحيم للفتى المهجور أن يشهد مجلس الفتاة « بلومين » فى رهط من أقاربها بين منظر معجب وسماع لذ أينما طرح البصر فما شئت من روض نضير ، وماء نمير ، أو نصب الاذن فما أحببت من جرجرة وخرير ، وهديل وهدير ، وتغريد وصفير ، وأينما جلس فما اشتهيت من مهاد وثير ، وأريكة وسرير ، وسندس وحرير

وما هى الاهنيهة حتى قرب إلى الغادة وقدم لها : يارعاك الله ايتها الآنسة إنك لتشرقين بين أترابك من الفتيات وتبهرين صواحبك من

---

(١) مايسمونه « السواريخ »

الغانيات كانك الكوكب الدرى هبط من السماء فتوسط طائفة من المصابيح والشموع ، يا اشرف الفتيات ، وسيدة النساء ، يامن سبيت الخامل المسكين فتهافت عليك بدنا وروحا وهو مع ذلك منكس الجيد فى حضرتك العلية من فرط هيبتك خاشع الطرف تعروه لذة أليمة وتعلوه حيرة لذيذة ! أحقا أصبح الفتى المسكين يشهد مجلسك ويجتلى نور طلعتك وبهاء غرتك وحقا تشرق عليه أشعة لحاظك وحقا يتكلم فتنصتين ويقول فتسمعين ، ويمزح فتضحكين ، ويعظ فترقين ، ويشكو فتتوجعين ! وحقاً كان الحب متبادلا ، والغرام متداولا ، والعطف متقارضا ، والودمتقايضاً ، والقطبان يخفقان للالتصاق ، ويرجفان للاعتناق ! وقلب العاشق المسكين يجيش ويثور كالبحر يزخر ويعب فى حفرة القمر ! بلى حقا كان كل ذلك

وبحق يقول فيها ذلك وما بالك بمن استشفت بنافذ نظراتها قرارة نفس الرجل (كارليل) ولما ينم على فضله شعاع ولا نبض فى أفق الأدب له لمحة بارق ، واستطاعت أن تبصر من وراء حجاب نفسه مياه العرفان وغدران الحكمة كالهدهد يبصر مواضع الماء جوف الأرض ودونها أطباق الثرى . ذلك الى أدب بارع وجمال خلاب

وحسن مرأى وطيب مختبر

ولولا نفاذ بصرها وصدق فراستها لما كتبت الى كارليل الرسالة الآتية وهو بعد خامل مغمور لم يسل من لعاب يراعه قطرة ولا طلع

فى أفق قرطاسه نجم بلاغة ولا سار له مثل ولا ذاعت له حكمة وكان لا يزال معلم مدرسة واليك الرسالة وهى رسالة الوداع

قو فى نفسك صفات العطف والرقة ، وأشعر قلبك حب الناس ورحمتهم ، وأطفىء بارقات الخيال الكاذب وامح صور الوهم الباطل واعلم أن العبقرية والفضل والنبوغ من حظك ، وأنها ستبلغ بك مراتب الفحول يوما ما وتجعلك عظيما ، فلعل مكارم الأخلاق تبلغ بك مقام القديسين وتجعلك محبوبا وعسى أنك ترفع ما بينك وبين سائر الناس من حجاب العظمة وتقرب ما هنالك من مسافة الوحشة والخلاف ، وخاطب الناس على قدر عقولهم وقابل بالصفح واللين سيئاتهم ، وبالتجاوز والعذر هفواتهم ، فان ذلك أحرى أن يجلوك ، وأجدر أن يحبوك ، ومالك تستر ماوهبك الله من رحمة وتخفى ما منحك من رقة وعطف ؟

وفى ١٨١٨ ترك حرفة التعليم ساخطا عليها وعلى أهلها صائحا « لا طاقة لى بعد بهذه الحرفة الممقوتة » وذهب إلى ادنبرج وليس ينوى عملا مخصوصا ولا يدرى ماذا يكون من أمره ، فدرس أبغض العلوم وأثقلها علم المعادن ولكنه كان من أنفع الأشياء له حيث اضطره الى تعلم الألمانية التى كانت من أسباب ظهوره ورفعته وكان إذ ذاك يعيش من دروس خاصة وترجمة مقالات علمية عن الفرنسية خلاف مؤن من الخبز والزبد كانت تأتيه من دار أبيه ، وقد كان فى تركه حرفة التعليم وشذوذه عن الطرق المألوفة ، والأساليب المعروفة ما أسخط والديه

واسرته ولكنه لم يبال بسخط القوم ولابذم الناس وأبى الا مضيا على عزمه وتدفقا فى مجراه قائلا أنه مستبد برأيه واثق من نفسه وأنه أقوى من الدهر وأعلى يدا من القضاء والحظ وأنه لابد له من الانتصار على الأقدار يوما ما متمثلا

ليت هندا أنجزتنا ما تعد ... وشفت انفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لايستبد

وعاش كارليل ستة وثمانين عاما قضاها فى وضع التآليف الجليلة بين فلسفة وتاريخ وترجمة وعظة وحكمة وأشهر مؤلفاته كتاب الأبطال هذا الذى تحمله فى يدك وكتاب الثورة الفرنسية وكتاب الماضى والحاضر وكتاب «سارتور رزارتوس» أو فلسفة الملابس وسيرة كروموبل وتاريخ فريدريك ملك بروسيا

وكتاب الأبطال هذا يمتاز بشرحه عبادة البطولة وتقديس عظماء الرجال شرحا وافيا دقيقا لم يدع لقائل مجالا وان من قرأ هذا الكتاب وكان كافرا ملحدا مستهزئا بعظمة ابن آدم منكرا عبقرية الانسان ساخرا من عظماء الرجال وعشاقهم فلم يشف من داء الكفر والجحود والاستهزاء والسخر فليس فى طاقة القلم ولا سلطان البلاغة ولا فى قوى الانس والجن ما يشفى علته او يغير ما به ، وأحسن ما جاء فى ذلك الكتاب فصل عن المصطفى (صلى الله عليه وسلم) وكان الرسول قبل ذلك هدفا لأقلام الكثيرين من الغربيين (ولاسيما أهل القرن الثامن

عشر) قرن فولتير اعنى قرن الالحاد والكفر، يرمونه جهلا وكنودا بقواذع الهجاء وقواذف الذم قال ريتشارد جازبيت فلما كتب كارليل مقالته عن الاسلام ينافح فيها عن محمد ويناضل دونه لم يبق هجاء أطلق يده فى عرض محمد (عليه السلام) إلا قبضها مجذومة شلاء، ولا لحاش يدرى ذلك الأديم الأملس وتلك الصحيفة البيضاء بسهام السباب الا وردت سهامه فى نحره حتى راح شرف النبى فى تلك الديار بفضل الفيلسوف الأكبر صحيح الأديم موفور الجانب، لحق على عصبة الاسلام جميعا أن تشكر لذاك البطل الجليل هذه اليد البيضاء والمنة الغراء، ولعمرى لو أنهم نصبوا له على كل مأذنة تمثالا وزينوا باسمه جدران المساجد وخطب المنابر لما كانوا فى أداء واجبه الا مقصرين، وعن القيام ببعض حقه عاجزين

فأما من حيث الكتابة فقد كان كارليل من أكتب الناس ومن أشد البلغاء تمكنا من اللسان واقتدارا على اللغة

وأنت الذى تدعو الكلام بقدرة　　　فيأتيه وحشى الكلام وآنسه

وانه ليرجح لدى الموازنة بمعظم من سبقه من الفحول أمثال جونسون وريتشار بارنز وكأنى به كان يبصر أجزاء من نفسه فى صور أولئك الأبطال وأنه أعلى قيمة وأشرف قدرا وما أظنه خليقا أن يقارن إلا بالأنبياء

وقد كان فى مرارة الجد ومضاضة الحزن شبيها بدانتى وروسو،

ولكنه كان بقوة داتى اشبه منه بضعف روسو وكان داتى قليل المزاح ولامزاح لروسو ، وفى مؤلفات داتى وروسو صحف جدية كأنها لقلة الفكاهة والهزل قفار ملس ولكن مايقابلها فى تآليف كارليل مزخرف بأفانين المزاح وألوان المجون بينها ينابيع الهزل تفيض وتنفجر ، وسيوح الفكاهة تسيل وتنهمر ، وكأنى به يقول مع صديقه جونسون لقد حاولت أن أكون فيلسوفا فأبى المزاح إلا أن « يعترضنى فى طريقى » وليس فى جميع كتاب القرن التاسع عشر من يقارب فى المزاح والهزل ذلك الرجل الجاد الحاد الذى يلبس أقسى ظاهر من العبوس والنفرة والتهكم ، ولم ير الناس منذ عهد « ارستوفانيز » رجلا غير كارليل خلط المزاح بالشعر ولز الخيال والمجون فى قرن ، ولكن كارليل بلغ فى ذلك النحو أقصاه ، وأدرك فى هذا الغرض منتهاه .

المحاضرة الاولى

« البطل فى صـــورة إله »

انمـا يضمنى وإياكم هذا المقام وتواليه للكلام شيئاً عن عظماء الرجال ومظاهرهم على مراسح الحياة والأشكال التى تشكلوهافى تاريخ البشر وآراء الناس فيهم وماذا أحدثوا من الأعمال — للكلام عن الأبطال وعما استقبلهم به أهالى أزمانهم وعما صنعوا هم من جلائل الأمور — ولعل هذا مبحث عويص لا أرانى موفيه حقه — مبحث لعمر الله قصى الغاية يشق على نزع الخواطر مرماه ويقع وراء جهد الأوهام منتهاه وما ظنكم بمبحث هو التاريخ بحذافيره إذ فى اعتقادى أن التاريخ العام — تاريخ ما أحدث الانسان فى هذا العالم — إنمـا هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء فهم الأئمـة وهم المكيفون للأمور وهم الاسوة والقـدوة وهم المبدعون لكل ماوفق اليه أهل الدنيا وكل مابلغه العالم وكل ماتراه قائمـا فى هذا الوجود كاملا متقناً فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس ليؤدى كل ماناطته به القدرة الالهية من الخير . فروح تاريخ العالم إنمـا هو تاريخ أولئك الفحول وظنى أنه مبحث لن يسعه هذا المقام

بيد أن من أسباب العزاء أن فى ذكرى العظماء كيفما كانت نفعا وفائدة

والرجل العظيم لايزال بعد موته ينبوع نور يتدفق فليس أحسن من مجاورته شيء — نور يضيء وكان يضيء ظلمات الحياة وليس هو كسراج أشعل ولكنما نجم شبته يد الله بين أشباهه من كواكب الأفق، هو كما قلت ينبوع نور يتدفق بالحكمة ومعانى الرجولة والشرف الكبير وهو الذى فى شعاعه أنس الأرواح وروح النفوس ومتعة الخواطر وليس فى ظنى أن أحداً منكم يحجم برهة عن ورود تلك المناهل العذبة كيفما كان طريق المورد. ويقينى أن نظرة فى تواريخ الأبطال الشتى الصنوف الذين أنا آخذ الآن فى سرد سيرهم جديرة أن تكون بمثابة نظرة فى مخ تاريخ البشر وصميم لبابه. وما أسعدنى لو أستطيع فى مثل هذا العصر الذى ضعف فيه إجلال الرجل للرجل أن أفهمكم شيئاً من معانى عظمة الابطال وجلالهم أى من معانى البطولة والبطولة فى مذهبى هى العروة المقدسة التى تعقد مابين الرجل العظيم وبين سائر الناس ما أسعدنى لو أتيح لى ذلك ولكنى محاول وباذل مجهودى

لقد قيل — وصدقا قيل — ان أهم مافى الرجل دينه — والأمة مثل الفرد فى ذلك — ولست أذهب بلفظة الدين إلى النحلة التى يتخذها الفرد والمذهب الذى ينتسب اليه والقواعد الملية التى يعددها ويشهد بها فقد ترى الرجل الذى ذلك شأنه يسفل إلى أدنى حضيض اللؤم والخسة على الرغم من شدة تمسكه بقواعد الدين فهذا مالا أسميه الدين، هذه الاقرارات والاعترافات أبعد مايكون فى الحقيقة من الدين إذ هو اعتراف

وإقرار لم يصدر إلا من ظواهر الرجل وبواديه — أعنى من ناحية اللسان والقوى البرهانية — وذلك أقصى ما عنده ولكن جوهر المسائل للرجل والأمر الذى عليه يترتب سائر الأمور هو ذلك الشىء الذى يعتقده حق الاعتقاد ويوقن به كل اليقين فيما يتعلق بالروابط الجوهرية التى تربطه بهذا الكون الجم الأسرار وفيما يتعلق بواجبه فى هذه الدار ووظيفته — ذلك هو دينه وربما كان الحاده وكفره — هو اعتقاده أنه متصل بعالم الالهيات أو بلا عالم مطلقا — فاذا علمت عن الرجل ذلك علمت أى رجل هو وأى شىء يجدر به أن يصنعه فى هذه الحياة، لذلك كان أول سؤالنا عن الرجل أو الأمة مادياته أو دياناتهم. هل هى الوثنية أو تعدد الآلهة أعنى تمثيل سر الوجود تمثيلا حسيا وعبادة القوى الطبيعية — أم هى النصرانية والاعتقاد بعالم سرى حقيقى وبخلود الروح وارتكاز الوقت على عالم الأبدية أعنى بذلك استبدال دولة الأسرار المقدسة التى هى أشرف وأسمى بدولة الوثنية وعواملها من قوى الطبيعة أم هى الشك والريبة هل هناك عالم خفى وسر مجهول أم لا بل ربما كان الحاداً محضاً وكفراً مبينا فعندى أن الاجابة عن هذا السؤال هو اعطاؤنا روح تاريخ الفرد أو الأمة إذ أن أعمال الأمة أو الفرد إنما هى بنات أفكارهم وما نتجت ظواهر الآثار إلا من مستسر الضمائر ومن ثم أقول إن دين الأمة هو أهم ما لديها فجدير بنا فى هذه المحاضرات أن نجعل الوجهة الدينية من أخطر وجوه البحث وأكبر أركانه فانه متى أجدنا معرفة هذه برح الخفاء عن

كل شيء. وقد جعلنا أول أبطالنا «اودين» الرجل الذى كان يعبده قدماء السويد والنرويج وكان قطب دائرة الوثنية فى تلك الأقطار فلننظر برهة إلى البطل فى صورة معبود وهو أقدم أشكال البطولة

حقا لقد كانت الوثنية شيئا من أعجب الأشياء لايكاد يتصوره الوهم وهل كانت الامتكاثفات أضاليل وسخافات وأباطيل قد نبتت فى أديم الحياة الغابرة فالتفت أعياصها واستأشبت أدغالها وخيمت على أكناف الحياة غواشى قبابها ودواجى ظلالها! مما لايكاد يصدق به العقل أو يتصوره الوهم إذ لايمكن أحدنا أن يتوهم أن ناسا عقلاء أيقاظا صاحين يعيشون عيشة كتلك ويعتقدون عقائد كهاتيك — أعنى يعبدون رجلا منهم لا لابل يعبدون الخشب المسندة والأحجار وما اليها من أصناف الحيوان والجماد ويصوغون لأنفسهم خليطا مشوشا من كل أضلولة وأبطولة فيحسبونه فلسفة الكون — أما والله ما أحسب كل هذا الاحديث خرافة

بيد أنه لاشك فى أنهم كانوا يأتون ذلك كانوا وهم رجال مثلنا يعتقدون تلك الكفريات الفظيعة المنكرة ويطمئنون اليها ويعيشون بها عجباً أى عجب! وخليق بنا معشر الاخوان أن نطرق ملياً ونتأمل والأسف ملء قلوبنا مايوجد فى نفس الانسان من أعماق الضلال وظلمات الجهل فان ماأشرت اليه من مستنكر المدهشات قد كان فى الانسان ولا يزال بل هو فى جميع الناس وفينا أيضاً

بين الجدليين جماعة ليس لديهم من القول فى الوثنية إلا كلمة واحدة

إذ يقولون هى باطل وغش وأنه لم يؤمن بها عاقل قط وإنما هى أكذوبة لفقت لخداع أناس لا يصح أن يسمون عقلاء! وأرى من الواجب علينا أن ندفع عن الآدميين وعن أعمالهم وتاريخهم أمثال هذا الحكم الجائر وانى لأدفعه الآن عن الوثنية وعن كل ديانة حاول أن يسير بها الانسان دهراً ما فى هذه الحياة. فلم يك دين قط الا وفيه عنصر من الحق ولولا ذلك لما اتخذت أمة من الأمم دينا ما — ولا ننكر أن الأخاديع والأكاذيب تكثر فى الأديان ولاسيما فى عهودها المتاخرة إذ يعتورها الوهن والاضمحلال ولكن الكذب ما كان قط المسبب الأول للأديان — انه ما كان قط للأديان حياة وقوة بل كان داءها ونذير آجالها فاعلموا ذلك أصلحكم الله ولاتنسوه. فانى لأظن أن من شر السفسطة وأخبث الباطل أن يقال أن ديناً من أديان المتوحشين كان منشؤه الكذب فان الكذب لا ينشأ عنه شيء قط وليس من شانه أن يحدث ويلد وإنما من دأبه أن يفنى ما أصاب ويقتل كل شيء حتى أننا لو حاولنا أن نحيط علما بأمر ما فأتيناه من ناحية أكاذيبه كان ذلك جديرا أن يخفى عنا حقيقته. وهى مالا ينكشف لنا حتى تنفى تلك الأكاذيب بتة كأنها أمراض ومفاسد وواجب على كل امرىء استئصال شافتها سواء من الأذهان والأعمال إذ أن الانسان حيثما كان عدو الأكاذيب بل لأرى الحق حتى فى وثنية أهل التبت (من أقاليم الصين) اقرأ مادونه الجهبذ الصادق النظر الصريح القول المستر «تيرنر» فى حديث سفارته الى تلك

البلاد تجد أن لهؤلاء المساكين عقيدة أن الله يرسل كل حين الى الأرض بشراً يمثله ويحمل صورته — وهو بمثابة اعتقادهم فى بطريق أو بابا أو بمثابة اعتقادهم أن هنا لك رجلا هو أفضل الرجال قاطبة — وأن هذا الرجل يمكن الاهتداء الى معرفته من بين سائر القوم: فاما أن الله مرسل فى كل جيل رجلا يمثله فهذا هو الحق الكائن فى عقيدة هؤلاء القوم وأما كون هذا الرجل ممكنا معرفته من بين سائر الناس فهذا هو خطا المذهب المذكور ولقساوسة هذه الأمة طرق إلى اكتشاف الرجل الأفضل من بين سوادهم ليولوه زعامتهم — طرق وايم الله عقيمة ولكنها ليست أعقم من طريقتنا نحن إذ لانفتأ نولى علينا الابن الأكبر من أسرة بعينها (الأسرة الملوكية) واأسفاه! ماأصعب أن يعرف الطريق الى!.... ولكن ارجع الى ذكر الوثنية فأقول انه قد يرجى لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولا أنها كانت فى حين من الأحيان دينا صحيحا فى اعتقاد أهلها فلنوقنن كل اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الايمان ولم يكن بهم من ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض بل كانوا مع ذلك أصحاء العقول والحواس أيقاظا قد صورهم الله على صورنا وخلقهم كخلقنا لا فرق بينهم وبيننا بحال من الأحوال ولنوقنن كذلك انا لو كنا وجدنا معهم لآمنا بما كانوا به يؤمنون ولكنا وهم سواسية فى سائر الأشياء وإذ قد علمتم منى ذلك فعليكم أن تسألونى ماذا كانت تلكم الوثنية

يقول آخرون من ذوى الجدل — وهو قول أوجه — ان منشأ الوثنية هو شعر الشعراء أعنى أن الشعراء كانوا يرون آراءهم فى الكون ثم يخرجون تلك الآراء والاحساسات فى رموز من الأقاصيص وضروب من المجاز والتشبيه بالأشخاص والحيوان والجماد جريا على قانون أساسى من قوانين النفس البشرية وهو أن كل ماجرى فى وجدان المرء من إحساس شديد لا يرى بدا من إخراجه بواسطة النطق ومن رؤيته ممثلا لعينيه فى شكل منظور حتى كأنما هو شىء حى ذو حقيقة تاريخية ولاشك فى أن هنالك قانونا كذلك وأنه من أرسخ قوانين النفس البشرية وأرساها وأشدها تأصلا واستمكانا ولا شك أيضا فى أنه قد كان لذلك القانون دخل عظيم وأثر قوى فى أمر الوثنية وانى وان شهدت بشىء من الصحة لتلك النظرية التى ترجع بأمر الوثنية كله أو جله الى الرموز الشعرية ولكنى لا أعدها النظرية الصحيحة وانى أنشدكم الله معشر الاخوان هل كنتم قط مؤمنين ومسترشدين فى ظلمات الحياة بقصص ناظم وعبث شاعر ؟ أما وربكم ان الأمر لأخطر من ذلك وأجل وأحوج إلى الجد منه الى اللعب ان أمر الحياة من أكبر الجد وما أمر الممات وما عساه يحدث بعد الممات بلهو ولا عبث بل انه الجد أمر من كل جد والحق أوعر من كل حق !

فقد رأيت أن أولئك القائلين فى الوثنية بأمر الرموز الشعرية وان كانوا قد أخذوا فى منهج الحق لكنهم لم يبلغوا الغاية فالوثنية ولاشك رموز شعرية وتمثيل بالمرئيات لما جرى فى وجدان الناس وأذهانهم عن

الكون ومظاهره وكذلك كل دين انما هو رمز وتمثيل يختلف باختلاف تلك الآراء والاحساسات ولكنى أرى رأى هذه الفئة رأياً معكوساً بقولهم عن النتيجة انها السبب وعن الغاية أنها الاصل. فان الناس ما كانوا ليجعلوا عمل الاقاصيص الشعرية أول حاجهم وأكبر همهم وانما أكبر همهم هو أن يعرفوا أى عقيدة يتخذون فى هذه الكائنات وأى سبيل يسلكون فى تلك الحياة. وماذا يرجون وماذا يخشون وماذا يأتون وماذا يتركون. أإذا أخرج الشاعر قصة مونقة جعلها رمزاً لمعتقدات جيله أنحسب أنها أقدم عهداً من تلك المعتقدات كلا بل كانت العقائد أولا ثم أنشئت القصيدة رمزاً اليها وتمثيلا لها. فالعقيدة أصل والشعر صورة والعقيدة حقيقة والشعر ظلها ثم هو مهما بلغ فى مراتب الجد فانما هو لعب وفكاهة ولهو من عبث الخاطر اذا قيس الى تلك الحقيقة الراسخة فى النفوس التى يحاول به تمثيلها. فقصارى القول أن الرموز الشعرية هى نتيجة الحقيقة لا مسببتها فعلينا اذن فى شأن الوثنية أن نبحث من أين جاءت هذه الحقيقة — أم هاتيك الرموز الشعرية والاغلاط والخرافات. كيف جاءت تلك الحقيقة وماذا كانت

تذكرون ماتوهمه افلاطون من أنه لو ولد انسان فى حجرة فى جوف الأرض فترك ثمت حتى بلغ أشده وكمل عقله ثم أخرج بغتة الى ظاهر الأرض فاذا الشمس بارزة فى موكب لألائها ، ماذا يبلغ به العجب والاندهاش من منظر لانبرح نراه فلا يحرك فينا ساكناً . ولكن ذلك

الرجل يراه بعيني طفل قد برأهما الله من شوائب أكدار الحياة فرؤيتهما في منتهى الصفاء ثم يراه كذلك بعقل ناضج فليس عجيباً أن يرقص قلبه طرباً لذلك المنظر الباهر ثم ينفذ بصره الثاقب الى ما أودع الله ذاك المشهد من روعة الجلال فيخر له ساجداً. فاعلموا معشر الاخوان أن أول رجل مفكر بين شعوب المتوحشين — أول انسان بدأ يفكر انما هو كذلك الانسان الذي تخيله افلاطون جامعاً في طبيعته بين الطفولة والرجولة. كذلك كان أول المفكرين من قبائل المتوحشين ساذجاً صريح الطبع كالطفل مع قوة الرجل وعمقه، كانت الطبيعة أمامه بلا اسم ولم يكن قد حصر ذلك الكون العديم النهاية وما به من شتى المناظر والأصوات والأشكال والحركات العديمة العدد في اسم مركب من ثلاثة أحرف كما فعلنا نحن حينما سميناه «كوناً» و «طبيعة» وماشا كل ذلك. فطوينا جلاله العظيم في أثناء لفظ حقير. ولكن الرجل المتوحش كان كل شيء جديداً في نظره لم يخفه عنه حجب الأسماء والالقاب عارياً أمامه ساطعاً لعينيه مشرق الرونق سافر الحسن وضاء الجمال يحار في كنهه الوهم ويعجز عن وصفه اللسان. فتأثير جلال الكون في نفس ذلك الانسان القديم المتوحش (المفكر) كتأثيره في نفس الشاعر أو الفيلسوف أو النبي في العصور الأخرى بلى أيها الاخوان إن للكون لو تدبر الانسان واعتبر لموقعاً في النفس أي موقع وروعة في القلب أي روعة تلكم الأرض الخضراء مبسوطها وحالقها وما يهتز عليها من ملتف النبات ومعشوشب

الروض وتلكم الجبال الراسيات والأنهار الجاريات و البحار ذات الجرجرة والضجيج و الجلجلة والعجيج وقبة الفلك الزرقاء تعزف فى أجوائها كل عصافة هوجاء تحدو من السحب كل دجنة و طفاء آنا تسح بالديمة المدرار وآونة بدفع الحريق وصواعق النار ماهذه أيها الاخوان؟ بلى ما هذه؟ أما ظاهرها فقد عرف العالم عنه شيئاً وأما الباطن فلا وربكم ماعرف ولن يعرف هذا سر عميق لاينفع معه علم عالم ولاتجربة كيماوى انما أولى بالمرء فى مثل هذا المقام الاذعان والخشوع وللجهل هنا أفيد من العلم وما يستفيده المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره أكثر مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظاره وكيمائه ماذا صنع العلماء فى أسرار الكون إلا أنهم زادوها خفاء واكتتاما بالباسها براقع من الاسماء والاصطلاحات ! هم يسمون البرق كهرباء ويلقون الدروس والمحاضرات فى ذلك ثم يولدون مثال هذا البرق من الزجاج والحرير ولكن ماهو ذلك البرق؟ وما الذى احدثه؟ ومن أين جاء؟ وأيان يذهب؟ لا أكذب الله قد أظهر العلم أشياء كثيرة ولكن بئس ذلك العلم الذى يريد أن يحجب عنا جلال ذلك الكون الرائع الذى يتضاءل العلم فى حضرته ويذل لعزته وعظمته ويطفو على جوه الهائل كريشة فى مهب الريح: والحق يقال ياأخوانى ان هذا الكون على الرغم من العلم ودعواه لايزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات

بل كفى بالزمن معجزة — بذلك الشىء الفائت العد والحصر الدائم الكر والمر المستمر الصمت والسكون دائبا يجرى ويتدفق عجلا ساكتا

كتيار البحر الزاخر حيث نطفو فوقه وسائر الكون كخيالات تظهر ثم تغيب وأنفاس لاتكاد تصدر حتى تبيد أما كفانا بذلك معجزة؟ أليس ذلك جديرا أن يلجم ألسنتنا فلا ننطق وبماذا ننطق؟ يالله من هذا الكون الهائل ماذا كان يستطيع المتوحش القديم أن يفهم منه وماذا عسانا نحن نفهم منه أليس أقصى مانستطيع أن نعلم عنه أنه قوة مركبة من ألف ألف قوة وأنه شيء ونحن شيء آخر هذا كل مايمكننا معرفته. الكون شيء ونحن شيء غيره قوة فى قوة فى قوة فحيثما ألقيت البصر قوة ونحن بين هذه القوى المختلفة قوة مجهولة خفية وليست ورقة ملقاة على ظهر الطريق تعفن بعد الذبول الا وفيها قوة وإلا فكيف كان يتأتى لها ان تعفن؟ ولعمرى ماذا يقول الملحد المفكر (ولا اخال الالحاد والتفكير يجتمعان) فى هذه القوى الفعالة الدائبة المحدقة بنا لاتكل ولاتنى ولا تفتر ولا أول لها ولا آخر ولا مبدأ ولا نهاية -- ماذا يقول فيها إلا أنها معجزة رائعة وقد يتساءل عنها المؤمنون فيقول أحدهم لأخيه هى صنع الخالق ثم يجيء العلم بمنظاره وآلاته فيجعل يقلبها ويديرها كأنما هى جثة ميتة توضع فى الزجاجات وتباع فى الحوانيت ولكن العقل الانسانى السليم الفطرة مازال يرى فى هذا الكون شيئاً حيا ــ شيئاً يحار فيه الذهن الهى المرجع أولى الاشياء بنا ازاءه ــ مهما بلغ علمنا -- أن نحنى الرأس له اجلالا وننكس البصر خشية ومهابة ونعبد ان لم يكن بالمنطق فبالصمت وكذلك كان شأن الانسان القديم المتوحش ازاء هذا الكون الباهر

فقد كانت عين فؤاده ثاقبة الرؤية جلية الانسان لم تغشها حجب الكفريات ولم تتراكم أمامها سحب الاصطلاحات والعلميات فكان الكون فى نظره الهى النسبة بل هو الاله ذاته أما تنظر إلى ذاك المتوحش الغابر إذ يعسف البيد والفلوات قد أضل السبيل فاذا الكوكب الوقاد قد طلع له كأنه ماسة تلتهب بلألاء أبهر مما يرى أهل هذه العصور فيضىء فؤاد ذلك الضال كما يضىء له السبيل ويشرق فى نواحى نفسه كما يشرق فى نواحى الافق وكأنه مقلة فى وجه السماء تنظر اليه من أعماق الابدية وتشف له عن رونق السر القديم ونور اليقين ألا تفهمون بعد ذلك كله كيف كان المتوحشون يعبدون النجم ويصيرون مانسميهم عباد الكواكب؟

هذا هو ماأراه سر الوثنية أعنى افراط العجب والاندهاش من الشىء حتى يصير تقديسا وعبادة وكذلك كان كل شىء فى نظر أولئك الأقدمين رمزا إلى شىء الهى أو إلى إله

وهل ينكر أحد أن فى فعل الاقدمين هذا عنصرا من الحق أفلو دققنا النظر له أما كنا نبصر فى كل نجم بل فى كل زهرة الهاً ظاهراً؟ نحن لانعبد الله الآن على هذا النحو ولكن ألا يزال من مزايا الشاعر والدلائل على شاعريته أنه يرى فى كل مخلوق جمالا الهيا وأن كل شىء صاغته يد الله إنما هو نافذة يشرف منها على أعماق الابد؟ نحن نسمى من كان له قدرة على استجلاء غوامض الجمال فى كائنات الله شاعراً ومصوراً ونابغة وعبقريا أفهل كان القدماء المتوحشون الا كذلك؟ ألم يكونوا والشعراء سواء فى

تعرف بدائع الخليقة ؟ وان لم ينطقوا بالقصيد أليس عملهم هذا أحسن على كل حال من عمل الرجل الجامد البليد ومن عمل الحصان والجمل وما ادراك ماعملهم ؟ — هو لا شيء !

وإذا كان كل مانراه هو رمزا من رموز الخالق اذن فأكبر رموز الخالق وأعظمها هو الانسان ان جوهر النفس الانسانية وذلك السر الكائن فينا الذى يسمى نفسه «أنا» — واخجلاه ما أجرأنا على صياغة الالفاظ لمعان تضمحل فى سعتها الآفاق — هذه النفس هى نفس من الله وكذلك الانسان هو مظهر الخالق فى الارض أليس هذا الجسم وهذه الحياة البشرية هى لباسا لذلك السر المجهول الذى نسميه الله ؟ قال الصالح «نوفيلا» ليس فى طول الكون وعرضه إلا معبد واحد وهذا هو جسم الانسان وحقاً لاشيء أقدس من هذه الذات الشريفة وما الركوع بين أيدى الرجال الاخشوع للذات الالهية بادية فى صورة الانسان فاما لمست جسم انسان فقد وضعت يدك على عرش الله ! وهذا الكلام حق لو تدبرتموه بالفكر الثاقب كيف لا ونحن المعجزة الكبرى وسر الله الذى لاينال — ولا طاقة لنابفهمه ولا ندرى كيف نتكلم فيه بيد أنه قد يمكننا أن نعلم ذلك عنه ان شئنا وحسبنا بذلك وكفى

هذه حقائق كان الاقدمون أسرع إلى ادراكها منا نحن نعم ان الاقدمين أولئك الذين كانوا يجمعون إلى صفاء أنفس الاطفال عمق أرواح الرجال الذين لم يحسبوا أنهم قتلوا الارض والسماء دراية وعرفوا كل شيء

بمجرد وضع الاسماء والاصطلاحات ولكنهم كانوا بدلا من اللغو واللغط فى شان الكائنات ينظرون اليها وجها لوجه والروع والاجلال حشو قلوبهم أولئك كانوا أفهم لآيات الله فى كونه وأدرك لسر الله فى عبيده هم كانوا يعرفون ولا بأس فى عقولهم كيف يعبدون الطبيعة وأحسن من ذلك عرفانهم كيف يعبدون الانسان وأعنى بالعبادة كما قدمت الافراط فى العجب والاجلال الى مالا نهاية له وذلك ما كان فى طاقتهم اتيانه من سويداوات أفئدتهم وعقولهم كأوفر مايكون وأرجح وظنى أن عبادة الابطال قد كانت أشرف أركان الوثنية وأكرم عناصرها وأن مذهب الوثنية الذى شبهته بغابة ملتفة قد نبتت من عدة جذور فكل اجلال لكوكب من الكواكب أو شيء من الكائنات كان كأنه أحد جذور تلك الغابة ولكن اجلال الابطال هو أذهب تلك الجذور فى الثرى وأغزرها مادة وأعودها على سائر الجذور بالغذاء الطيب

واذا كانت عبادة النجم لم تخل من حكمة فما بالك بعبادة البطل ؟ وعبادة البطل هى كما قلت الافراط فى إجلاله افراطا لاحد له ولا أحسب إلا أن الأبطال ما برحوا موضع إجلال الناس حتى فى هذه العصور وأنه لم يحل فى صدر الانسان معنى أشرف من إجلاله لمن هو أعظم قدرا منه ولست بمخطىء ان قلت ان هذا المعنى هو الأثر الفعال فى حياة الانسان أو قلت أنه الاساس الذى يقوم عليه الدين لاأقصد الوثنية وحدها بل كل دين أشرف وأصدق — كل دين كان الى وقتنا هذا وهل ترون

معشر الاخوان فى ديننا النصرانية إلا أنها عبادة واعجاب من صميم اللب وضراعة وخشوع لذات انسانية علية الهيـة هى ذات أشرف الابطال قاطبة — ذات من لا أسميه هنا! بل أدع الصمت المقدس يتدبر ذلك الامر المقدس

واذا انحدرنا من قمة الدين الى منازل أحط وأدنى وجدنا فى جميعها من احترام الوضيع للشريف وولاء الحقير للجليل مايماثل الايمـان فى الدين اذ الايمـان إنمـا هو الولاء لنبى أو بطل مقدس وماذا ترى ولاء الصغير للكبير الذى هو روح المجتمع الا فرعا من عبادة الأبطال؟ فعبادة الابطال اذن هى أساس المجتمع والرتب والدرج الذى يقوم عليه التعاشر والتواصل هى مايجوز أن نسميه «هيروارکی» أى حكومة الابطال فأهل الدرج والرتب فى الأمة هم لها بمثابة الأوراق المـالية كلها يمثل الذهب وإن كان الكثير منها لسوء الخط مزوراً فقد نحتمل الأوراق المـالية ونعيش بها وان وجد بينها المزور فأما أن تكون كلها مزورة فذلك مالا يقام عليه ولا يحتمل اذن تثور الفتن وتقوم الثائرات ويصاح بالديموقراطية والحرية والمساواة وغيرها اذ متى وجد الناس الأوراق كلها مزورة لاينال بها من الذهب كثير ولا قليل أخذهم اليأس فأقبلوا يصيحون لاذهب ولم يكن قط ذهب والحقيقة أن الذهب — وأعنى به عبادة البطل — موجود برغم كل شىء فى كل آن وكل بقعة ولن يفنى حتى يفنى الانسان

فشا فى هذا العصر رأى باطل هو إنكار وجود الابطال بل كراهة وجود الابطال أذكر لمعشر النقاد بطلا — الامام «لوثار» مثلا فاذا هم قد انبروا ينتقدونه — لا يأخذون فى إجلاله بل فى أخذ مقاسه ويسفر المقاس عنه رجلا عاديا ضعيفا ضئيلا ! ثم يقولون إنما ماينسب اليه من العظمة هو مستعار من أحوال عصره وظروف وقته فالوقت هو الذى أحدثه وشهره هو ابن الوقت وكل ماجرى على يديه هو من فعل الوقت لا فعله — هذا والله افن وسخف أيقول النقاد الوقت هو الذى أحدث ذاكم الرجل ؟ وا أسفاه ! لقد طالما صاحت الأوقات تنادى أين البطل ولا بطل أين العظيم ولا عظيم تصرخ الأوقات ياللفتى فيذهب نداؤها صيحة فى واد ونفخة فى رماد وما ذاك الا أن البطل والفتى لم يكن وقت النداء موجودا ولم يكن الله قد أرسله رحمة للعالم وبعد أن يبح صوت الوقت ولا مجيب تنهار أركانه وينهدم بنيانه ويعمه الخراب والتلف لان البطل لم يدركه حينما صاح يستنجده

والحقيقة أنه ما كان عصر من العصور ليخرب ويتلف لو قد أتيح له رجل كبير يجمع بين العقل والتقوى — بين عقل يعرف به حاجة العصر وعزم يمضى به فى ابلاغ العصر حاجته وفى هذين صلاح العصر وفلاحه ولكنى أشبه العصور الضعيفة الواهنة المصابة بالكفر والبلاء والحيرة وأذهانها الشاكة العاجزة وأحوالها المختلطة المضطربة يحدو بها سائق الشقاء الى غاية التلف — أشبه كل هذا بحطب يابس ميت ينتظر

من السماء شهابا يشعله وما الرجل العظيم مرسلا من قوس الله يجيش في صدره العزم ويغلي في عروقه البأس الا ذاكم الشهاب وما كلمته الا شفاء الغلة والتئام الجرح ومجتمع الاهواء ومستقر العقائد ثم لا يصيب الحطب حتى يلتهب من كل جانب نارا كناره ولكن المنتقد يحسب أن الحطب هو الذى أوجد ذلك الشهاب نحن لا ننكر أن الحطب كان فى شدة الحاجة الى الشهاب فاما انه أوجد الشهاب — ! ياالله من سخافة أولئك النقاد وحمقهم أما أنه ليس أدل على حطة امرىء ولؤمه من عدم ايمانه بالعظماء ليس أدل على خسة جيل من الاجيال وضعته من عماه عن نور الله المقدس وايمانه بالحطب اليابس الميت هذا والله أقصى منتهى الكفر إذ أن الرجل العظيم ما برح فى كل آن مستنقذ جيله من وهدة البؤس والشهاب الذى لولاه ما شبت النار فى الحطب وليس تاريخ العالم إلا كما قلت مجموع سير أبطاله

أولئك النقاد الاصاغر يبذلون الجهد فى ترويج سوق الكفر ونشر أعلام الضلال ولكنهم لا يفلحون إذ مازال يظهر الرجل العظيم من آن الى آن فيرمى بحقه باطلهم فاذا هو زاهق واذا هم قد ظلوا من مذاهبهم فى مثل بيت العنكبوت أو أوهى ثم لن يستطيعوا مهما حاولوا أن يقتلعوا من قلوب الناس عقيدة هى إجلال العظماء فطرية فى طبيعة الانسان لا تزول مهما اعتورها من الفساد والوهن واجلال العظماء باق ما بقى الانسان فالكاتب جونسون له من صديقه بوزويل أضرع مقدس

ونجل على أنهما كانا فى القرن الثامن عشر أشد العصور كفرا وفجورا والأمة الفرنسوية الكافرة تؤمن بفولتيرها وتظهر عبادتها الأبطال فى أغرب صورة حينما أمطروه بالأزهار حتى كاد يغرق بينها ويختنق بها خفقاً اذا كانت النصرانية أعلى أنواع تقديس البطل فان الفولتيرية من أسفل أنواعه ! فما أعجب أن يقع ذلك التقديس وتلك العبادة لرجل كانت حياته نقيض حياة المسيح وكان شيطاناً مريداً . هذا مع أن أبعد الناس من فضيلة التقديس والاجلال هم فرنسويوا هذا الجيل وماظنك بقوم كان الاستهزاء بكل شيء مذهبهم وشعارهم فليس فى نفوسهم موضع للاجلال والاكبار ومع هذا فانظروا كيف كان صنيعهم بفولتير يدخل فولتير باريس عائدا من رحلة طويلة شيخاً فانياً متهدما قد جاوز الرابعة والثمانين فيحسون أنه نوع من الأبطال أمضى حياته فى محاربة الضلال والظلم وكشف أمور المنافقين من أرباب المناصب — انه بالاختصار ممن جاهد جهاد الأبطال وإن لم يسلك فى ذلك الاخطة غريبة نعم يحسون أنه اذا كان الاستهزاء هو أكبر الأمور ففولتير اذن هو أكبر الناس هو الامام الأعظم الذى يقفون أثره ويتطلبون منزلته فهو فى الحقيقة الهم الذى لايصلح الاهم ولايصلحون الا له ولذلك عبدته فرنسا من الملكة مارى انتوانيت الى الحارس الذى على باب « سانت دينيس » بل لقد جعل الرجال من أولى المنزلة والجاه يتنكرون فى أزياء خدمة الفنادق لتسهل لهم رؤيته ويصيح الحوذى بفرسه : اسعدى أيتها

الفرس فانك تسيرين بالمسيو فولتير وقد شبه احد كتابهم تلك المركبة تخترق باريز برأس مذنب (نجم ذى ذيل) قد ملأ جميع الطرقات ذيله ثم كانت السيدات يتسابقن لاخذ شعرة من فروته لتبقى لمن تفوز بها أثرا ظاهرا وذخرا ثميناً ولم يكن بين سكان فرنسا من شريف أو فاضل أو جميل الا كان يعتقد أن فولتير أشرف وأفضل وأجمل

أجل ان البطل مازال معبوداً منذ «أودين» الى «جونسون» ومن المسيح الى أحقر قسيس فى كل مكان وزمان وسيكون ذلك مادام الليل والنهار لانه مامنا الا من يعشق الابطال — يعشقهم ويجلهم وينحنى اكباراً لهم وهل ينبغى الانحناء لغيرهم؟ بل ألا يحس المرء أن فى اجلاله لمن هو أرفع منه رفعة لنفسه؟ وهل جال فى صدر المرء احساس هو اشرف من ذلك وأقدس؟ وانه ليسرنى ويشفى نفسى أنه ليس فى طاقة السفسطة والاستهزاء والفجور والجحود أن تذهب من نفس الانسان تلك الغريزة الفطرية — عبادة الأبطال. هذا وأن أجيال الكفر التى تعقبها الفتن والثورات تكون مملوءة بدلائل الاضمحلال والبلى والخراب وانى لأرى فى غريزة عبادة الأبطال الصخرة الراسخة التى تتلقى الدول الساقطة فى مهاويها فتمنعها من الضياع فى أعماق الخراب فاذا انتهت الدولة المتدهورة الى تلك الصخرة وقفت بها ريثما تهيء نفسها للنهوض ثم تشرع ترتقى وتصعد حتى تعود الى أحسن مما كانت عليه وهكذا يظهر لى أن عبادة الانسان للبطل هى الصخرة الحية وسط كل سقوط

وتدهور - هى النقطة الوحيدة الثابتة فى التاريخ الثوروى الحديث والا كان هذا التاريخ كالبحر لايعرف عمقه قراره ولا تعرف سعته شاطئاً

كذلك أجد أن الوثنية روحها الحق وإن كان لها ظاهر مشوه كيف لا والطبيعة مازالت مظهر صنع الله وما زال البطل يعبد ومن هنا وذاك تالفت الوثنية وان اتخذت من الاشكال والاوضاع الحقير والمنكر وظنى أن وثنية قدماء النرويج أمتع لنا من كل ماعداها لانها (أولا) آخر الوثنيات عهداً اذ مازالت مستمرة حتى القرن الحادى عشر فمنذ ثمانمائة عام كان أهل الاسكانديناوفيا يعبدون «أودين» ثم هى هامة لنا من حيث أنها ديانة آبائنا أولئك الذين مابرحت دماؤهم جارية فى عروقنا والذين نشبههم فى عدة وجوه فعجبا أيها الاخوان أن يكون بين معتقدهم ومعتقدنا ذلك الخلاف

(وبعد) فلنلق نظرة فى عقائد أولئك القوم لجملة أسباب ولنعلم أن ذلك من الممكن ثم من السهل لأن تاريخ هذه العقائد قد قدر له الحظ فسلم على تقلبات الدهور وغوائل الحدثان

☆☆☆

فى تلك الجزيرة العجيبة المسماة «ايسلاندة» التى يخبر علماء طبقات الارض أنه استثارها زلزال نارى من قعر البحر - وهى بقعة موحشة يباب جرداء يشوب أديمها تراب البراكين ومن خواصها أنها تبقى بضعة من أشهر العام مطوية فى أجواف العواصف السوداء الا أن لها مع ذلك فى فصل

الصيف لألاء جمال موحش قفر — وهى وسط العباب الخضم تسمو صعدا مكفهرة الجبين جهمة الطلعة تبدو بها لمع الثلج كتفاريق الشيب فى الهامة الشمطاء وتفور فيها الينابيع الحارة حتى تئز مراجلها وتهدر (شقاشقها) الى غدران من سائل الكبريت و كهوف بركانية مظلمة فكأنما الجزيرة آثار معترك لمتكافح جيوش الجليد والنار — فى هذه الجزيرة وهى أبعد مايرجى أن يكون به تاريخ مرقوم عثر العاثرون على تاريخ الوثنية التى نحن بصددها وعلى شاطىء هذه الجزيرة القفر مستدق من تربة معشبة قد تعيش فيها الانعام والانسان من خير هاتيك النعم ومما يجود به اليم وكأنما كان ناس هذه البقعة المخصبة قوماً شعراء أغنى ذوى صدور جياشة بالمعانى وألسنة بها ناطقة فكلما تاملت علمت أنه كان يفوتنا شىء كثير لو لم تبعث البراكين تلك الجزيرة من قعر المحيط فلم يعمرها طوائف الاسكانديناف! إذ الحقيقة أن معظم شعراء الشمال القدماء كانوا من أهالى «إيسلاندة»

وكان بالجزيرة فى أوائل أمر المسيحية قسيس نصرانى يدعى «سيمند» لعله كان لايزال ينزع به عرق الى دين آبائه الوثنية فأخذ يجمع عددا من أغانيهم القديمة — مماقدطال عليه القدم فأمسى حوشيامهجورا وكان توحيدياً صوفياً عليه مسحة دينية وهذه المجموعة هى مايسميه أدباء الشمال ال «الاٮدار» أوال «ادا» الشعرية وهى كلمة مشكوك فى اشتقاقها لعل المراد بها «السلف» وبعد قرن من ذلك جاء رجل من سادة الجزيرة يدعى «سنوروسترلسون» وكان قد تلقى العلم من حفيد القسيس

«سيمند» فكتب فيما كتب تاريخاً حافلا لعقائد الوثنية وجعله نثرا مفصلا بشذور من النظم فجاء كتاباً بديعاً مونقاً بريئاً من كل أثر للتعمل والكلفة وهو مانسميه «عفو الخاطر» وهذا الكتاب هوالمسمى بال «ادا النثرية» فبفضل هذين المؤلفين وشتى أغانى غيرهما جلها «ايسلندى» وبفضل ما كتب عن جميعها من الشروح والحواشى بين «إيسلندى» وغير إيسلندى مما هوللآن مستمر فى البلاد الشمالية قدنستطيع أن نعرف بعض اليقين ونبصر تلك الوثنية وجها لوجه ولنتناس قبل كل شيء أنها دين باطل بل تتأملها على أنها فكر قديم ثم ننظر أمايمكننا أن نعتذرلها ونرتاح اليها شيئا ما

ان أول خواص هذه الوثنية فى رأيى هوالايمان الصريح بأن القوى الكونية هى أرواح كبيرة مدهشة رائعة مقدسة فتلك الأشياء التى تلقى فيهاالآن علوم الطبيعة والفلك والكيمياء كان هؤلاء القدماء يندهشون لرؤيتها ويركعون لها اجلالا ومهابة أعنى أن مانراه نحن فنا من العلم كانوا يرونه هم دينهم وعبادتهم كانوا يصورون من القوى الكونية الضارة المخوفة جانا ومردة «جوتان» مخاليق جساما شعثا غبرا شنع الصور لهم طبائع الشياطين والأبالسة والجليد والنار وزوبعة البحر من هذه الجان والمردة أما القوى النافعة كحرارة الشمس والشمس فهى آلهة وبين هذين الفريقين تنقسم دولة الكون وهما يعيشان منفردين كل فريق فى جهة ثم لاتخمد قط بينهما ثائرة الحرب ويسكن الآلهة الجنة (اسجارد)

فى السموات ويقطن المردة فى بقعة قصية مظلمة خراب اسمها دار المردة «جوتنهيم»

عجب كل هذا أنا لا أراه باطلا ولا خرافيا وكل من أصاب بالنظر الثاقب لبابه وسره وسبر بمسبار الفحص عمقه وغوره كان رايه فيه رأيى فقوة النار التى نخفى نحن مابها من آية العجب فى طى اسم كيماوى نجعله حجابا لروعة هولهـا كان القدماء يرونها عفريتاً سريع الحركة خفى المدب من قبيلة المردة «جوتان» وكذلك حسب قبائل المتوحشين من جزائر «لادرون» (هكذا ذكر أحد رحالة الاسبان) النار وكانوا لم يروها قط من قبل نوعا من الشياطين أو ضرباً من الآلهة يعضك اذا مسسته ويعيش بأكل الخشب وكذلك أرى أنه ماكان فى قدرة أى كيمياء قط أن تخفى عنا مابالنار من عجب لولا مايعينها من الحمق والغباوة ماهى النار ؟ — أما الجليد — فقد رآه كاهنهم القديم شيطاناً فظيعاً أشيب الرأس واللحية وسائر الشعر — المارد «هيرم» أو «رايم» وهى كلمة بطل استعمالهـا الا فى بعض أودية «اسكوتلاندة» وهكذا لم يكن الجليد عندهم كما نراه الآن شيئاً ميتاً ولكنما شيطان حى تراه اذا أظلم الليل يسوق أفراسه البلق الى كهفه حيث يقبل عليهن بمشط شعورهن — وهذه الافراس البلق هى سحب البرد ورياح الجليد أما بقره فهى جلاميد الثلج ثم ان هـذا الشيطان يضرب تلك الجلاميد بعين عفريت فتنفطر وتتصدع

ولم يكن الرعد فى تلك الاوقات مجرد كهرباء وإنما كان الاله «دونار» (ثاندار)[1] — اله الرعد وهو أيضاً إله حرارة الشمس ذات الخير والبركة وإنما زمجرة الرعد هى غضبه وسخطه وما احتشاد السحاب السود وازدحامها الا تقطيب جبين ذلك الاله وكسر حاجبيه وما الصاعقة تنقض من السماء الا السنان اللامع يطير من كفه ثم هو يدفع عجلته الصخبة فوق قلل الجبال فدويها وقعقعتها هو جلجلة الرعد وتراه من غضبه ينفخ فى لحيته الصهباء فذلك خفيف الريح قبل الارعاد و«بولدار» الاله الابيض الجميل العادل المنعم (الذى وجد المبشرون الأول أنه أشبه شىء بالمسيح) هو إله الشمس — أجمل الاشياء الظاهرة واحدى العجائب والاسرار رغماً من جميع الفلكيين وعلم الفلك! ولكن أعظم الآلهة فى ظنى هو ذلك الذى عثر على أثره العالم الاشتقاقى الالمانى «جريم» وهو الاله «ونش» أو «وش»[2] إله الطلب الذى يعطينا كل مانطلب! أليس ذلك أخلص دعاء النفس الانسانية وأعمق اصوات الروح؟ وان لم تكن بعد دعاء مهذباً وصوتاً منقحاً هذا أبسط آراء الانسان وهو مع ذلك عنصر جوهرى فى أحدث مذاهب الدين

وأذكر من باقى الآلهة «آجير» إله الزوبعة وذلك لأن النوتية بنهر «ترنت[3]» مابرحوا للآن متى أبصروا الماء قد طما فى حالة المد (وهى حالة

---

(١) كلمة انكليزية معناها الرعد (٢) كلمة انكليزية معناها «طلب»
(٣) نهر بانكلترا

خطرة) صاحوا «حذرا فان آجير» قادم عجباً لهـذا اللفظ قد بقى بعد زوال تلك القرون كأن دنيا طغى عليها المـاء فغرقت فى عبابه الا ذؤابة قمة مابرحت لابصارنا بادية! وقد كان أسلاف هؤلاء النوتية فى العصور الغابرة يؤمنون بالاله آجير وما ذلك الا لأن تلك القبائل الشمالية البائدة قد نزلت ببلادنا قديمـا وضربت فى أنسابنا فدمنا مزيج من السكسونى والدنماركى والشمالى ولا أرى بين أحد هـذه الثلاثة والآخرين الا فرقا سطحياً مثل ما أرى بين النصرانى والمسلم والوثنى

وعن الههم الاكبر أودين سنتكلم قريبا ان شاء الله ولـكن اعرفوا قبـل ذلك ماذا كان جوهر الوثنية الاسكانديفية أو الشمالية: هو الايمـان بقوى الكون واعتبارها إلهيـة رائعة شخصية — أعنى آلهة وأبالسة ولعـله قول معقول ومفهوم وكذلك كان الفكر الانسانى فى طفولته يتفتح لرؤية الـكون الهائل تفتحا مشفوعا بالعجب والهيبة وقد أرى فى هـذا النظام الوثنى معنى حرا جزلا شريفا وسذاجة قوية لم تهـذب جد تهـذيب مخالفة لرشاقة الوثنية اليونانيـة وخفتها والحق يقال أن مذهب الوثنيـة الشمالية ماهو الا فكر صريح قوى هو الفكر العميق الحر يتفتح فى قلوب صحيحة حارة لرؤية الكائنات رؤية وجه لوجه وقلب لقلب وهو أول خصائص الفكر الصحيح فى كل آن فلست ترى لتلك الوثنية الشمالية ما كنت ترى لأختها اليونانية من الرقة واللعب إنمـا تتبين فيها قوة ساذجة وحقاً مألوفا واخلاصا جما

كبيرا وانه لمن الغريب أن نهبط من صرح الوثنية اليونانية البديع مصفوفة صوره منضودة دماه فى أبدع نظام وأجمل نسق إلى بيوت الوثنية الشمالية تمرح فى أفنيتها آلهتها و تخمر النبيذ لتشربه مع «آجير» اله الزوبعة ثم يرسلون «ثورا» اله الرعد ليحضر المرجل من ديار الشياطين ويذهب «ثور» إلى تلك الديار و بعد الجهد الجهيد يأخذ المرجل فيلبسه على رأسه كقلنسوة وينقلب راجعا وقد غاب تحت المرجل وبلغ المرجل مواطىء قدميه! وكذلك ترى لهذا النظام الوثنى ضخامة جوفاء وجسامة شوهاء وقوة هائلة الا أنها لم تهذب فهى كطفل المارد كبير القدم فسيح الخطوة لكنها قدم عاثرة وخطوة طائشة فانظروا أصلحكم الله ماذا كان رأيهم فى خلق الدنيا

لما تحارب الجليد والنار حدثت ريح حارة تكون منها مارد اسمه «يمير» ثم احتال الآلهة حتى قتلوا ذلك المارد وأخذوا جثته فجعلوها دنيا فاما دمه فذلك هو البحر وأما لحمه فهو الأرض والصخور عظامه ثم جعلوا حاجبيه مسكناً لهم أعنى الجنة أو «اسجارد» وجعلوا جمجمته قبة السماء وما بها من دماغ فهو السحاب فهذه استعارة طرفها فى المشرق والآخر فى المغرب وأصلها فى الارض وفرعها فى السماء — آراء جسامماردية هائلة مازالت بها العصور تهنه جبروتها وتذلل طغيانها وتحولها عن الطبيعة الماردية إلى الصفة الالهية والثانية أقوى ولا ريب من الاولى — مازالت بها العصور حتى حولتها إلى أفكار شاكسبيرية ومعان

لوثرية[١] فأولئك الوثنيون القدماء هم آباء أدياننا مثلماهم آباء أجسامنا

ويعجبنى منهم كذلك تشبيههم الحياة بشجرة جذرها فى مملكة الموت ثم يسمو ساقها صعدا إلى السماء فينشر ذوائب فروعه على جميع أنحاء الكون وهذه هى شجرة الوجود ويجلس عند أصلها فى مملكة الموت ثلاثة أقضية (جمع قضاء) الماضى والحاضر والمستقبل يروون جذورها من البئر المقدسة ثم تمتد أفرعها وما يجرى بها من إيراق وازهار وأثمار وسقوط أوراق وازهار وثمار — ويكنى بهذه عن الحوادث والمحن وصروف الزمن وتقلبات الحال — تمتد أفرعها بكل هذه الامور فى جميع الامكنة والازمان أليست كل ورقة من اوراق هذه الشجرة ترجمة انسان وكل خيط من خيوط تلك الورقة كلمة أو فعلة ؟ وأفرعها تواريخ الامم ووسواسها صوت الحياة صادرا عن الابد إلى الابد فاذا تنفس فى خلالها النسيم فتلك زفرات القلب الانسانى وان صاحت بين أفنانها العاصفة فذاك صوت الآلهة هذه شجرة الوجود — هى الماضى والحاضر والمستقبل — ما كان وما يكون وما سيكون — تصريف فعل «يكون» تصريفاً لانهاية له فاذا تأملتم معشر الاخوان كيف ان جميع الافعال البشرية تتسلسل وتتصل وليس واحد منها الا آخذا بعنق الآخر متداخلا فيه — وكيف ان الكلمة التى ألقيها عليك اليوم مستعارة من جميع العالم منذجرت أول لفظة على لسان أول متكلم — اذا تأملتم كل ذلك رأيتم أنه لاتشبيه قط أصدق

(١) نسبة الى لوثر. رأس المذهب البروتستانتى

من تشبيه الشجرة هذا: نعم ما اجمله وما اجله اذا قستموه باستعارة أهل هذا العصر التى تشبه الوجود بمكينة «مكينة الوجود» بل أرى تشبيه الأقدمين أشرف من أن يقاس بتشبيه المتأخرين وأنبل! حقاً ان مذهب أولئك الوثنيين الشماليين لعجيب مخالف لما نعتقده نحن فى الطبيعة فمن أين أتى؟ من افكار أولئك الشماليين ولاسيما من فكر أول رجل شمالى وهبه الله قوة الفكر — أول شمالى نابغة عبقرى كما ينبغى أن نسميه! وكم قبل هذا الرجل قد عاش فى العالم من رجال غير ذوى فكر لم يك منهم ازاء هذا الكون الرائع الهائل الا العجب الأبكم كالذى يحسه الحيوان أو العجب المشفوع بالسؤال والبحث المتعب الكاد بغير طائل كالذى يشعر به الانسان حتى أتى الرجل المفكر الكبير — الرجل العبقرى الذى يوقظ فكره راقد الافكار فى جميع الاذهان وكذلك شأن المفكر أو البطل الروحانى فان مايقوله قد كان كامناً فى نفوس العامة وكانوا يحسونه ويتلهفون على أن ينطقوا به ولكن لاسبيل فما هو الا أن ينطق ذلك البطل حتى تثور جميع الافكار من مكامنها كأنما هبت من رقاد طويل فتجيب الدعوة أسرع اجابة فرحة به فرح السارى بالصباح ولا غرو فانما هو خروج من العدم الى الوجود — من الموت الى الحياة — فياسقى الله عهد ذلك الرجل الكبير فانه جدير أن يسمى شاعراً وكبيراً وعبقرياً وماشاكل ذلك وان حسبه أهل عصر ساحرا وصاحب معجزات ومسدى أياد وآلاء ونبياً والها! والفكر متى انبعث فلن ينام بعد مبعثه أبدا بل يعود معدن أفكار تصدر عنه طائفة

بعد طائفة ويزكو غرسه فى رجل بعد رجل وجيل بعد جيل حتى يبلغ كماله فاذا بلغه لم يكن ثمت مجال للنماء وانما يقلع ذلك الغرس ويخلى مكانه لغيره

ونحسب أن مثل هذا الرجل كان موجودا فى أمة الشمال وهو الذى كانوا يدعونه الاله أودين — وكان لهم أستاذا واماماً فى أحوالهم الروحانية والجثمانية وبطلا كبيرا لاتقدر قيمته أفرط اجلال الناس له حتى صار عبادة ولاجرم فانه أهل لذلك أفما كان قد أوتى فضيلة النطق بالفكر الجليل وفضائل أخرى كانت اذذاك من المعجزات فما لهم لايشكرون آلاءه من حبات قلوبهم أمافسر لهم لغز هذا الكون وعرفهم ماذا يجب عليهم فى هذه الدار وماذا ينتظرون فى الدار الآخرة وأنطق الوجود وأحيي الحياة فهو منشأ الوثنية الشمالية وأكبر ظنى أن أودين هذا أول مفكر من أمة الشمال كيفما كان اسمه كان ولاشك رجلا يعيش بين الرجال وهو ما كاد ينشر رأيه فى الكون حتى ثار فى جميع الاذهان مثل رأيه تماماً فكانما كان مكتوباً على صحائف الاذهان بالحبر المغطى فما هو الاأن فاه بكلمته حتى انكشف غطاء الحبر فظهر واستبان وكذلك مازال قدوم الرجل المفكر على العالم هو الحادثة الكبرى أم سائر الحوادث!

ثم لاننسى شيئاً آخر أحسب أن فيه بعض البيان لمشكلات تاريخ الوثنية الشمالية أل «ادا» وذلك انها ليست نظاماً فكرياً واحدا متماسكا ولكنما مجموعة نظامات شتى الاصول والازمان ولن يعرف الناس قط

تواريخ هذه النظامات وكيف تنقلب من صورة الى صورة بما ادخله عليها مفكر بعد مفكر الى أن لبست الهيئة التى نراها لها فى كتاب أل «ادا» كلا ولن يعرف ماصنعه «أودين» نفسه وماذا عسى أن يعرف من الانباء عن «أودين» بل أنى يعرف عنه أنباء وكيف يكون له تاريخ وعجيب أن يكون أودين هذا بكسائه الوحشى ولحيته الوحشية ومقلته الوقادة الوحشية ولهجته الخشنة الشمالية بشرا مثلنا تناله أحزاننا وأفراحنا ويمشى على مثل أرجلنا وأقدامنا عجيب أن يكون مثلنا حذوك النعل بالنعل ثم يكون قد أتى كل هاتيك المدهشات والغرائب ! ولكن هذه الغرائب قد بادت وباد الصانع الاسمه «أودين» اذ أن لفظة «ودنزداى[1]» أصلها «أودين زداى» ولعل فى هذه اللحظة أناسا ينطقون هذا اللفظ فليس يوجد لأودين تاريخ وليس فيما رجم فيه المرجمون مايستحق أن يذكر

قد زعم المؤرخ «سنورو» زعما لم يخجل منه على وضوح سخافته بل شفعه بأمتن لهجات الثقة أو القحة وذاك أن أودين كان أميراً وفارساً بطلا فى بقعة بقرب البحر الأسود له اثنا عشر تابعا كلهم سيد عشيرته ثم ان بلادهم ضاقت بهم فخفوا الى ناحية الشمال حيث نزلوا بعد أن فتحوا تلك الأقطار وأن هذا الأمير أودين اخترع الحروف الأبجدية والشعر وغيرهما ثم آل به الأمر الى أن اتخذه أهل اسكانديفيا إلها معبودا واعتبروا

(١) انكليزية معناها يوم الأربعاء

اتباعه الاثنى عشر أبناء له و آلهة كذلك هـذا مالايشك فيـه المؤرخ «سونورو» ولكن المؤرخ «جراماتيكاس» وهو آخر من أهـل الشمال اشد ثقة برايه من «سونورو» لايصعب عليه أبدا أن يختلق لـكل خرافة من خرافات القدماء أصلا وحقيقة ثم يدون ذلك كما لو كان حادثة عادية وقعت ببلاد الدينمارك أوغـيرها ويجيء المؤرخ «تورفوس» بعد هذين بقرون وهو ياللاسف عالم ومحترس فيضع تاريخا لزمن أودين اذ يقول أن أودين قدم أوربا عام سبعين قبل الميلاد وبمـا أن هذه الأقوال ظنون أساسها الشك قد كشف بطلانها الزمن فلاحاجـة بى هنا الى تفنيدها بل حسبي أن أقول أن تاريخ أودين كان قبـل عام ٧٠ بأدهار طويلة وأزمان مديدة ولاأرى أودين وتاريخ وجوده ووقائعه وسائر تاريخه الاشيئاً قد غاب عنا البتة وسط الآلاف المؤلفة من غابر الاعوام

ويجيء بعد ذلك المؤرخ «جريم» الألمـانى فينكر وجود «أودين» بالمرة ويثبت قوله بعلم الاشتقاق فيقول ان لفظة «فوتام» التى هى أصل كلمة «أودين» المجعولة علماً على الاله الأكبر لدى جميع الشعوب التيوتونية فى كل مكان — هـذه اللفظة التى تتصل حسبما زعم «جريم» باللفظة اللاتينية «فادير» واللفظة الانجليزية «ويد» الخ — معناها القـديم «الحركة» و «القوة» فهى الاسم اللائق للاله الأكبر لالمخلوق

قال جريم وهذه الكلمة اسم لله عندقدماء السكسون والجرمان وسائر الأمم التيوتونية والنعوت المشتقة منها كلها فى معنى مقدس وأكبر

وماشا كل حسن وايم الله ماقال المسيو «جريم» ثم لا يسعنا الا الاذعان للسيد المذكور فى جميع المسائل الاشتقاقية فلنقر ولنقتنع بأن كلمة «فوتان» أو «أودين» يرادبها «الحركة» و«القوة» فما الذى يمنع أن تكون اسما لرجل بطل محرك كما أنها اسم لاله ؟ فاما من حيث أن النعوت المشتقة منها كلها فى معنى مقدس وأكبر أليس قد اشتق الاسبانيون من اسم بطلهم الكبير «لوبى» حينما غلا بهم تقديسه لفظة «لوبى» نعتاً لكل شىء أفرط جماله حتى قالوا بستان لوبى وورد لوبى وغادة لوبى: فلو أن ذلك استمر لأصبحت كلمة لوبى وهى نعت من نعوت الاسبانية معناه ملائكى الجمال أو الهى الجمال ولقد قال آدم سميث فى مقالته على اللغة أنه مامن نعت الا وكان فى الأصل اسما لشىء من الأشياء ثم قرن على سبيل المجاز والاتساع إلى كل شىء شارك الشىء الأصلى فى صفته فكلمة أخضر مثلا كانت فى الأصل اسما لشىء شديد الخضرة ثم إن الناس كلما أبصروا شيئاً فيه خضرة — عشباً مثلا — قالوا عشب أخضر وما نزال نقول ساعة ذهباً وخاتما حديداً فكل النعوت فى زعم «سميث» كان أصلها أسماء وأشياء ولا يسعنا أن نعدم رجلا ونقضى عليه لمجرد مسائل اشتقاقية كهذه! ولا شك فى أنه قدكان لأولئك القبائل القديمة رجل كان أول أستاذ وقائد وحقاً لقد وجد فى وقت ما رجل هو «أودين» أو مثل «أودين» يبصر بالعين ويلمس باليدين وليس من النعوت بل بطلا مصورا من لحم ودم!

فاما كيفية صيرورة الرجل «أودين» الها — الاله الأكبر — فهذا مالا أحسب أن أحداً يحب أن يتفلسف فيه وقد قلت أن أهل عصره لم يعرفوا لاجلالهم إياه حدا بل لم يكن لديهم اذ ذاك ميزان يزنون به الاجلال فان أردت أن تتصور اجلالهم ذاك فتوهم اجلالك لبطل من أكبر الأبطال وحبك إياه حبا من صميم الحشا مايزال ينمو ويزداد حتى يتجاوز كل مقدار ويفوت كل حد وحتى يمتلىء به وعاء صدرك ويطفح أو ربما كان ذاك الرجل «أودين» اذ منحه الله العقل الكبير وبعث فى ذهنه نورا من لدنه وفجر فى نفسه ينبوعا من عنده أصبح يرى نفسه سرا من الأسرار ولغزا لايحل وشيئاً يوجب الرعب والدهش فى نفسه هو فحسب انه ربما كان الهى المنشأ أى شعبة من القوة الكبرى والذات العليا المسماة «فوتان» أو «أودين» (بمعنى القوة العظمى) أنا لا أحسب أن ذلك قد كان منه غشا وتدليسا إنما هى هفوة وهو أصدق مالديه والحقيقة أن كل ذى نفس كبيرة صادقة لايعرف من ذاهو — فيخال نفسه طورا فى أعلى قمة وآنا فى أسفل حضيض ويظل ولا شىء أشكل عليه من أمر نفسه ثم ترى أن رأى الناس فيه وظنه هو بنفسه يؤثر كل منهما فى الآخر بما يحدث نتيجة فاذا أبصر الناس قد عكفوا عليه يقدسونه وأحس هو فى فؤاده حرارة وجدان شريف ووقدة شعور طاهر كبير وخليطاً مشوشا من ظلمة حالكة ونور وهاج ثم نظر فاذا حواليه كون هائل يقطر من جميع أنحائه ماء الجمال: هذا: وقد علم أنه لم يسبقه إلى هذا المقام العلى

إنسان — خبرونى نشدتكم الله ماذا عساه يحسب نفسه ؟ كأنى به يناجى نفسه «أأنا قوة كبيرة» فاذا الناس أجمعون يجيبونه «بلى قوة كبيرة!» «فوتان» أو «اودين»!

ثم اذكروا ما لمجرد مر الدهور وتقادم العهد من التاثير العظيم فى مثل هذه الأمور وكيف أن الرجل الذى كان أثناء حياته عظيما تبلغ عظمته بعد الممات عشرة أمثالها وظلمة القدم من شأنها أن تجسم مايصير فيها وكذلك إذا كان للشىء الهالك محبة فى الفؤاد واجلال استفحل فى الناكرة وتجسم فى الخيال فما بالكم إذا كان العصر . عصر ظلمات وجهل مطبق فلا تاريخ ولا كتاب ولا رقعة ولا نقش فى حجر اللهم الا صخرة صماء على سبيل الأثرهنا وهناك بلى والله انه لولا الكتب لأصبح كل رجل جليل بعد أن يمر على وفاته وفناء جيله أربعون عاماً ضربا من أولئك الأبطال الذين تسمعون عنهم فى خرافات القدماء فماذا يكون إذا مضى على وفاته ثلاثمائة أو ثلاثة آلاف عام! — انه لا فائدة فى التفلسف فى مثل هذه الموضوعات فانها تأبى بطبيعتها البحث والاستقصاء ولا مجال فيها لعلم المنطق والبرهان وحسبنا أن نلمح فى أقصى أعماق ذلك الدهر البائد وميض نور حقيقى يبرق فى جوف تلك الصورة المختلطة المعتمة — حسبنا أنه لم يكن صميمها بزور ولا جنون وإنما حق ومعقول

ويزعم أن «أودين» اخترع حروف الهجاء وكان ياتى بها ضروباً من السحر فهبوا ذلك صحيحاً أفليس اختراع الحروف هو أكبر اختراع

منذ أقدم الدهور إلى وقتنا هذا ؟ وهل هناك شيء أكبر من إبراز كوامن الأفكار بعلائم ظاهرة ؟ أليس ذلك نطقاً ثانيا لايقل غرابة وإعجازا عن الأول ثم ألا تذكرون ماذا كان اندهاش ملك « بيرو » المسمى « أتاهولبا » عند ما أرى الحروف الهجائية وكيف صعب عليه أن يصدق بتلك المعجزه فأمر أحد حراسه من الجند الاسبانيين أن ينقش على ظفره لفظة « ديوص » ليمتحن بها الجندى الذى إلى جانبه حتى يتحقق صدق هذه المعجزة فاذا كان أودين قد أوجد الحروف فى أمته فما باله لايأتى بفنون من السحر ؟

ويحكى لنا المؤرخ « سنورو » أيضاً أن « أودين » اخترع الشعر الذى هو موسيقى الكلام فتخيلوا أصلحكم الله أنفسكم فى هذه العصور عصور طفولة الامم — فى تبلج صباح الشعوب الاوربية إذ يشرق فى جميع الانحاء لألاء جديد ندى وإذ أوروبا طفلة قد بدأت تفكر بل بدأت تكون ! فكل قلب به دهشة وكل نفس بها رجاء — رجاء ودهشة يتوهجان فى جميع النفوس شعاعا جما ونورا عميما ! أولئك كانوا أبناء الطبيعة الأقوياء وكان لهم فى « أودين » فوق كونه قائدهم وفارس خيلهم شاعر ونبى ومفكر صادق كبير ومبدع ومخترع وكذلك شمة الرجل الجليل فى كل آن أن يكون بطلا من جميع جوانبه بطلا قبل كل شيء فى روحه وفكره وهكذا كان لذلك البطل المتوحش « أودين » إلى أمته كان له قلب كبير قد فتح أبوابه فتلقى هذا الكون الكبير وتلقى الحياة الانسانية كما كانت حينذاك

ثم قال كلمته فى هـذه وذاك فهو كما قلت بطل فى صورة وحشية اولية ولكنه بطل عبقرى كريم النفس شريف الخلق فاذا كنا نحن أبناء القرن التاسع عشر لانزال نعجب بذلك الرجل فماذا كان اعجاب أولئك المتوحشين به حقا لقد كان عندهم بطلا بل نبيا بل إلها أو بعبارتهم هم «فوتان» أى «أودين» ومعناها القوة الكبرى والفكر رعاكم الله فكر فى أى صورة بدا وعلى أى شكل ظهر حتى لأحسب أن «أودين» هذا هو من قبيل أكبر أبطال العالم وحسبكم برهانا فكره الكبير فى قلبه الوحشى العميق ! أفلا ترون فى كلماته الخشنة جذور ألفاظ انكليزية لانزال نستعملها ؟ وما وجوده فى تلك العصور المظلمة بضائره وهو نجمها اللامع وشهابها الساطع

لجدير بنا أن نرى فيه أنموذج الرجل الشمالى وأشرف بنى جلدته ثم ما كاد يظهر فى قومه حتى تفجرت قلوبهم له عن أخلص الولاء وأصدق العبادة فهو الجذر الذى أنبت أشياء جمة ولا تزال ثماره يانعة يرف رونقها فى جميع أرجاء الحياة التيوتونية حتى إن كثيرا من أسماء بلادنا واسم يوم الاربعاء كما ذكرت مشتقاً من لفظة «أودين» أفلا ترون بعد ذلك أن آثار الرجل قد جاوزت إلى بلادنا وأن أفرعا من فروعه قد امتدت الينا ومن ذلك الجذر ذياك الورق !

فاذا كان الرجل أودين قد باد وهلك ذكره فهذا ظله الواسع المديد مازال ينشر أعلامه على تاريخ الامم التيوتونية جميعه لانه متى سلمنا أن

اودين كان وقتاما الها أمكننا أن نفهم أن نظام أفكار الأقدمين أو عدم نظامهم أو بالاختصار كل ما كان لديهم قبل مجيء هذا الرجل قد أخذ بعد مجيئه وتعاليمه فى طريق آخر ولبس هيئة جديدة اذ جعل جميع الامم التيوتونية ينقشون على ألواح ضمائرهم كل ماقال ذلك الرجل وعلم بحروفه وشعره وأصبح مذهبه مذهبهم ورأيه رأيهم وكذلك شأن الرجل الكبير فى كل حين أو ماترون فى العقائد الاسكاندنافيه التى يصعد ظلها الهائل من أعماق ظلمات الأعصر الخاليات فينتشر على الأفق الشمالى صورة الرجل «أودين» ؟ نعم الفكر فكر كيفما كان وما كانت حياة الرجل العظيم لتكون قط عبثا وما تاريخ العالم الا مجموع سير أبطاله !

بيد انى أرى فى صورة ذلك التاريخ القديم شيئاً مرققا للافئدة وهو افراط أولئك القوم المتوحشين فى حب بطلهم وان شاب ذلك الحب سذاجة وعجز نعم انه وان شابه منتهى العجز فلقد كان فى منتهى الوفاء والشرف وهو فوق ذلك وجدان قديم خلقه الله حين خلق الانسان وأمالو أمكننى أن أفهمكم مالم أزل أعتقده منذ زمن مديد من أن هذا الوجدان هو عنصر الرجولة الحيوى وروح تاريخ الانسان فى هذه الدنيا لكان لكم فى ذلك غنية عن كل ماسوف ألقيه عليكم من هذه المحاضرات نحن لانعبد أعاظم رجالنا الآن كلا ولا نفرط فى اجلالهم بل نقتصد يالللاسف — فى اجلالنا لهم ألأم اقتصاد ! فهذا وربكم شر ونكر ولكن خلو العالم من العظماء أشر وأنكر وأدهى وأمر

وكذلك نرى فى مذهب هؤلاء الوثنيين على علاته فضلا وقيمة ثمينة وهو وان لم يكن اليوم بحق فقد كان فى يومه حقا أليست كأنها صوت آبائنا الأول يصيح من أعماق القرون الغابرة يهيب بنا نحن أبناءهم الذين لاتزال عروقنا تزخر بدمائهم يقول «هذا رأينا فى الدنيا هذا كل ما استطعنا أن نصور به لأنفسنا سر هذه الحياة وهذا الكون فلا تحتقروا رعاكم الله رأينا ومبلغ جهدنا واجعلوا بدل احتقاركم لنا شكراً لله الذى رفعكم فوقنا درجات فأصبحتم بحمده أكثر منا اشراقا على كونه وأصح رؤية ولكن لاتحسبوا أنكم بلغتم القمة فان رأيكم وان فضل رأينا لكنه مازال جزئياً ناقصاً والامر أعظم من أن تناله مدارك انسان لاأثناء الزمان ولا خارج الزمان وكأنى بالانسان بعد أن تمر عليه من هذه اللحظة آلاف السنين بالرقى والنهوض لايزال يجد أن أقصر جهده هو الالمام بطرف من أطراف هذا الكون فان الأمر كما قلت أكبر من الانسان وليس فى وسعه أن يفهمه وكيف وهو شىء عديم النهاية»

الايمان بأن الكون شىء الهى مقدس ومناجاة المرء للقوى الخفية البادية آثارها فيما حوله من الكائنات هو عنصر خرافات الاسكاندناف وسائر الخرافات ولعل الوثنية الاسكاندنافية أصدق فى هذا الأمر من جميع ماعداها اذ الاخلاص أكبر خواصها وهذا الاخلاص هو عزاؤنا عن خلو ذلك المذهب مما يزين وثنية اليونان من الرقة والتهذيب فقد احس أن هؤلاء الشماليين كانوا يتأملون الطبيعة بعين بصيرة وروح

يقظى وقلوب صحيحة مخلصة جمعت بين معنيى الطفولة والرجولة الى سذاجة فى شرف احساس وعمق فى نشاط وصفاء واجلال فى شغف واخلاص فى شجاعة فلله أولئك القوم ما كان أشجعهم وأصدقهم وكذلك ترى أن هذا الايمان بالطبيعة قد كان أكبر عناصر الوثنية فاما الايمان بعظمة الانسان وواجباته الالهية والادبية وان لم يكن مفقودا من الوثنية فهو العنصر الأهم فى الأديان والأطهر والأصفى وكذلك ترى أن الانسان يذهب فى أول أمره إلى الطبيعة وقواها فيرتاع لها ويعبدها ثم لا يعرف أنه لا قوة فى الحقيقة الا القوة الأدبية وان أهم الأمور هو تمييزه بين الخير والشر بين الفرض والمحرم الا بعد تصرم الدهور الطويلة

أما من حيث الخرافات المذكورة فى كتابهم المسمى ال «ادا» فهى كما ذكرت آنفاً أحدث عهدا من مدة «أودين» ولعلها لم تكن فى نظر أولئك الأقوام الا ضربا من اللهو والفكاهة ولم تكن انجيلا لهم ولا توراة إذ أن العقيدة كما قدمت لابد أن توجد أولا ثم تزدحم حولها الأقاصيص الشعرية التفاف الجسد بالروح ولا أحسب العقيدة الشمالية الا أنها كانت قبل نظم الأشعار حية فعالة فى نفوس أهلها وكذلك سائر العقائد تكون أنشط وأنمى كلما كانت أسكت وأصمت

ومما يرى فى كتابهم ال «ادا» ذلك الكتاب المبهم المظلم يؤخذ أن رؤس العقائد لم تكن الا ما يأتى الايمان بالمنتخبين وهم الآلهة الموكلون بانتخاب من يقضى عليهم بالقتل فى ساحة الوغى وحومة الحرب ثم

الايمان بالقضاء المحتوم وهو أن من قضى عليه ان يموت قتلا فلا مرد لذلك القضاء ولا مفر ثم الاعتقاد بأن أول واجبات المرء هو أن يكون شجاعا أليست هذه الثلاثة هى أعظم أصول الشرائع العظمى شريعة لوثر وشريعة محمد بل أزيدكم وشريعة نابليون أيضاً بل هى سنة الانسان أينما كان وكيفما كان وهى السلك الذى يؤلف نظام فكره أجمع والخيط الذى منه ينسج ثوب عقيدته وهؤلاء المنتخبون يسوقون الشجعان الذين قضوا فى معترك القتال الى قاعة «اودين» أما الادقة الاخساء والجبناء الأذلاء فينبذون فى ديار «هيلا» آلهة الموت هذا هو فيما أراه روح الوثنية الشمالية جميعها فقد كان أولئك الاقوام يعتقدون أن الشجاعة رأس كل شىء وانها على الحر الكريم فرض محتوم وضربة لازم وأنهم يستوجبون سخط «أودين» ويستنزلون عقابه اذاهم لم يشجعوا فى جميع المواطن فانظروا بربكم أما ترون فى ذلك معنى عالياً كبيرا؟ حقاً انه لواجب أبدى وفرض سرمدى حتى اللحظة كما كان حقاً فى تلك العصور أن يكون الانسان شجاعا وما زال أول واجبات المرء أن يقهر الخوف وحقاً أنه ينبغى لنا أن نقطع دابر الخوف فانه لاسبيل الى العمل حتى نصنع ذلك فاذا لم يجعل المرء الخوف وراء ظهره وتحت قدمه كان خليقا أن تخبث نفسه ويفسد طبعه وتكون أعماله تقليدية لا استقلالية وافكاره زورا وباطلا لصدورها عن نفس ذليل وقلب جبان ولذلك ارى انه لو استخلص لباب المذهب الاوديني من قشوره لالفي حقا الى

هذه الساعة كيف لا وإنما أول واجبات الانسان ان يكون كما قدمنا شجاعا وأن يمضى قدما فى سننه ويكون رجلا فى كل مايحاول ويزاول ثم هو فى جميع ذلك يؤمن بقضاء الله وقدره وما زال ظفر المرء على الخوف وظهوره على الجبن هو ميزان فضله ومقياس رجولته فى كل آن

ولا شك فى أن شجاعة أولئك الشماليين القدماء كانت وحشية جدا وقد روى المؤرخ «سنورو» أنهم كانوا يرون الموت فى غير مواطن الحرب عارا وسبة

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل
وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

فاذا أحس أحدهم دنو الأجل واقتراب الموت الطبيعى أحدث الجراح فى بدنه تزلفا بذلك إلى «أودين» ليفسح له فى جناته مقاما وكان الملوك إذا أشرفت عليهم مناياهم أمروا بأنفسهم أن يجعلوا فى سفن ثم ترسل السفينة فى اليم منشورة القلاع تدب فى خشبها نار بطيئة المسرى فاذا انساب بها زاخر التيار وهبت له الريح تأججت فى بدنها النار وطار فى أركانها شواظها وكذلك يلقى البطل العظيم بين أحشاء الماء وجوانح الهواء قبرا شجاعة وحشية قاسية حمراء دامية ولكنها شجاعة. وخير من لاشيء ثم أى نجدة روعاء وهمة قعساء وأى عزيمة ومضاء قد كانت لملوك البحر من أولئك الشماليين! لكأنى والله أراهم مشمرين على ظهور سفنهم صامتين مقفلي الشفاه غير شاعرين بأنهم قد أوتوا منتهى

البسالة والنجدة — يكافحون البحر الثائر وعفاريت أمواجه وشياطين حيتانه ونينانه بل يكافحون البر والبحر وكل ماعليهما أولئك آباء بحارتنا: رالى وبلاك ونلسون! لقد ذهب أولئك الأبطال وما ترنم بعظائم أعمالهم شاعر كهوميروس الا أنى أرى مآثر اغامنون (أحد أبطال اليونان فى شعر هوميروس) تتضاءل فى جانب مسعاة رجل من أولئك الأبطال الشماليين — رجل مثل «رولف» أو «رولو» أمير نورماندى ذلك الملك البحرى الفاتك فانى أرى له الآن يدا فى حكومة انكلترا وان كان قد مرت على عهده القرون والدهور

ولم يكن بلا فائدة كل مافعله أولئك الأقوام من الجولان فى البحار ومن الحروب والوقائع أثناء عدة أجيال لان ذلك لم يكن الا تنازع الرئاسة ليعلم أى أمة أقوى فتسود ثم رأيت أن من أولئك الملوك الشماليين من كان يلقب قاطع الشجر أعنى الملوك الذين كان من شأنهم قطع الغابات وفى ذلك معنى وايم الله كبير ولقد أخطأ المؤرخ «سكالدز» حيث زعم أن هؤلاء الملوك كان أمرهم قاصرا على الحرب بدليل أن الحرب وحدها لاترزق أمة ولاتمير شعبا وكيف وثمارها قليلة وخيراتها نزرة! وإنى لاحسب أن المحارب الصادق يكون كذلك الغابى [1] الصادق — أعنى أنه يكون أيضاً المصلح الصادق والمفكر الصادق والعامل الصادق لايدع أمرا إلا ويتناول برفق وصدق وما ذلك الا لان الشجاعة

---

(١) أعنى قاطع الغاب

الصادقة هى الاساس لكل هذه الامور والشجاعة الصادقة شىء والقسوة والفظاعة شىء آخر فقطع الغاب ضرب من الشجاعة الصادقة قد أبداه أولئك القوم ضد الغابات وضد الظلم الوحشى من قوى الكون ليذللوا لنا الطبيعة ! أولم نسر نحن أبناءهم فى ذلك الطريق الذى نهجوه لنا اذن فلا أبعد الله تلك الهمة وهاتيك الشجاعة !

ويظهر لى أن تعليم أودين قومه فضيلة الشجاعة واجابة القوم إياه لاصابة قوله هوى فى نفوسهم وظنهم أن كلامه وحي جاء به من السماء وأنه لذلك إله — يظهر لى أن هذا هو أول بذره نبتت منها الديانة الشمالية وفروعها من الخرافات على اختلاف ضروبها وألوانها والرموز الشعرية والقصائد والقصص والاناشيد والاغانى الخ أأقول نبتت ؛ عجبا عجابا ! إنما يقال نبت للشىء الحى وقد قلت أن هذا المذهب الوثنى لم يك الا ظلمة حالكة يبرق فى جوفها ذهن أودين كالنجم فى الديجور نعم ولكنها ظلمة حية تدبروا رعاكم الله ذلك هذه الظلمة هى الذهن المتوحش الجاهل — ذهن تلك الامة البربرية الشمالية يصبو ويتلهف على أن يلهمه الله الفطنة والنطق فيستمر الى ماشاء الله فى فطنته ونطقه ! نعم ان الفكر بذرة تنبت وتنمو ثم تنمو ثم لاتزال تنمو وتنمو كشجرة الهند متى اصبت بذرة منها فقد حصلت من شجرها على مالا نهاية لعدده وذلك أن البذرة تخرج شجرة فاى فروع هذه الشجرة أصاب الأرض صار فى الحال جذراً لشجرة جديدة تنبت فروعاً فتصير جذوراً وهكذا الى ماشاء الله والفكر حى

لايموت واول من فكر من الرجال على ظهر هذه الأرض فهو بادئ الجميع — ثم الثانى والثالث بل كل مفكر صادق إنما هو من قبيل «أودين» أو إن شئت فقل إنما هو «أودين» على النكرة ثم هو قد بعثه الله ليعلم الناس رأيه فى الله والكون والانسان ولينشر ظل صورته على أجزاء من تاريخ العالم

فأما مزايا ذلك المذهب الشعرية فهذا مالا موضع له هنا كلا ولا كبير أهمية وقد يوجد أشعار نبوئية حادة حارة ولكنها على كل حال ضرب من اللهو أضافها الى قواعد الدين أناس متأخرون وما أحسب أنه قد بقى من أشعارهم الا الأغانى وأمثال هؤلاء المتأخرين لايزال منهم من يترنم بالاشعار شأن المصورين المحدثين لايبرحون يصورون لامن صميم القلوب كما كان قدماء المصورين وكما هو الأصل فى التصوير والباعث عليه بل ربما ليس من القلوب قاطبة فاعلموا ذلك ولا تنسوه

وقد حاول شاعرنا «جراى» أن يصف لنا عيشة أولئك الوثنيين القدماء فخاب خيبة الشاعر بوب اذ ترجم «الالياذة» فلم يؤاته الشعر على ابراز روح هوميروس وحسب جراى أن حياة أولئك القوم كانت موحشة مظلمة ترفرف عليها ظلال الروع والرعب فصورها كذلك ولم يدر أن أهم عناصرها هى وعورة كوعورة صخورها وخشونة كخشونة قفارها الى أنس لاوحشة وانشراح لا انقباض وشىء من الفكاهة والضحك بين مناظرها المهيبة ومشاهدها الرهيبة وكان القوم غاية فى

السذاجة لم يميلوا فى تصوير آلهتهم ووقائع هذه الآلهة الى ما مال اليه إخوانهم اليونان من روائع الرواية التمثيلية فكأنى بأولئك الشماليين لا يجدون فى وقتهم فسحة لأن يقفوا مبهوتين مرتعدى الفرائص أمام مدهشات المرسح ثم يعجبنى جداً سذاجتهم وصدقهم واستقامة نظرهم فمن ذلك ما يتخيلون من أن «ثوراً» إله الرعد يقطب جبينه فى حنق صادق ويقبض على سيفه قبضة تبيض من شدتها مفاصل أصابعه ثم أجد كذلك الرحمة بادية فى أجمل مظاهرها فى خرافاتهم تلك فمن ذلك أن «بولدار» الاله الأبيض — إله الشمس الكريم المنعم الجميل يموت فلم يدعوا فى الطبيعة شيئاً الا نقبوا فيه عن دواء ولكنه مات وقضى الأمر فتبعث أمه «فريجا» رسولا اسمه «هرمودر» ليبحث عنه ويطوى الرسول تسع ليال وتسعة أيام يخب فى أودية منخفضة مظلمة ومنعرجات معتمة مشكلة حتى يبلغ القنطرة وسقفها الذهبي ويقول له الحارس «نعم» لقد عبر «بولدار» ههنا آنفاً ولكن مملكة الموت هنالك بعيدة جداً الى جهة الشمال فيستمر الرسول فى سبيله حتى يصل باب مملكة الموت ويرى بولدار ويحادثه فاذا هو رهين بذلك الملك قد قضى عليه أن لا يغادره قضاء محتوما لا مفر منه وقد أبت ملكة الموت أن تطلقه كلا ولو أرادت ذلك الآلهة طرا ثم إن امرأته تطلب من أجله أن تموت لتؤنسه فى ديار الموت فيجاب طلبها ويبقى الزوجان معاً آخر الابد ثم يرسل «بولدار» خاتمه الى «أودين» وترسل زوجته «نانا» خاتمها على سبيل الذكرى

ــ وا اسفاه ووارحمتاه!

والحقيقة أن الشجاعة ينبوع الرحمة ــ ينبوع الصدق والشرف والكرم والمروءة والبر وسائر المحامد والمناقب وقد قال المؤرخ «اهلاند» أليس من آيات القوة والشجاعة أن تجد نفوس هؤلاء القوم فى اله الرعد رفيقا مؤنسا؟ وأن لاتخاف ولا تذعر من رعده بل ترى أنه لابد لحرارة الشمس وللصيف الحلو الجميل من مصاحبة الرعد؟ وقد كان الرجل الشمالى يرتاح ويستأنس الى «ثور» ويحبه ويحب سيفه القاذف بالصواعق ويلاعبه ويداعبه وكان ذاك الاله عنده هو إله الحرارة الشمسية أيضا أعنى إله العمل والامن والخير والبركة وصاحب الفلاح ورفيقه فى الغرس والحرث ثم ان «ثورا» نفسه لا يترفع عن مباشرة جميع الأعمال الخشنة السوقية وما يزال يذهب الى ديار الشياطين ليذلل عفاريت الثلج والجليد ويقهرها وفى بعض هذه الأقاويل مافيه فكاهة وضحك

فمن ذلك ماذكرنا من أن «ثورا» يذهب الى ديار «المردة» ليجلب مرجل «هيمير» حتى تصنع فيه الآلهة نبيذ الشعير فيدخل عليه «هيمير» شيخ الابالسة ولحيته مرصعة بالبرد وكلما رمى ببصره عمودا من العمد انفاق من حدة نظرته وبعد طويل صخب وعربدة يأخذ «ثور» المرجل فيلبسه فى رأسه فاذا هو قد بلغ قدميه ذلك لانه مرجل مارد ــ «هيمير» الذى كان كل بقرة من بقره هضبة من الثلج

هذه أفكار وايم الله ماردية هائلة الجسامة غير أنها تحتاج الى ان تراض وتذلل حتى تصير أفكارا شاكسبيرية ودانتية [١] وجايتية [٢] ثم انى أبصر نسبة قريبة بين «ثور» اله الرعد و«جاك قاتل المردة» وبين «هندى ايتن» و«ايتن الاحمر الايرلندى» التى جاءت فى أقاصيص شعراء أحدث عهداً من شعراء تلكم العصور الوثنية بل انى لا أجد «هامليت شاكسبير» الا فرعا من تلك الشجرة القديمة الشمالية وهذا مالا نزاع فيه ولا ريب نعم ان هامليت أو أمليت قد ورد فى خرافة قديمة من أساطير الاولين تحدث عن مقتل ملك بصب السم فى أذنه أثناء نومه الى غير ذلك من حوادث الرواية الشاكسبيرية خرافة قديمة أخذها أولا الشاعر القديم «ساكسو» فصاغ منها قصة دانماركية ثم تناول شاكسبير ماصنعه «ساكسو» فصور منه ماترونه فهذا فرع من الشجرة الشمالية المنفسحة الافياء قد نما طبيعة أو صدفة

وحقا ان فى هذه الاغانى الشمالية معنى صادقا شريفاً شأن كل قول تتداوله الرواة وتتوارثه القرون وليس هو مجرد جزالة فى اللفظ وشرف فى الديباجة ولكنما شرف وجزالة فى المعنى وخشونة فى الروح ووعورة وأرى فى قلوب أولئك القدماء جدا صامتا واطراقا فى غير ضجر ولا شكوى وكأنى بهؤلاء الشماليين قد رأوا بالبديهة والالهام مارآه الناس

---

(١) نسبة الى دانتى أكبر شعراء ايطاليا وأعظم رجالها قاطبة

(٢) نسبة الى جايتى أكبر شعراء ألمانيا وأعظم رجالها على الاطلاق

فى جميع العصور بالروية والتفكير وهو أن الدنيا باطل وعرض زائل بل خيال لا حقيقة وكذلك رأى الفلاسفة من كل أمة وملة

العيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سارى

ومن أقاصيص القوم ذات الحكمة والعظة أن «ثورا» يذهب إلى «اتجارد» — حديقة أرض المردة يصحبه اثنان من اتباعه «ثيالفى» و «لوكى» وبعد حوادث مختلفة يأتون بلاد المردة فيجعلون يطوفون فى سهول وقفار بين صخور وأشجار حتى إذا جن الليل آنسوا داراً وكان جانب من جوانبها كله بابا فولجوه فاذا مكان حقير خال فأقاموا به فلما سجى الليل راعهم ضجيج وضوضاء فأخذ «ثور» معوله واعتور الباب متحفزاً للقتال وجعل صاحباه يجريان هنا وهنالك فزعا يلتمسان مخرجا فوجدا غرفة صغيرة فعاذا بها وأقام ثور بالباب يترقب عدوا مهاجماً ولا عدو ولما أصبحوا وجدوا أن الضوضاء لم تكن الاشخير مارد جسيم ولكنه مسالم — المارد «سكريمير» وكان نائما ناحية منهم وكان المكان الذى حسبوه دارا فباتوا فيه إنما هو إحدى قفازتى ذلك المارد قد ألقاها إلى جانبه عند ما أراد النوم وكانت الغرفة التى عاذا بها هى بيت الابهام ولم يكن للقفازة بيوت لسائر الأصابع يالها من قفازة عتيقة!

ثم إن المارد «سكيرمير» صحبهم سحابة اليوم يحمل حقيبتهم ولكن «ثورا» ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى نام وكذلك أتاه وهو راقد فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الأصم فلم يفعل المارد أكثر من أنه

انتبه وحك وجنته وقال ورقة سقطت ثم عاد فى نومه فارسل « ثور » على وجهه ضربة أشد فلم يك من المارد أكثر من أنه همس قائلا ماهى الاحصاة ثم نام فصب عليه « ثور » بيديه جميعاً ضربة أحدثت أثراً بوجه المارد فما زاد على أن قطع شخيره وقال أحسب أن بهذه الشجره عصافير والا فما هذا الذى سقط على ؟ ثم إن « سكير مير » دخل بأصحابه باب حديقة المردة وكان يوم لهو وشراب فناولوا « ثوراً » كأسا وسألوه أن يشتف مافيه بجرعة واحدة فكرع فيه ثلاثا طوالا وما كاد يحدث أثراً فقالوا له طفل ولا ريب ثم أومأوا له إلى قطة فسألوه أيقدر أن يرفعها فحاول « ثور » فما استطاع أن يرفع بعد الجهد الجهيد الا إحدى أقدامها فقالوا له : ماأنت ياهذا برجل — انظر ثمت الى تلك العجوز البالية أيمكنك أن تصرعها فعانقها ثور وجهد وكد فما فعل شيئاً

ولما هموا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثور لقد غلبت ولكن لاتخجل فان فى الأمر سرا أنا كاشفه لك فاما الكاس التى حاولت أن تشرب فلم تقدر فذلك البحر وحسبك أنك أحدثت به جزرا ومن ذا الذى ياثور يستطيع أن يشرب البحر ؟ وأما الهرة التى أردت أن ترفعها فتلك هى الحية التى تلتف حول الأرض فتمسك أجزاءها وتضم أركانها فقل لى أكنت محاولا برفعك اياها أن تخرب العالم ؟ وأما العجوز فهذه هى الدهر والهرم والدوام ومن ذا الذى يصارع ذلك ؟ لا انسان ولا

إله فانها غلابة لكل شيء وأما الضربات الثلاث التى ضربتها فتاويلها أن تنظر إلى هذه الاودية الثلاث «فهى من صنع ضرباتك» فنظر «ثور» إلى رفيقه فاذا هو المارد «سكيرمير» وهذا المارد هو الارض ذاتها وما قفازته إلا أحد الكهوف وأملس المارد فلم يبق له أثر ثم إن ثورا التفت لينظر حديقة المردة فاذا هى قد صارت هواء ولم يبق الاصوت المارد يهتف به ساخرا «أولى لك أن لا تعود إلى ديار المردة!» —

هذا من الرموز الشعرية الفكاهية لا من الاقاويل التنبؤية الجدية ولكن أليس فيها على خرافتها مادة غزيرة وذهب إبريز؟ نعم ذهب أنقى وأصفى مما يوجد فى خرافات اليونان وان كانت أجود صنعة وأرشق معرضا وقد أرى لذلك المارد «سكيرمير» فكاهة جمة أساسها الجد والاعتبار والحزن كأنها قوس قزح وسط الزوبعة السوداء. ومن هذا القبيل كانت فكاهة شاعرنا الفحل «بين جونسون» وهى فكاهة تجرى فى دمائنا حسبما يخيل الى لأنى أكاد أسمعها الآن من أقاصى غابات أمريكا يصدح بها كاتبها الكبير «امرسون»

ومن الرائع الكبير من أفكار القوم ذاك الذى فى الصورة الآتية وهو أنه تقوم حرب بين المردة والآلهة فتنتهى بموت الجميع وخراب الكون ولكنه موت مؤقت ريثما يتجدد كون ذو سماء أجمل وأبهى وارض أنضر وأحلى وإله أشرف وأقوى يعدل بين الناس جميعاً فعجيب من هؤلاء الناس كيف أدركوا بطريقتهم الخشنة ومذهبهم الوعر سر القيامة

والبعث وهذا فيما اراه القانون الأساسى لكل مخلوق أحدثه الدهر وأقامه فى دار الأمل[1] قانون قد نفذ اليه نظر ذوى الاخلاص والبصيرة وسينفذ مادام الانسان

ولننظر الآن الى الخرافة التى يذكر فيها آخر ظهور « ثور » فى الأرض ونجعلها خاتمة هذا الباب ولعلها فيما يخيل الى آخر هذه الخرافات عهداً وفيها انكار لانتشار النصرانية مشفوع برنة حزن على ماتولى من عهود الوثنية — وضعها على سبيل العتاب والشكوى رجل من محافظى الوثنيين فى أوائل انتشار النصرانية ببلاد النرويج وهذا فحواها بينما الملك « اولاف » امير النرويج ذلك الذى كان له اليد الطولى فى هدم صروح الوثنية ونشر ألوية النصرانية فى البلاد سائحا فى حاشيته على سواحل النرويج يتنقل من ثغر الى ثغر ويبث العدل فى الرعية أو يصلح من أمورها اذا بغريب بادى الوقار أصهب اللحية نبيل الصورة مهيب الطلعة قد طرأ ثم كان من حديثه ماأعجب الملك وراعه ولكنه مالبث أن غير من لهجة كلامه فخاطب الملك قائلا : نعم أيها الملك « اولاف » ما أجمل هذا الشاطىء يزهو فى رونق الضحى وما أندى خضرته وأبهى نضرته فحبذا السهل وحبذا الجبل وهنيئاً لك الملك والدولة والسلطان ولكن اذكر أنك ما كنت ممتعاً بذاك لولا ما مهده لك « ثور » من أمر البلاد وما وطأه لك من شأن الملك فكم كافح دونه المردة وكم دافع عنه

---

(١) الدنيا

الأبالسة وكم لاقى فى ذلك من يوم أرونان (شديد) ونهار عصيب والآن إذ استتب لك الأمر وطاب لك الزمان تناسيت «ثورا» ودفنت ذكره فيا أيها الانسان انتبه من رقدتك وكن من أمرك على حذر!» قال الغريب ذلك وقطب جبينه والتفت الملك وحاشيته فاذا هو قد غاب عن الأبصار وكان هذا آخر ظهوره على مرسح العالم! وإنى لأرى باعث حزن وشجن فى ذلك الصوت — آخر أصوات الوثنية الذى فنى معه «ثور» والعالم الشمال باكمله فناء لارجعة بعده وكذلك كل جليل ورائع وعظيم فالى الفناء مصيره وما من شىء حبيب الينا عزيز علينا الا وتجرى بالفراق بيننا وبينه بارحات الطير ونجوم النحس ويروعنا بنواه يوم وداع

وكذلك كان لاولئك الشماليين الانجاد فى تقديس الشجاعة (هكذا يمكننا أن نعرف وثنيتهم) ما كفاهم دينا وشرعا وما تقديس الشجاعة بالامر الهين ثم لا أحسب أن عرفانا بعض الشىء عن وثنية آبائنا الا شيئاً مفيدا ذلك أن الدين لايبرح منه فى نفوسنا: وان لم نشعر بذلك: أثر فشعورنا به جدير أن يجعل صلتنا بالماضى آكد وفهمنا له أصفى وأثقب والماضى تعلمون ميراث لنا وأى ميراث وهو جزء من الحقيقة التى هى مجموع كل عصر وكل أمة فعلمنا بالجميع خير من جهلنا به وقد جاء فى كلام «جايتى» أن رجلا اسمه «مايستر» سأل أستاذه بأى الاديان الثلاثة أنت مؤمن فأجاب «بجميعها لان من اجتماعها يتكون الدين الحق»

المحاضرة الثانية

البطل فى صورة رسول

محمد – الاسلام نتقل الآن من تلك العصور الخشنة – عصور الوثنية الشمالية إلى دين آخر فى أمة أخرى – دين الاسلام فى أمة العرب وما هى الانقلة بعيدة وبون شاسع بل أى رفعة وارتقاء نراه هنا فى أحوال العالم العامة وأفكاره

فى هذا الطور الجديد لم ير الناس فى بطلهم إلهاً بل رسولا بوحى من الاله وهذه هى الصورة الثانية للبطل فأما الأولى وأقدم الجميع فقد ذهبت الى حيث لاتعود أبداً ولن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عظم بل لنا أن نسأل أكان من أى ناس قط أنهم عمدوا الى رجل يرونه ويلمسونه فقالوا هذا خالق الكون أنا لاأظن ذلك إنما يقولون هذا القول فى رجل يتذكرونه أو كانوا رأوه على أن هذا أيضاً لن يكون قط ولن يؤله البطل من ثم فصاعداً ولو بلغ منتهى العظمة

لقد كان اعتبار الرجل العظيم الهاً غلطة وحشية فاحشة ولكن دعنا نقل أن الرجل العظيم مابرح فى جميع الأزمان لغزاً من الألغاز لاندرى كيف نفسره ولا كيف نستقبله ونعامله! ولعل أهم مزايا جيل من الأجيال هو كيفية استقباله لرجله العظيم وسواء استقبلوه كاله أو كنبي

أو كيفما كان فذلك هو السؤال الأكبر ومن طريق إجابتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم فى ذلك الأمر يمكننا أن نبصر صميم حالتهم الروحانية كما لو كان من خلال نافذة

فان الرجل العظيم إذا كان مصدره واحدا — أعنى من ذات الله فهو جنس واحد : «أودين» أو «لوثر» أو «جونسون» أو «بارنز» وأرجو أن أوفق الى أفهامكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة وانه لم يحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر إلا الهيئة التى يكتسونها هم أو الطريقة التى يستقبلهم بها أهل زمنهم

⁂

لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر ان يصغى إلى مايظن من أن دين الاسلام كذب وأن محمدا خداع مزور وآن لنا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة فان الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرناً لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذى خلقنا أفكان احدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والاحصار أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدا ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس الا بله ومجانين وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها أن لاتخلق

فوأسفاه ماأسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة (وبعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات أن لايصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء! فانها نتائج جيل كفر وعصر جحود وإلحاد وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان ولعل العالم لم يرقط رأياً أكفر من هذا وألأم وهل رأيتم قط معشر الاخوان أن رجلا كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره عجباً والله ان الرجل الكاذب لايقدر أن يبنى بيتاً من الطوب! فهو إذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شا كل ذلك فما ذلك الذى يبنيه ببيت وإنما هو تل من الانقاض وكثيب من أخلاط المواد نعم وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس ولكنه جدير ان تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن وانى لأعلم انه على المرء ان يسير فى جميع أمره طبق قوانين الطبيعة والا أبت أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته كذب والله مايذيعه أولئك الكفار وان زخرفوه حتى خيلوه حقاً وزور وباطل وان زينوه حتى أوهموه صدقا ومحنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوباً وأمماً بهذه الأضاليل وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ويحيق مصابها بالغير لا به وأى مصاب وأيكم؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسوية وأشباهها من الفتن والمحن تصيح بملء أفواهها « هذه

الاوراق كاذبة!»

أما الرجل الكبير خاصة فانى أقول عنه يقيناً أنه من المحال أن يكون كاذباً فانى أرى الصدق أساسه وأساس كل مابه من فضل ومحمدة وعندى انه مامن رجل كبير — ميرابو أو نابليون أوبارنز أو كرمويل — كفء للقيام بعمل ما إلا وكان الصدق والاخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة مايحاول أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء بل أقول ان الاخلاص — الاخلاص الحر العميق الكبير — هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذى لايبرح يفتخر للناس باخلاصه كلا فان هذا حقير جدا وأيم الله هذا اخلاص سطحى وقح — وهو فى الغالب غرور وفتنة انما اخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه كلا ولايشعر به بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الاخلاص اذ أين ذاك الذى يستطيع أن يلزم منهج الحق يوماً واحدا؟ نعم ان الرجل الكبير لايفخر باخلاصه قط بل هو لايسأل نفسه أهى مخلصة أو بعبارة أخرى أقول ان إخلاصه غير متوقف على ارادته فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله حقيقة لايستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول هكذا خلق الله ذهنه وخلقة ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته هو يرى الكون مدهشاً ومخيفاً وحقا كالموت وحقاً كالحياة وهذه الحقيقة

لاتفارقه أبدا وان فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخبطوا في غياهب الضلال والعماية بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه كأنها مكتوبة بحروف من اللهب لاشك فيها ولا ريب هاهي! ها هي! — فاعرفوا هداكم الله ان هذه هي أول صفات العظيم وهذا حده الجوهري وتعريفه وقد توجد هذه في الرجل الصغير فهي جديرة أن توجد في نفس كل انسان خلقه الله ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيما إلا بها

مثل هذا الرجل هو مانسميه رجلا أصلياً صافي الجوهر كريم العنصر — فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة الينا فقد نسميه شاعرا أو نبيا أو إلها وسواء هذا أو ذاك أو ذلك فقد نعلم أن قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ولكنه صادر من لباب حقائق الاشياء نعم هو يرى باطن كل شيء لايحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات وسخيف الاوهام والآراء وكيف وان الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها ثم اذا نظرت الى كلمات العظيم شاعرا كان أو فيلسوفا أو نبيا أو فارسا أو ملكا ألاترا ها ضربا من الوحي والرجل العظيم في نظري مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للاشياء وقد دل الله على وجوده بعدة آيات أرى أن أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة فوجب علينا أن نصغي اليه قبل كل شيء

وعلى ذلك فلسنا نعد محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرع بالحيل والوسائل الى بغية أو يطمح الى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر وما الرساله التى أداها الا حق صراح وما كلمته الاصوت صادق صادر من العالم المجهول كلا ما محمد بالكاذب ولا الملفق وانما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فاذا هى شهاب قدأضاء العالم أجمع ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين

وهب لمحمد (عليه السلام) غلطات وهفوات — واى انسان لايخطىء انما العصمة لله وحده — فانه ليس فى طاقة أية هفوات او غلطات أن تزرى بتلك الحقيقة الكبرى وهى أنه رجل صادق ونبى مرسل

وأرانا على العموم نجسم الهفوات ونجعل من الجزئيات حجبا تسترعنا الحقائق الكلية. الهفوات ! أيحسب الناس أنه يخلو منها إنسان ان أكبر الهفوات عندى أن يحسب المرء أنه برىء من الهفوات مابال الناس لا يذكرون نبى الله داود ؟ ألم يرتكب داود أفظع الجرائم وأشنع الآثام الا ماأهون أمر الذنوب وأصغر خطر الاغلاط — الجزئيات والقشور — إذا كان لبابها كريما وسرها حرا شريفا وكان فى التوبة النصوح والندم الصادق ووخز الضمير ولذع الذاكرة أكبر مكفر للسيئات ومطهر

لاردان الروح من أدران الشوائب أليست التوبة اكرم اعمال المرء قاطبةوأقدس أفعاله ؟ إنما ألأم الذنب هو كما قلت حسبان المرء انه برىء من كل ذنب وكل نفس هذا شأنها فهى فى نظرى مطلقة من الوفاء والمروءة بعيدة عن التقى والبر والحق — أو هى ميتة — أو إن تشأ فقل هى نقية نقاء الرمل الجاف الميت وإنى أحسب أن سيرة داود وتاريخه كما هو مدون فى مزاميره لاصدق آية على ارتقاء المرء فى معارج المكرمات وعلى حرب العقل والهوى — حربا طالما ينهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبه وتتركه لقى مشفيا على الانقراض ولكنها حرب بغير نهاية مشفوعة أبدا بالبكاء والتوبة واستنهاض العزم الصادق الذى لا يبرح يتجدد بعد كل هزيمة ياويل النفس الانسانية ما أشد خطبها بين ضعفها وقوة شهواتها! أو ليست حياة الانسان فى هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل فى استطاعة المرء خلاف ذلك ؟ وهل يطيق فى ظلمات هذه الحياة الا الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من عثرة الا لاخرى وبين هذه وتلك نحيب وعبرات وشهيق وزفرات وانما الأمر الهام هو أيظفر على هواه بعد كل هذه المجاهدات ؟ وانا لنصفح عن كثير من الجزئيات مادام اللباب حقا والصميم صحيحا وما كانت الجزئيات وحدها لتعرفنا حقيقة انسان

٭٭٭

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلادا كريمة وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق فكان ثمت شبه قريب بين وعورة

جبالها ووعورة اخلاقهم وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة كما كان يبسط من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء وكان الأعرابى صامتا لايتكلم الا فيما يعنيه إذ كان يسكن أرضا قفرا يبابا خرساء تخالها بحرا من الرمل يصطلى جمرة النهار طوله ويكافح بحر وجهه نفحات القرليله

رأت رجلا اماإذا الشمس عارضت فيضحى واما بالعشى فيخصر

ولا أحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعةويناجون أسرارها الا أنهم يكونون أذكياء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبي النظر وإذا صح أن الفرس هم فرنسويو المشرق فالعرب لاشك طليانه والحق أقول لقد كان أولئك العرب قوما اقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم احصن سور وأمنع حاجز وهذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مثواه وينحر له فاذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه ثم هو بعد كل ذلك لايحجم أن يقاتله متى عادت به اليه الفرص وكان العربى أغلب وقته صامتا فاذا قال أفصح: ويزعم أن العرب من عنصر اليهود والحقيقة أنهم شاركوا اليهود فى مرارة الجد وخالفوهم فى حلاوة الشمائل ورقة الظرف وفى ألمعية القريحة وأريحية القلب وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات فى الشعر يجرونها بسوق عكاظ فى جنوب البلاد حيث كانت تقام أسواق التجارة فاذا انتهت الأسواق تناشد

الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للاجود قريضا والأحكم قافية فكان الأعراب الجفاة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد ويجدون لرناتها أى لذة فيتهافتون على المنشد كالفراش ويتهالكون

وأرى لهؤلاء العرب صفة من صفات الاسرائليين واضحة فيهم واحسبها ثمرة الفضائل جميعا والمحامد بحذافيرها ألا وهي التدين فانهم مذ كانوا مابرحوا شديدى التمسك بدينهم كيفما كان وكانوا يعبدون الكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخالق ودلائل على عظمته فهذا وان يك خطأ فليس من جميع وجوهه فان مصنوعات الله مابرحت بوجه ما رموزا له ودلائل عليه ألسنا كما قدمت نعتدها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يكون يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أو «أسرار الجمال الشعرى» كما اصطلح الناس على تسميته ؟ وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقضيه مبلغ علمه ورأيه ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدد وأى تقوى واخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين ؟ وقد اتفق النقاد أن «سفر أيوب» أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدس قد كتب فى بلاد العرب وأرانى فى هذا الكتاب فضلا عن كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر يراع ودونت يد كاتب ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموها — عمومية تخالف التعصب والتحيز وحسب الكتاب شرفا أن يكون يضرب بعرق فى كل نفس ويمت

بصلة الى كل قلب ويكون كالبيت يفضى اليه منتهى السبل وكالأرج الضائع تتنازعه جميع الانوف

والكتاب المذكور هو أول ماجاءنا عن مسألة المسائل — حياة الانسان وفعل الله به فى هذه الدار وقد أتانا بذلك فى أنصع بيان وأشد إخلاص وأحسن سهولة وإنى لأتبين فيه العين البصيرة والقلب النافذ الفهم الجم الخشوع فهو الحق من حيث جثته والنظر الراسب فى قرارة كل شيء وصميم كل أمر — مادى وروحانى ألا تذكرون ماجاء فيه من ذكر الفرس «الله الذى أودع الرعد حنجرته» «فهل ترى صهيله الا قهقهة لرؤية الرماح ؟» هذا والله أجود الاستعارة وما أحسب أن فى عالم التشبيه كله مايماثل ذلك أو يقاربه ذلك إلى مافى الكتاب المذكور من آيات الحزن الشريف والتوكل الحسن الجميل وما قرأت فيه قط الا حسبت قلب الانسانية يترنم شجى ووجدا ودمع الانسانية يفيض حرقة وكمدا فيالها من رقة فى شدة ورأفة فى قوة وما أشبهها الا بسحر الليلة الصائفة — رقة نسيم فى جلال مشهد عظيم وإلا بالكون وكل مافيه من أنجم وبحار وليل ونهار وما أحسب أن فى جميع التوراة شيئاً يدانيه فضلا وقيمة

والحجر الأسود كان من أعم معبودات العرب ولا يزال للآن بمكة فى البناء المسمى «الكعبة» وقد ذكر المؤرخ الرومانى «سيسلاس» الكعبة فقال انها كانت فى مدته أشرف معابد العالم طرا وأقدمها وذلك

قبل الميلاد بخمسين عاما وقال المؤرخ « سلفستاردى ساسى » أن الحجر الاسود ربما كان من رجوم السموات فاذا صح ذلك فلا بد أن إنسانا قد بصر به ساقطا من الجو! والحجر موجود الآن إلى جانب البئر زمزم والكعبة مبنية فوقهما والبئر تعلمون منظر حيثما كان سار مفرح ينبجس من الحجر الاصم كالحياة من الموت فما بالكم بها إذا كانت تفيض

بديمومة لاظل فى صحصحانها ولاماء لكن قورها الدهر عوم
ترى الآل فيها يلطم الآل مائجاً وبارحها المسموم للوجه ألطم
أظل اذا كافحتها وكأننى بوهاجها دون اللثام ملثم

وقد اشتق لها اسمها زمزم من صوت تفجرها وهديرها والعرب تزعم أنها انبجست تحت أقدام هاجر وإسماعيل فيضاً من الله وشفاء وقد قدسها العرب والحجر الأسود وشادوا عليهما الكعبة منذ آلاف من السنين وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها فهى فى هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها الكسوة السوداء التى يرسلها السلطان كل عام يبلغ ارتفاعها سبعاً وعشرين ذراعاً حولها دائرة مزدوجة من العمد وبها صفوف من المصابيح وبها نقوش وزخارف عجيبة وستوقد تلك المصابيح الليلة لتشرف تحت النجوم المشرقة فنعم أثر الماضى هى ونعم ميراث الغابر هذه كعبة المسلمين ومن أقاصى المشرق الى أخريات المغرب — من دلهى الى مراكش تتوجه أبصار العديد المجمهر من عباد الله المصلين شطرها وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات هذا اليوم وكل يوم نعم لهى

والله من اجل مراكز المعمورة وأشرف أقطابها

وإنما من شرف البئر زمزم وقدسية الحجر الاسود ومن حج القبائل الى ذياك المكان كان منشأ مدينة مكة ولقد كانت هذه المدينة وقتاما ذات بال وشأن وان كانت الآن قد فقدت كثيراً من أهميتها وموقعها من حيث هي مدينة سيء جداً اذ هي واقعة فى بطن من الأرض كثير الرمال وسط هضاب قفرة وتلال مجدبة على مسافة بعيدة من البحر ثم يمتار لها جميع ذخائرها من جهات أخرى حتى الخبز ولكن الذى اضطر الى إيجاد هذه المدينة هو أن كثيرا من الحجيج كانوا يطلبون المأوى ثم ان أماكن الحج مازالت من قديم الزمان تستدعى التجارة فأول يوم يلتقى فيه الحجيج تلتقى فيه كذلك التجار والباعة والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض رأوا أنه لابأس عليهم أن يقضوا كل مايعرض لهم من المنافع وان لم يكن فى الحسبان لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب بأجمعها والمركز لكل ما كان من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين إيطاليا وقد بلغ سكانها فى حين من الاحيان مائة ألف نسمة بين بائعين ومشترين وموردين لبضائع الشرق والغرب وباعة للمأكولات والغلال وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية الارسطوقراسية عليها صبغة دينية وذلك أنهم كانوا ينتخبون لها بطريقة غير مهذبة عشرة رجال من قبيلة عظمى فيكون هؤلاء حكام مكة وحراس الكعبة وكانت لقريش فى عهد محمد وأسرة محمد من قبيلة قريش وكان سائر الامة مبددا فى أنحاء

تلك الرمال قبائل تفصلها بين الواحدة والاخرى البيد والقفار وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء: وربما كان الامير راعياً أو ناقل أمتعة ويكون فى الغالب لصاً وكانت الحرب لاتخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها ولم يك يؤلف بينهم حلف على الا التقاءهم بالكعبة حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنياتهم مذهب واحد والا رابطة الدم واللغة وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهورا طوالا خاملى الذكر غامضى الشأن — أناساً ذوى مناقب جليلة وصفات كبيرة ينتظرون من حيث لايشعرون اليوم الذى يشاد فيه بذكرهم ويطير فى الآفاق صيتهم ويرتفع الى عنان السماء صوتهم وما ذلك ببعيد وكأنما كانت وثنياتهم قد وصلت الى طور الاضمحلال وآذنت بالسقوط وقد حدثت بينهم دواعى اختلاط وفوران وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض أنباء عن أكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة — أعنى حياة المسيح ووفاته وهى التى أحدثت انقلاباً هائلا فى جميع سكان العالم — فلم تعدم هذه الأنباء تأثيرها من الفوران فى أحشاء الامة العربية

وكان بين هؤلاء العرب التى تلك حالهم ان ولد الرجل محمد (عليه السلام) عام ٥٨٠ ميلادية وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش وقد مات أبوه عقب مولده ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه — وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل فقام عليه جده شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحاً باراً وكان ابنه عبد الله أحب أولاده اليه

فابصرت عينه الهرمة فى محمد صورة عبد الله فاحب اليتيم الصغير بملء قلبه وكان يقول ينبغى أن يحسن القيام على ذلك الصبى الجميل الذى قد فاق سائر الاسرة والقبيلة حسناً وفضلا ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به الى أبى طالب أكبر أعمامه رأس الاسرة بعده فرباه عمه — وكان رجلا عاقلا كما يشهد بذلك كل دليل على أحسن نظام عربى

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه فى أسفار تجارية وماأشبه وفى الثامنة عشرة من عمره نراه فارسا مقاتلا يتبع عمه فى الحروب غير أن اهم أسفاره ربما كان ذاك الذى حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين — رحلة الى مشارف الشام اذ وجد الفتى نفسه هنالك فى عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الاهمية جدا فى نظره — أعنى الديانة المسيحية وانى لست أدرى ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذى يزعم أن أبا طالب ومحمدا سكنا معه فى دار ولا ماذا عساه يتعلمه غلام فى هذه السن الصغيرة من أى راهب ما فان محمدا لم يكن يتجاوز اذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته ولا شك أن كثيرا من أحوال الشام ومشاهدها لم يك فى نظره الا خليطاً مشوشا من أشياء ينكرها ولا يفهمها ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون فأقامت فى ثنايا ضميره ولو غير مفهومة ريثما ينضجها له كر الغداة ومر العشى وتحلها له يد الزمن يوماما

فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات فلعل هذه الرحل الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة

ثم لاننسى شيئاً آخر وهو انه لم يتلق دروساً على أستاذ ابدا وكانت صناعة الخط حديثة العهد اذذاك فى بلاد العرب ويظهر لى أن الحقيقة هى أن محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ماتعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ماوفق الى معرفته هو ما امكنه أن يشاهد بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية وعجيب وأيم الله أمية محمد نعم انه لم يعرف من العالم ولا من علومه الا ماتيسر له أن يبصره بنفسه او يصل الى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ولم يضره ولم يزر به انه لم يعرف علوم العالم لاقديمها ولا حديثها لانه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك ولم يقتبس محمد من نور أى انسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك فى جميع أشباهه من الانبياء والعظماء — أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادئة فى ظلمات الدهور — من كان بين محمد وبينه أدنى صلة وانما نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره

ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شابا مفكرا وقد سماه رفقاؤه الامين — رجل الصدق والوفاء — الصدق فى أفعاله وأقواله وأفكاره وقد لاحظوا أن مامن كلمة تخرج من فيه الا وفيها حكمة بليغة وإنى لاعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فاذا نطق فما

شئت من لب وفضل واخلاص وحكمة لايتناول غرضا فيتركه إلا وقد أنار شبهته وكشف ظلمته وأبان حجته واستثار دفينته وهكذا يكون الكلام والافلا وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريما برا رؤوفا تقيا فاضلا حرا — رجلا شديد الجد مخلصاً وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الايناس بل ربما مارح وداعب وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق لان من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله — هؤلاء لايستطيعون أن يتبسموا وكان محمد جميل الوجه وضى الطلعة حسن القامة زاهى اللون له عينان سوداوان تتلالآن وانى لأحب فى جبينه ذلك العرق الذى كان ينتفخ ويسود فى حال غضبه (كالعرق المقوس الوارد فى قصة القفازة الحمراء لوالترسكوت) وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ولكنه كان أبين فى محمد وأظهر نعم لقد كان هذا الرجل حاد الطبع نارى المزاج ولكنه كان عادلا صادق النية كان ذكى اللب شهم الفؤاد

لوذعيا كأنما بين جنبيه مصابيح كل ليل بهيم

ممتلئا ناراً ونورا رجلا عظيما بفطرته لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غنى عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح فأدى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء

وما ألذ وما أوضح قصته مع خديجة وكيف انه كان أولا يسافر فى

تجارات لها الى أسواق الشام وكيف كان ينهج فى ذلك اقوم مناهج الحزم والامانة وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو ولما زوجت منه كانت فى الأربعين وكان هو لم يتجاوز الخمسة والعشرين وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحة ولقد عاش مع زوجه هذه على أتم وفاق وألفة وصفاء وغبطة يخلص لها الحب وحدها ومما يبطل دعوى القائلين أن محمداً لم يكن صادقا فى رسالته بل كان ملفقاً مزوراً أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه فى تلك العيشة الهادئة المطمئنة لم يحاول أثناءها احداث ضجة ولا دوى مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ولما يك الا بعد الاربعين أن تحدث برسالة سماوية ومن هذا التاريخ تبتدىء حوادثه وشواذه حقيقة كانت أو مختلقة وفى هذا التاريخ توفيت خديجة نعم لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادىء الساكن وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه وجميل ظنونهم به ولم يك إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذى كان هاجعا وثار يريد أمرا جليلا وشأناً عظيما

ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمدا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان كلا وأيم الله لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير — ابن القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة وحجى وإربة ونهى — أفكار غير الطمع الدنيوى ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه..

وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ورجل من الذين لايمكنهم الا أن يكونوا مخلصين جادين فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق الاعتبارات الباطلة إذ ترى محمداً لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه كما قلت بأهواله ومخاوفه وروانقه ومباهره لم يك هنا لك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه «ها أنا ذا» فمثل هذا الاخلاص لايخلو من معنى إلهى مقدس وما كلمة مثل هذا الرجل الاصوت خارج من صميم قلب الطبيعة فاذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية وكل كلام ماعدا ذلك هباء وكل قول جفاء وما زال منذ الاعوام الطوال — منذ أيام رحله وأسفاره يجول بخاطره آلاف من الافكار: ماذا أنا؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذى أعيش فيه والذى يسميه الناس كوناً؟ وما هى الحياة؟ وما هو الموت؟ وماذا أعتقد؟ وماذا افعل؟ فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شماريخ طود الطور او تلك القفار والفلوات كلا ولا قبة الفلك الدوار واختلاف الليل والنهار ولا النجوم الزاهرة والانواء الماطرة لم يجبه لاهذا ولاذاك وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل وإلا ما أودع الله فيه من سره!

وهذا ماينبغى لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه فقد أحس ذلك الرجل القفرى ان هذه هى كبرى المسائل وأهم الامور وكل شيء عديم الأهمية

فى جانبها وكان اذا بحث عن الجواب فى فرق اليونان الجدلية أو فى روايات اليهود المبهمة أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجده وقد قلت ان أهم خصائص البطل وأول صفاته وآخرها هى أن ينظر من خلال الظواهر الى البواطن فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فينبذها جيدة كانت أو رديئة وكان يقول فى نفسه « هذه الاوثان التى يعبدها القوم لابد من أن يكون وراءها ودونها شيء ماهى إلا رمز له وإشارة اليه والا فهى باطل وزور وقطع من الخشب لاتضير ولاتنفع » ومالهذا الرجل والاصنام وأنى تؤثر فى مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لابالذهب ولو عبدها الجحاجح من عدنان والاقيال من حمير أى خير له فى هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ انه فى واد وهم فى واد هم يعمهون فى ضلالهم وهو ماثل بين يدى الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة فاما أن يجيبها والا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين. فلتجبها يا محمد! أجب لابد من أن توجد الجواب أيزعم الكاذبون انه الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمدا وأثاره حمق وايم الله وسخافة وهوس أى فائدة لمثل هذا الرجل فى جميع بلاد العرب وفى تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع مابالارض من تيجان وصولجة وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أفى مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أو فى ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة ؟ كلا اذن فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل أن محمدا كاذب ونعد موافقتهم عاراً وسبة وسخافة

وحمقاً فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فينقطع الى السكون والوحدة دأب العرب وعادتهم ونعمت العادة ما أجل وأنفع ولا سيما الرجل كمحمد لقد كان يخلو الى نفسه فيناجي ضميره صامتاً بين الجبال الصامتة متفتحاً صدره لاصوات الكون الغامضة الخفية أجل حبذا تلك عادة ونعمت فلما كان فى الاربعين من عمره وقد خلا الى نفسه فى غار بجبل «حراء» قرب مكة شهر رمضان ليفكر فى تلك المسائل الكبرى اذا هو قد خرج الى خديجة ذات يوم وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزلها قريباً من مكان خلوته فقال لها أنه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر وأنه قد أنارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء وان جميع هذه الاصنام محال وليست إلا أخشابا حقيرة وان لا إله إلا الله وحده لاشريك له فهو الحق وكل ماخلاه باطل خلقنا ويرزقنا وما نحن وسائر الخلق والكائنات الا ظل له وستار يحجب النور الأبدى والرونق السرمدى الله أكبر ولله الحمد: ثم الاسلام وهو أن نسلم الأمر لله ونذعن له ونسكن اليه ونتوكل عليه وان القوة كل القوة هى فى الاستنامة لحكمه والخضوع لحكمته والرضا بقسمته أية كانت فى هذه الدنيا وفى الآخرة ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لاخير إلا هو ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم «جايتى» اذا

كان ذلك هو الاسلام فكلنا اذن مسلمون نعم كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم وقدما قيل ان منتهى العقل والحكمة ليس فى مجرد الاذعان للضرورة - فان الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما ياتيه الانسان مكرها - بل فى اليقين بان الضرورة الاليمة المرة هى خير مايقع للانسان وأفضل مايناله وان لله فى ذلك حكمة تلطف عن الأفهام وتدق عن الاذهان وأنه من الافن والسخف أن يجعل الانسان من دماغه الضئيل ميزانا لذلك العالم وأحواله. بل عليه أن يعتقد أن للكون قانوناً عادلا وان غاب عن ادراكه. وان الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود والنفع لباب الحياة نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه فى سكوت وتقوى

أقول وما زالت هذه الخطة المثلى والمذهب الاشرف الأطهر وما زال الرجل مصيبا وظافراً وحراً وكريماً وسائرا على المنهج الاقوم وسالكا سبيل السعادة مادام معتصما بحبل الله متمسكا بقانون الطبيعة الأكبر الامكن غير مبال بالقوانين السطحية والظواهر الوقتية وحسابات الربح والخسارة نعم هو ظافر اذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهرى - قطب رحى الكون ومحور الدهر - وليس بظافر اذا فعل غير ذلك وحقا أن أول وسيلة تؤدى الى اتباع هذا القانون هو الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح بل لا شىء غيره صالح! وهذا ياإخوانى هو روح الاسلام وهذا هو أيضا روح النصرانية والاسلام لو تفقهون ضرب من

النصرانية والاسلام والنصرانية يامراننا أن نتوكل على الله قبل كل شيء وان نفطم النفس عن الشهوات وننهى القلب عن الهوى وان لانجمح فى عنان المنى وأن نصبر على البث والاسى وان نعرف أنا لانعرف شيئاً وأن نرضى من الله كل ماقسم ونعدها يدا بيضاء نعمة غراء ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ونقول « انا بقسمة الله راضون ولو كان ماقسم لنا المنون »

فمن فضائل الاسلام تضحية النفس فى سبيل الله وهذا اشرف مانزل من السماء على بنى الأرض نعم هو نور الله قد سطع فى روح ذلك الرجل فانار ظلماتها هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التى كانت تؤذن بالخسران والهلاك وقد سماه محمد (عليه السلام) وحيا و«جبريل» وأينا يستطيع أن يحدث له اسما ألم يجىء فى الانجيل ان وحى الله يهبنا الفهم والادراك ولا شك أن العلم والنفاذ الى صميم الامور وجواهر الأشياء لسر من أغمض الأسرار لايكاد المنطقيون يلمسون منه الاقشوره وقد قال نوفاليس « أليس الايمان هو المعجزة الحقة الدالة على الله ؟» فشعور محمد اذ اشتعلت روحه بلهيب هذه الحقيقة الساطعة بأن الحقيقة المذكورة هى أهم مايجب على الناس علمه لم يك الا أمرا بديهيا وكون الله قد انعم عليه بكشفها له ونجاه من الهلاك والظلمة وكونه قد أصبح مضطرا الى اظهارها للعالم أجمع — هذا كله هو معنى كلمة « محمد رسول الله » وهذا هو الصدق الجلى والحق المبين

ويخيل الينا أن الصالحة خديجة أصغت اليه فى دهشة وشك ثم آمنت وقالت « إى وربى انه لحق » ونتوهم أن محمدا شكر لها ذلك الصنيع ورأى فى ايمانها بكلمته المخلصة المقذوفة من بركان صدره جميلا يفوق كل ما أسدت اليه من قبل فانه ليس أروح لنفس المرء ولا أثلج لحشاه من أن يجد له شريكا فى اعتقاده ولقد قال نوفاليس « مارأيت شيئاً قط آكد ليقيني وأوثق لاعتقادى من انضمام انسان آخر الى فى رأيى » نعم انه لصنيع أغر ونعمة وفيرة وكذلك ما انفك محمد يذكر خديجة حتى لقى ربه حتى أن عائشة — زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التى اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها — هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة سألته ذات يوم « ألست الآن أفضل من خديجة ؟ لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جمالها وأراك تحبنى أكثر مما كنت تحبها . » فأجاب محمد « كلا والله لست أفضل منها وكيف وهى التى آمنت بى والكل كافر ومنكر ولم يك لى فى هذا العالم الا صديق واحد — وهذا الصديق هى » وآمن به مولاه زيد (بن حارثة) كذلك وعلى وهؤلاء الثلاثة أول من آمن به

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذلك فما كان يصادف الا جمودا وسخرية حتى انه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام الا ثلاثة عشر رجلا وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ولكنه المنتظر فى مثل هذه الحال وبعد هذه السنين الثلاث آدب مأدبة لأربعين من قرابته ثم قام بينهم

خطيبا فذكر دعوته وانه يريد أن يذيعها فى سائر انحاء الكون وانها المسالة الكبرى بل المسالة الوحيدة فأيهم يمد اليه يده ويأخذ بناصره ؟ وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب على وكان غلاماً فى السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح فى أحد لهجة انه ذاك النصير والظهير ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمدا ومعادينه وكلهم قرابته وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو على ولكن رؤية رجل كهل أمى يعينه غلام فى السادسة عشرة يقومان فى وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو الى العجب المضحك فانفض القوم ضاحكين ولكن الأمر لم يك بالمضحك بل كان نهاية فى الجد والخطر ؛ أما على فلا يسعنا الا أن نحبه ونتعشقه فانه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبرا ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب فى القرون الوسطى وقد قتل بالكوفة غيلة وانما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل انسان عادلا مثله وقال قبل موته حينما أومر فى قاتله « ان أعش فالأمر الى وان أمت فالأمر لكم فان آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة وان تعفوا أقرب الى التقوى » !

وكان فى عمل محمد هذا اساءة ولا شك الى قريش حراس الكعبة وخدمة الأصنام وانضم اليه منهم رجلان أو ثلاثة أولوا بأس ونفوذ وسرى أمر محمد بطء ولكنه سريان على كل حال وكان عمله بالطبع

سيء الوقع لدى كل انسان حيث جعلوا يقولون من هذا الذى يزعم انه أعقل منا جميعا والذى يعنفنا ويرمينا بالحمق وعبادة الخشب ، وأشار عليه أبوطالب أن يكتم أمره ويؤمن به وحده وان يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم وأن لا يسخط القوم ويثير غضبهم عليه فيخطر بذلك حياته فأجابه محمد والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته كلا فان فى هذه الحقيقة التى جاء بها لشيئا من عنصر الطبيعة ذاتها لا تفضله الشمس ولا القمر ولا أى مصنوعات الطبيعة ولابد لتلك الحقيقة من أن تظهر برغم الشمس والقمر ما دام قد أراد أن تظهر وبرغم قريش جميعها وبكره سائر الخلائق والكائنات نعم لابد من أن تظهر ولايسعها الا أن تظهر بذلك أجاب محمد ويقال أنه «اغرورقت عيناه» اغرورقت عيناه : لقد أحس من عمه البر والشفقة وأدرك وعورة الحال وعلم أنه أمر ليس بالهين اللين ولكنما أمر صعب المراس مر المذاق

واستمر يؤدى الرسالة الى كل من أصغى اليه وينشر مذهبه بين الحجيج مدة اقامتهم بمكة ويستميل الاتباع هنا وهنالك وهو يلقى أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة ومناصبة بالعداوة ومجاهرة وشراً باديا وكامنا وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة الى الحبشة فوقع خبر ذلك العزم من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه فنصبوا له الاشراك وبثوا الحبائل وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمدا بايديهم

وكانت خديجة قد توفيت وتوفى أبو طالب وتعلمون أصلحكم الله أن محمداً ليس بحاجة الى نرثى له ولحاله النكراء اذ ذاك ومقامه الضنك وموقفه الحرج ولكن اعرفوا معى ان حاله اذ ذاك من الشدة والبلاء كما لم ير إنسان قط فلقد كان يختبىء فى الكهوف ويفر متنكراً الى هذا المكان والى ذاك لامأوى ولا مجير ولا ناصر تتهدده الحتوف وتتوعده الهلكات وتفغر له أفواهها المنايا وكان الأمر يتوقف أحياناً على أدنى صغيرة — كاجفال فرس من أفراس اتباع محمد — فلو حدث ذلك لضاع كل شىء ولكن أمر محمد — ذلك الأمر العظيم ما كان لينتهى على مثل تلك الحال

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متالبين عليه جميعاً وكانوا أربعين رجلا كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه وألفى المقام بمكة مستحيلا هاجر الى يثرب حيث التف به الأنصار والبلدة تسمى الآن المدينة أى مدينة النبي وهى من مكة على ٢٠٠ ميل تقوم وسط صخور وقفار ومن هذه الهجرة يبتدىء التاريخ فى المشرق والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد فترون أنه كان قد أصبح اذ ذاك شيخاً كبيراً وكان أصحابه يموتون واحدا بعد واحد ويخلون أمامه مسلكا وعراً وسبيلا قفرا وخطة نكراء موحشة فاذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعاً ومحركا ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به من عوابس الخطوب ويحيط به

من كالحات المحن والملمات وهكذا شان كل انسان فى مثل هذه الأحوال وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الاصغاء الى صوت ضميره وصيحة لبه حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة — عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربى ولسان حاله يقول وأما وقد أبت قريش الا الحرب فلينظروا أى فتيان هيجاء نحن! وحقا رأى فان أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق وأبوا الا تماديا فى ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها ويأتون كل اثم ومنكر وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة فأبوا الا عتوا وطغيانا فليجعل الأمر اذن الى الحسام المهند والوشيج المقوم وإلى كل مسرودة حصداء وسابحة جرداء! وكذلك قضى محمد بقية عمره وهى عشر سنين أخرى فى حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا مدر فواق وكانت النتيجة ما تعلمون

ولقد قيل كثيرا فى شأن نشر محمد دينه بالسيف فاذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف ولكن ماهو الذى أوجد السيف؟ هو قوة ذلك الدين وأنه حق والرأى الجديد اول ماينشأ يكون فى رأس رجل واحد فالذى يعتقده هو فرد — فرد ضد العالم اجمع فاذا تناول هـذا الفرد سيفاً وقام فى وجه الدنيا فقلما والله يضيع وأرى على العموم ان الحق

ينشر نفسه باية طريقة حسبما تقتضيه الحال أولم تروا أن النصرانية كانت لاتانف أن تستخدم السيف احيانا وحسبكم مافعل شارلمان بقبائل السكسون وأنا لاأحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بآية آلة أخرى فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار لندعها تكافح وتجاهد بايديها وأرجلها وأظافرها فانها لن تهزم إلا ماكان يستحق أن يهزم وليس فى طاقتها قط ان تفنى ماهو خير منها بل ماهو أحط وأدنى فانها حرب لاحكم فيها الا الطبيعة ذاتها ونعم الحكم ماأعدل وما أقسط وما كان اعمق جذرا فى الحق وأذهب اعراقا فى الطبيعة فذلك هو الذى ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة نامياً زاكياً وحده

أقول الطبيعة أعدل حكم بلى ماأعدل وما أعقل وما أرحم وما أحلم انك تأخذ حبوب القمح لتجعلها فى بطن الأرض وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بقشوروتبن وقمامة وتراب وسائر أصناف الأقذاء ولكن لابأس عليك من ذلك والق الحبوب بجميع مايخالطها من القذى فى جوف الأرض العادلة البارة فانها لاتعطيك إلاقمحا خالصاً نقياً فاما القذى فانها تبلعه فى سكون وتدفنه ولا نذكر عنه كلمة وما هى الابرهة حتى ترى القمح زاكياً يهتز كأنه سبائك الذهب الابريز والأرض الكريمة قد طوت كشحاً على الاقذاء وأغضت بل انها حولتها كذلك إلى أشياء نافعة ولم تشك منها شجواً ولا نصباً وهكذا الطبيعة فى جميع شؤونها فهى حق لاباطل وهى عظيمة وعادلة ورحيمة حنون وهى لاتشترط فى

الشيء إلا أن يكون صادق اللباب حر الصميم فاذا كان كذلك حمته وحرسته أوكان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه فترى لكل شيء تحميه الطبيعة روحا من الحق أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو وأسفاه شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذه الدنيا أو تجيء فيما بعد ؟ أعني ان الحقيقة مزيج من حق وباطل نور في ظلام وتجيئنا الحقائق في أثواب من القضايا المنطقية ونظريات علمية من الكائنات لايمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة ثم لابد من أن يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها وجوهرها فتموت وتذهب نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى أبد ويتخذ ثوبا أطهر وبدنا أشرف ومايزال يتنقل من الاثواب والابدان من حسن الى أحسن وجيد إلى أجود سنة الطبيعة التي لاتتبدل نعم أن جوهر الحقيقة الكريم حي لايموت وإنما النقطة الهامة والأمر الوحيد الذي يعرض في محكمة الطبيعة ومجلس قضائها هو هل هذا الروح حق وصوت من أعماق الطبيعة ؟ وليس بهام عند الطبيعة مانسميه نقاء الشيء أو عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائي ليس الأمر الهام عند الطبيعة حينما تقدم اليها أنت لتصدر حكمها فيك هو أفيك أقذار وأكدار ام لا وإنما هو أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا أو بعبارة تشبيهية ليس السؤال الهام عند الطبيعة هو افيك قشور أم لا بل أفيك قمح ؟ أيقول بعض الناس أنه نقي إني أقول له «نعم نقي – نقي جدا ولكنك قشر – ولكنك باطل وأكذوبة وزور وثوب بلا روح ومجرد اصطلاح

وعادة وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة والواقع إنك لانقى ولا غير نقى وإنما أنت لاشىء والطبيعة لاتعرفك وإنها منك براء.

نحن سمينا الاسلام ضربا من النصرانية ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته إلى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء فى العروق لأيقنا انه كان خيرا من تلك النصرانية التى كانت اذ ذاك فى الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان — تلك النصرانية التى كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب بيطلانها قفرا ميتاً! على أنه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جدا وبفضله فقط آمن الناس بها وحقا انها كانت ضربا كاذبا من النصرانية كالدعى بين الاصلاء ولكنها ضرب حى على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة

ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم — نظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجلية إلى لباب الامر وصميمه فقال فى نفسه الوثنية باطل وهذه الاصنام التى تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أخشاب لاتضر ولا تنفع وهى منكر وفظيع وكفر لو تعلمون إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له خلقنا وبيده حياتكم وموتكم وهو أرأف بكم منكم وما أصابكم من شىء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون

وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقا وجدير أن يصدق به وان ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذى للانسان أن يؤمن به وهذا الشيء هو روح جميع الاديان — روح تلبس أثواباً مختلفة وأثواباً متعددة وهى فى الحقيقة شيء واحد وباتباع هذه الروح يصبح الانسان اماما كبيرا لهذا المعبد الاكبر — الكون — جاريا على قواعد الخالق تابعاً لقوانينه لامحاولا عبثاً أن يقاومها ويدافعها ولم أعرف قط تعريفاً للواجب أحسن من هذا والصواب كل الصواب فى السير على منهاج الدنيا فان الفلاح فى ذلك (إذ كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) : وجاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر أما انه الاهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن انتاجها وانما هو أن خلق الله وابناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى لقد جاء الاسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له أن يبتلعها لانه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة وما كاد يظهر الاسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية وكل مالم يكن بحق فانها حطب ميت أكلته نار الاسلام فذهب والنار لم تذهب

أما القرآن فان فرط اعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق فى الامم المختلفة هذا وان الترجمة تذهب باكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة ولذلك لاعجب اذا قلت ان الاوربى يجد

قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لايزال يقطع في صفحاتها قفارا من القول الممل المتعب ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ولأن لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل مالم يعطه اتقى النصارى لانجيلهم وما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطاً مستقيما ومصدر احكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به في غياهب الحياة وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئا على التوالي وكذلك مابرح هذا الكتاب يرن صوته في آذان الألوف من خلق الله وفي قلوبهم اثني عشر قرنا في كل آن ولحظة ويقال أن من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة!

اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان واذا خرجت من القلب نفذت الى القلب والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل الى أفئدة سامعيه وقارئيه وقد زعم «براديه» وامثاله انه طائفة من الأخاديع والتزاويق لفقها محمد لتكون اعذارا له عما كان يرتكب ويقترف وذرائع لبلوغ مطامعه وغايته ولكنه قد آن لنا أن نرفض

جميع هذه الأقوال فانى لامقت كل من يرمى محمدا بمثل هذه الاكاذيب وماكان ذو نظر صادق ليرى قط فى القرآن مثل ذلك الرأى الباطل والقرآن لوتبصرون ما هو الاجمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال فى الخلوات الصامتات وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزاحم فى صدره حتى لا تكاد تجد مخرجا وقل مانطق به فى جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية هذا وقد كان تدفع الوقائع وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول وتنميق الكلم ويالها من خطوب كانت تطيح به وتطير فلقد كان فى هذه السنين الثلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن — حروب مع قريش والكفار ومخاصمات بين أصحابه وهياج نفسه وثورانها — كل ذلك جعله فى نصب دائم وعناء مستمر فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية وهى تتململ طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب وتدور بها دومات الفكر حتى اذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نورا هبط عليها من السماء وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه أيزعم الافاكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ لقد كانت حياته فى نظره حقا وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة

والاخلاص المحض الصراح يظهر لى أنه فضيلة القرآن التى حببته إلى العربى المتوحش وهى أول فضائل الكتاب أيا كان وآخرها وهى منشأ فضائل غيرها بل لاشيء غيرها يمكنه ان يبعث للكتاب فضائل اخرى ومن العجب ان نرى فى القرآن عرقاً من الشعر يجرى فيه من بدايته الى نهايته ثم يتخلله نظرات نافذات — نظرات نبى وحكيم أجل لقد كان لمحمد فى شؤون الحياة عين بصيرة ثم له قدرة عظيمة على أن يوقع فى اذهاننا كل ما أبصره ذهنه أنا لا أحفل كثيرا بما جاء فى القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأنى أرى لها فى الانجيل شبيهاً ولكنى شديد الاعجاب بالنظر الذى ينفذ الى أسرار الامور فهذا اعظم مايلذنى ويعجبنى وهو ما أجده فى القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتيه من يشاء.

وكان محمد اذا سئل ان يأتى بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته هذه الأرض التى خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه وهذا السحاب المسير فى الآفاق لا يدرى من أين جاء وهو مسخر فى السماء كل سحابة كمارد اسود ثم يسح بمائه ويهضب ليحيي أرضاً مواتاً ويخرج منها نباتاً ونخيلا وأعناباً أليس ذلك آية والأنعام خلقها لكم تحول الكلاء لبنا وهى فخر لكم والسفن — وكثيرا مايذكر السفن — كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها

ويحتفز فى سواء اليم لها حاد من الريح وبينا تسير اذا هى قد وقفت بغتة وقد قيض الله الريح معجزات والله كل هذه وأى معجزات بعدها تريدون ألستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا ابدا ثم لكم جمال وقوة وعقل «ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات» وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحوا غير موجودين «ثم وهبكم الرحمة» لقد ادهشتنى جدا هذه الجملة فان الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا كان يكون أمرهم ! هذه من محمد نظرة نافذة الى لباب الحقيقة وكذلك أرى فى محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال وأتبين فيه عقلا راجحاً عظيما وعيناً بصيرة وفؤادا صادقا ورجلا قويا عبقريا لو شاء لكان شاعرا فحلا أو فارسا بطلا أو ملكا جليلا أو أى صنف من أصناف البطل

نعم لقد كان العالم فى نظره معجزة اى معجزة وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة وهو أن هذا الكون الصلب المادى انما هو فى الحقيقة لاشىء — انما هو آية على وجود الله منظورة ملموسة وهو ظل علقه الله على صدر الفضاء لاغير وكان يقول هذه الجبال الشامخات ستحلل وتذوب مثل السحاب وتفنى وكان يقول الجبال أوتاد الأرض وانها ستفنى كذلك يوم القيامة وان الأرض فى ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت وتذهب فى الفضاء هباء

منثورا فتنعدم وكان لايزال واضحاً لعينيه سلطان الله على كل شيء وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورونق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة وهذا ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ولا يرونه شيئاً مقدسا بل لايرونه شيئاً واحدا وانما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل فى تسيير السفن البخارية فسرعان ماتنسينا الكيماويات والحسابيات مايكمن فى الكائنات من سر الله وما أفحش ذلك النسيان عارا وأكبر هذه الغفلة اثما . واذا نسبنا ذلك فأى الامور يستحق الذكر اذن فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية بقلة ذابلة نعم وما أحسب العلوم لولا ذلك الا خشبا يابسا ميتا وليس هو بالشجرة النامية ولا بالغابة الكثيفة الملتفة التى لاتبرح تمدك بالخشب اثر الخشب فيما تمدك وتعطيك ! ولن يجد المرء السبيل الى العلم حتى يجده أولا الى العبادة أعنى أنه لاعلم الا لمن عبد والا فما العلم الاشقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة

وقد قيل وكتب كثيرا فى شهوانية الدين الاسلامى وأرى كل ماقيل وكتب جوراً وظلما فان الذى أباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه وانما كان جارياً متبعاً لدى العرب من قديم الأزل وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده وجعل عليها من الحدود ما كان فى امكانه أن يجعل والدين المحمدى بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين وكيف ومعه كل ماتعلمون من الصوم والوضوء والقواعد الصعبة الشديدة واقامة الصلاة خمساً فى اليوم

والحرمان من الخمر وليس كما يزعمون كان نجاح الاسلام وقبول الناس إياه لسهولته لأنه من أخش الطعن على بنى آدم والقدح فى اعراضهم أن يتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل واتيان الجسائم هو طلب الراحة واللذة — إلتماس الحلو من كل صنف فى الدنيا والآخرة! كلا فان أحسن الآدمين لايخلو من شيء من العظمة والجلال فالجندى الجاهل الجلف الذى يؤجر يمينه وروحه فى الحروب بأجر بخس له مع ذلك «شرف» يحلف به فتراه لايبرح يقول: لافعلن ذلك وشرفى: وليست أمنية أحقر الآدميين هى أن يأكل الحلوى بل أن يأتى عملا شريفاً وفعلا محموداً ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم ليعمد أيكم الى أبلد إنسان فيريه سبيل المكرمات والمحامد فاذا هو قد تأجج قلبه حماساً واتقدت نفسه غيرة وصار فى الحال بطلا وما أظلم الذين يتهمون الانسان بقولهم انه ميال بفطرته الى الراحة وانه يستهوى بالترف ويستغوى باللذة إنما مغريات الانسان وجاذباته هى الأحوال والصعائب والاستشهاد والقتل أقدح مابنفس المرء من زناد الفضل تذك ناراً تحرق سائر مافيه من الخسائس والنقائص وما كان قط اعتناق الناس لدين من الأديان لما يرجون من متاع ولنتقبل لما يثور فى قلوبهم من دواعى الشرف والعظمة

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما أتهم به ظلماً وعدواناً وشد مانجور ونخطىء إذا حسبناه رجلا شهوياً لاهم له الا قضاء مآربه من الملاذ — كلا فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت لقد كان زاهداً متقشفاً فى مسكنه

وما كله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار وانهم ليذكرون — ونعم مايذكرون — انه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد فى الله قائم النهار ساهر الليل دئباً فى نشر دين الله غير طامح الى مايطمح اليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان غير متطلع الى ذكر أو شهرة كيفما كانت رجل عظيم وربكم والا فما كان ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراماً واكباراواعظاماً وما كان ممكنه ان يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثاً وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله لقد كان فى هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفية وكانوا حماة الأنوف اباةالضيم وعر المقادة صعاب الشكيمة فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير ولولا ماأبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا وكيف وقد كانوا اطوع له من بنانه وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيباً من طاعتهم مقدار مانا له محمد فى ثوبه المرقع بيده فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال!

وكانت آخر كلماته تسبيحاً وصلاة — صوت فؤاديهم بين الرجاء والخوف أن يصعد إلى ربه ولا تحسب أن شدة تدينه أزرت بفضله كلا بل زادته فضلا وقد يروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين

رزىء غلامه : العين تدمع والقلب يوجع ولا نقول مايسخط الرب : ولما استشهد مولاه زيد (ابن حارثة) فى غزوة «مؤتة» قال محمد لقد جاهد زيد فى الله حق جهاده وقد لقى الله اليوم فلا بأس عليه ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكى على جثة أبيها — وجدت الرجل الكهل الذى دب فى رأسه المشيب يذوب قلبه دمعاً ؛ فقالت «ماذا ارى» قال «صديقاً يبكى صديقه» مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا فى محمد أخا الانسانية الرحيم — أخانا جميعا الرؤوف الشفيق وابن أمنا الأولى وأبينا الاول

وإنى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لايعول الا على نفسه ولا يدعى ماليس فيه . ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا . فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد . يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى مايجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها . ولم تخل الحروب الشديدة التى وقعت له مع الاعراب من مشاهد قسوة ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لايعتذر من الاولى ولا يفتخر بالثانية . إذ كان يراها من وحى وجدانه وأوامر شعوره ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين . وكان رجلا ماضى العزم لايؤخر عمل اليوم إلى غد . وطالما كان يذكر يوم «تبوك» إذ أبى رجاله السير إلى موطن

القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر ، فقال لهم: الحصيد: انه لايلبث الا يوما . فماذا تتزودون للآخرة ؟ والحر ؟ نعم أنه حر ولكن جهنم أشد حرا. وربما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية . إذ يقول للكفار ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لاتبخسون مثقال ذرة.

وما كان محمد بعابث قط ولا شاب شيئاً من قوله شائبة لعب ولهو. بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسالة فناء وبقاء. ولم يك منه ازاءها الا الاخلاص الشديد والجد المر . فاما التلاعب بالاقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندى أفظع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحق . وعيشة المرء فى مظاهر كاذبة . وليس كل مايستنكر من مثل هذا الانسان هو أن جميع أقواله وأعماله اكاذيب بل انه هو نفسه أكذوبة . وأرى خصلة المروءة والشرف — شعاع الله — متضائلا فى مثل ذلك الرجل مضطربا بين عوامل الحياة والموت . فهو رجل كاذب لا أنكر أنه مصقول اللسان مهذب حواشى الكلام محترم فى بعض الازمان والامكنة . لاتؤذيك بادرته لين المس رفيق الملمس كحمض الكربون تراه على لطفه سما نقيعا . وموتا ذريعا.

وفى الاسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها وهى التسوية بين الناس . وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأى . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الارض والناس فى الاسلام سواء . والاسلام لا يكتفي

بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضاً حتماً على كل مسلم . وقاعدة من قواعد الاسلام ثم يقدرها بالنسبة الى ثروة الرجل . فتكون جزأ من أربعين من الثروة . تعطى الى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا وما هو الا صوت الانسانية ــ صوت الرحمة والاخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل ــ ابن القفار والصحراء .

وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره فأقول ان العيب فى ذلك على الشراح والمفسرين لا على ماجاء فى الكتاب فان القرآن قد أقل جدا من اسناد الحسيات والماديات الى الجنة والنار وكل مافيه عن هذا الشأن ايماء وتلميح وانما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ولا عذاباً بدنيا وألما جثمانياً حتى أسندوه الى النار ثم لاتنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانياً اذ قال «وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين» فالسلام والأمن هما فى نظر كل عاقل أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة والشىء الذى عبثا يلتمسه الانسان فى الحياة الدنيا وقال أيضاً «ونزعنا مافى صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين» وأى رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات وأى شىء أهنأ من التآلف والتصافى ؟

وأى دليل أشهر ببراءة الاسلام من الميل الى الملاذ من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقدع عن مآربها وهذا هو منتهى العقل والحزم فان مباشرة اللذات ليس بالمنكر وانما المنكر هو

ان تذل النفس لجبار الشهوات وتنقاد لحادى الأوطار والرغبات ولعل امجد الخصال وأشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان وان يجعل من لذاته لاسلاسل وأغلالا تعييه وتعتاص عليه اذاهم أن يصدعها بل حلياً وزخارف متى شاء فلا أهون عليه من خلعها ولا أسهل من نزعها وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصودا من محمد معيناً أو كان وحى الغريزة وإلهاماً فطرياً فهو والله نعم الأمر

ويمكننا القول على كل حال بأن الجنة والنار هاتين همارمز لحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلما صادفت فى القرآن وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التى يقول عنها «يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى» ماذا ترون كل هذه إلا ظلا تمثل فى خيال ذلك النبى الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق أعنى الواجب وجسامة أمره لقد كان هذا الرجل يرى الحياة أمراً جسيما ويرى لكل عمل انسانى مهما حقر خطارة كبرى فما كان من سىء فله من السوء نتيجة ابدية وما كان صالحاً فله من الصلاح ثمرة سرمدية وان المرء قد يسمو بصالحاته الى أعلى عليين ويهبط بموبقاته الى أسفل سافلين وان على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية كل ذلك كان يلتهب فى روح ذلك الرجل القفرى كأنما قد نقش ثمت باحرف النار وكل ذلك قد حاول فى أشد اخلاص وأحد جد أن يخرجه للناس ويصوره لهم فاخرجه وصوره فى صورة تلكم النار

والجنة واى ثوب لبسته هذه الحقيقة وأى قالب صبت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة فى أى اسلوب وأى صورة

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب من النصرانية وفيه للمبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه ولقد مضى عليه مئتان والف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم وما زال فوق ذلك دينا يؤمن به اهله من حبات افئدتهم ولا أحسب أن امة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين باسلامهم — اذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والابد وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة احد المارة «من السائر» فيجيبه السائر «لا اله الا الله» وان كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل واطراف النهار فى ارواح تلك الملايين الكثيفة وان الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والملالاى فيهدمون اضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الاسلام ونعم مايفعلون

ولقد اخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور واحيى به من العرب امة هامدة وارضاها مدة وهل كانت الافئة من جوالة الاعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة فارسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فاذا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقا وسع نوره الانحاء وعم ضوءه الارجاء وعقد شعاعه الشمال

بالجنوب والمشرق بالمغرب وما هو الاقرن بعد هذا الحادث حتى اصبح لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس واشرقت دولة الاسلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة وكذلك الايمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة وما زال للامة رقى فى درج الفضل وتعريج الى ذرى المجد ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها الايمان ألستم ترون فى حالة اولئك الاعراب ومحمدهم وعصرهم كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التى كان لايبصر بها فضل ولايرجى فيها خير فاذا هى بارود سريع الانفجار وما هى برمل ميت واذا هى قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى ولطالما قلت أن الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس فى انتظاره كالحطب فما هو الا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا

المحاضرة الثالثة

البطل فى صـــورة شاعر

دانتى — شاكسبير البطل فى صورة إله والبطل فى صورة نبى هما من ثمرات العصور الغابرة لايعود بهما الزمان بعد ذلك أبدا وهما يدلان على جفاء فى الفكر وغلظة فى الفهم يمحوهما مجرد تقدم العلوم الطبيعية ومحال على الناس أن يحملهم فرط العجب والاعجاب برجل من الرجال حتى يخالوه إلها أوناطقا بصوت إله إلا اذا كانوا عائشين فى عصر خال البتة من الأوضاع العلمية الطبيعية نعم لقد انقضى زمن الآلهة والأنبياء وجاء الزمن الذى يلبس فيه البطل صورة أقل عظمة وابهة وان لم تك أقل فضلا وحقا أعنى صورة الشاعر والشاعر نوع من البطل لاينفرد به عصر دون آخر جدير أن تنتجه أقدم العصور وأحدثها

بطل نبى شاعر — الى غير ذلك من شتى الاسماء نعطيها للرجل العظيم فى شتى الازمان والامكنة وذلك حسبما نرى بينهم من الفروق وحسب مابرعوا فيه من فنون الفضل وأبواب العلم وعلى هذه القاعدة يمكننا ان نعطى كثيرا من الاسماء غير ذلك وانى لاوقن بانى لاأحسب أن هناك رجلا عظيما لايمكنه أن يكون عظيما فى كل فن فالشاعر الذى لايستطيع إلا أن يجلس الى يراعه وقرطاسه فينظم قصيدة مستحيل عليه أن ينظم

قصيدة بارعة ولا احسبه يجيد صفة الفارس الأروع إلا إذا كان هو نفسه فارساً أروع ولا أحسب الشاعر الكبير إلا أنه يجمع فى نفسه بين السياسى والمفكر والمشرع والفيلسوف وأنه قد كان يمكنه أن يكون بل هو بالفعل — كل هذه ثم لا أفهم لماذا كان يستحيل على رجل مثل « ميرابو » صاحب القلب الكبير المتوهج المتأجج نارا المفعم دموعا أن يكون شاعرا ينظم القصيد والمبكيات التمثيلية والمقطعات فيقرع بها القلوب والاكباد لوقد ساقته الاحوال والاسباب الى ذلك والامر الاولى الجوهرى هو أن يكون الرجل عظيما وان فيما قاله نابليون لكلمات لا تقل قيمة عن اكبر وقائعة وقد أذكر قواد لويز الرابع عشر فيخيل الى أنهم كذلك شعراء وأن فى كلمات القائد « تورين » مايماثل أقوال « ساموبل جونسون » حكمة وبلاغة فالقلب الكبير والعين البصيرة هما رأس الفضائل وما كان لامرىء قط أن يجل ويعظم بغيرهما أولا تذكرون أن الشاعرين « بترارك » و « بوا كاشيو » كانا يقومان باعمال سياسية فيحسنا القيام بذلك! أم لا تحسبون أن الشاعر « بارنز » لوقد جعله الله مكان « ميرابو » لأتى مالم يستطعه ولا نعلم أى عمل من الأعمال كان شاكسبير لا يؤديه على أكمل حال لو قد أسند اليه

ولست أنكر أن لكل أمرىء طبيعة خاصة واستعدادا فطريا وأن هنالك فروقا فى الغرائز ولكن فروق الأحوال والعلل أكثر وأكبر وما عظماء الرجال فى ذلك الأمر إلا كاصاغرهم فانك لتتناول الطفل

الممكن تصيره أى صانع فتعلمه حتى يصبح حدادا أو نجارا أو بناء ومتى أصبح هذا أو ذاك بقى كذلك طول عمره واذ كنا لانزال كما قال «اديسون» نجد الرجل الاعرج الموهون يعتمد على عصاه وهو مع ذلك حمال ينوء تحت ثقله الفادح وآخر ضخم الجثة شديد القوى عبل الشوى عادى الألواح كانه الهيكل المبنى وهو مع ذلك خياط لايحمل الا خيطا وابرة يخف محمولها على النملة علمنا أن الأمر غير متوقف على الاستعداد الطبيعى وكذلك الرجل العظيم ماذا يصير وبم يحترف — أيصير غازيا أم سلطانا أم فيلسوفا أم شاعرا ؟ انها لمناظرة عويصة معضلة بينه وبين العالم ! وماعليه الا أن يقرأ العالم وقوانينه والعالم وقوانينه صحيفة منشورة أمامه ومالدى العالم مسالة أهم وأخطر مما يراه ويقضى به فى شأن الرجل العظيم

ان بين الشاعر وبين النبى فى نظر المتأخرين فرقا كبيرا ولقد كان مدلولها فى بعض اللغات القديمة واحدا . فلفظة «فاتيس» معناها شاعر أو نبى والحقيقة انه مازال بين النبى والشاعر لو يفقه الناس شبه قريب ومابرح جوهرهما واحدا من حيث ان كليهما ينفذ ببصره الى سر الكائنات المقدس . أو مايسميه «جايتى» السر الجلى لكل انسان ولا يكاد يراه مع ذلك انسان . السر الالهى الكائن فى كل كائن — المستقر فى باطن «الظاهر» كما يقول «فيشتى» — السر الذى ماجميع الظواهر من النجوم الزاهرة الى الرياض الناضرة الى ظواهر الانسان وأفعاله الاثوب

له وبدن يتراءى فيه ويظهر نعم السر الالهى فى كل زمان ومكان موجود ولا ريب وربما أغفله الناس فى معظم الأوقات والجهات اذ يحسب الكون الذى هو «فكر الله المحقق» شيئاً عاديا تافها هامدا كأنما هو شىء جامد تولى صنعه النجار والحداد ولا داعى هنا للاكثار فى ذلك الموضوع ولكنى أقول ويل للذين لا يفقهون ذلك ولا يؤمنون به بل ويل لهم وأسف عليهم ويا بؤس للحياة اذا كانت غير مشفوعة بذلك!

ولكن أقول من كان من الناس ينسى ذلك ويغفله فان «الفاتيس» أعنى الشاعر او النبى باحدى اللغات القديمة لم ينسه ولم يغفله ولكنه نفذ اليه ببصيرته وانما أرسله الله ليفعل ذلك وليكشف من سر الله ما غمض هذه هى ابداء رسالته الى الناس أن يجلو لنا غامض السر — ذلك السر الذى هو اليه أقرب وبه أعرف من سائر الخلق فاذا نسوه فقد ذكره مسوقا الى ذكره بأقوى دافع من ذات نفسه عائشا فيه من حيث لم يرد ولم يشعر فهو ليس بتابع لمعتاد القول ولكنما رجل نظارة مبتدىء محقق فهو لا يستطيع الا ان يكون مخلصا ومن عاش من الناس وسط الظواهر فهو العائش فى صميم الحقائق المجتهد فى الله الجاد فى شؤون الحياة والكائنات ولو عبث العالم طرا فالاخلاص أول أسباب شاعريته ونبوته وهكذا يشترك الشاعر والنبى فى ادراك سر الله الجلى فهما من حيث ذلك واحد

أما الفرق بينهما فذاك: وهو أن النبى قد تناول هذا السر المقدس

من وجهة الخير والشر — المحظور والمباح وتناوله الشاعر من وجهة الجمال والحسن والجلال وما شاكل فأحدهما الهادى الى مانفعل وثانيهما الدال على مانعشق على أنهما بعد متداخلان وفرعان متعانقان لايمكن الفصل بينهما وفصم عروتهما ولا يخلو النبى أيضاً من تتيع الجمال ايان كان والا فكيف له أن يبصرنا مايجب علينا اتيانه ولقد جاء فى التوراة — وهو قول نبى — آية جديرة أن تحسب كابدع مانظم شاعر وهى «انظر الى زهر الرياض فانك لاتراه يكدح ولا يغزل ولا ينسج وهو مع ذلك قد كسى من ثياب البهجة وبرود الحسن مالم يكسه سليمان فى ريعان سلطانه» أليست هذه الآية ثمرة البصيرة النافذة إلى أعمق أعماق الجمال؟ «زهر الرياض» — رافل من فنون ألوانه فى أقشب من مطارف الامراء وآنق من حلل الملوك وهى بعد نابتة من الثرى المتواضع والتراب المتطامن كأنها عيون الملاح ترنو اليك من خلال بحر الجمال الباطن وهل كان للأرض أن تصوغ هذه الازهار لولم يكن الجمال جوهرها رغما من ظاهرها الجعد المتلبد ومن ثم قال «جيتا» قولا استنكره الكثيرون وهو «الجمال أفضل من الخير والجمال يشتمل على الخير وأكثر» وانما قصد إلى الجمال الحق الذى يفضل الجمال الكاذب كما تفضل حدائق الجنة غابات «بولونيا» وحسبنا ذلك بيانا للفرق بين الشاعر والنبى

قليل فى شعراء الاعصر القديمة والحديثة من يحسبهم الناس كاملين قد بلغوا الغاية القصوى وهذا القول وأيم الله ان كان ظاهره الصدق

فهو فى الواقع اخدوعة اذ الحقيقة أنه ليس فى جميع الشعراء كامل وإنما
الشعر عرق يجرى فى طبيعة كل امرىء لايخلوا منه فرد وكل انسان
يجيد فهم قصيدة فهو اثناء قراءتها شاعر وما الفؤاد الذى يرتاع لتلاوة
جحيم «دانتى» الا من طينة فؤاد ذلك الشاعر وان كان بعد أقل شاعرية
ولم يك غير شاكسبير بقادر على اشتقاق قصة هامليت من تلك الحكاية
القديمة — حكاية الشاعر «ساكسو جراماتيكاس» ولكنه ليس من
انسان الا ويستطيع أن يصنع قصة مامن تلك الحكاية يكون مقدارها
من الجودة والرداءة بمقدار ماوهبه الله من قوة الخيال أو ضعفه وأرى
التعريفات كلها اختيارية ذوقية مالم يكن هنالك فرق محدود كما بين المربع
والدائرة فكل رجل فاق حظه من المزية الشعرية حظوظ سائر قومه
وجيله حتى نصع أمره بينهم كالغرة فى الفرس البهيم والأبلق وسط الدهم
كان جديراً أن يسموه شاعراً وكذلك شأن انتقادهم أكابر شعراء العالم
فان من رأوه من الشعراء قد برز فى مضمار الشعر حتى بز القرناء وحلق
فى سماء الخيال حتى علا النظراء أجمعوا على اجلاله وسموه شاعراً عاماً
على أن مثل هذا الحكم ليس فى الحقيقة الا مسألة ذوق ورأيا خاصاً
فان فى جميع الشعراء بل فى جميع الناس معنى من الشعور العام أو الشاعرية
العامة لم يخل فرد من ذلك وسرعان ماينسى الناس معظم الشعراء ثم
لاتحسبن أن الاعاظم الأفضلين منهم: أمثال شاكسبير وهوميروس:
الاملاقين من النسيان حظوظهم ولابد من يوم يصبح أمرهم فيه نسياً منسياً

ولسائل ان يسال أى فرق هنا لك بين الشعر الحر وبين الحر من الكلام غير الشعرى فالأجوبة على ذلك كثيرة ولا سيما ما كتبه نقاد الالمان فى ذلك الصدد وفيها الذى لايفهم لاول وهلة فمن ذلك قولهم ان الشاعر تكون روحه عديمة النهاية ثم هو ينفض هذه الخاصية أعنى عدم النهاية على كل شىء يصفه أو يصوره فهذا الكلام وان لم يكن بمحكم ولكنه جدير بالذكر إذ كان إنما قيل فى موضوع مبهم مثل الشعر ثم هو لا يخلو من بعض المعنى إذا تؤمل و تدبر أما أنا فانى أجد معنى جما فى التعريف القديم للشعر وهو أنه الكلام الموزون المودع شيئاً من الموسيقى حتى لهو ضرب من الغناء وحقا لو اضطر الانسان إلى اعطاء تعريف للشعر لما كان متجاوزا ذلك التعريف القديم فاذا كان نظمك موسيقيا لا فى اللفظ فقط بل فى اللب والمادة و فى جميع الافكار والمعانى والنظام والنسق فهو شعر و الا فلا والمعنى الموسيقى هو ما إذا خرج من ذهن نفذ إلى لباب الشىء وأدرك مكنون سره أعنى النغمة الكامنة فى جوفه — أعنى ما يستسر فى ضمير ذلك الشىء من موسيقى الائتلاف والوئام — من ذلك الموسيقى الذى ليس الا بفضله يوجد ذاك الشىء ويكون أهلا لأن يوجد فى هذه الدنيا ولقد يمكننا القول بأن لباب كل شىء موسيقى أعنى أنه اذا بدا للناس بدا فى منطق موسيقى أى بدا فى صوت الغناء وانى أرى معنى الغناء عويصا عميقا اذ أين ذلك الذى يستطيع أن يصف لنا تأثير الغناء بالقلم أو باللسان و الغناء ضرب من الكلام المستحيل النطق و المتناهي العمق الذي

يذهب بنا الى شواطىء المجهول فيتركنا ننظر برهة فى ذلك البحر !

أجل أن فى جميع الكلام حتى فى أكثره استعمالا لشيئا من النغم والغناء وليس ثمت قرية فى العالم مهما حقرت الا ولاهلها لهجة قد خص بها منطقهم وكلامهم — فهذه اللهجة هى النغمة التى يغنى بها أولئك القوم ما يقولونه من الكلام ! نعم أن اللهجة ضرب من النشيد والترنم وما من قوم الا ولهم لهجة خصوا بها وان كانوا لا يفطنون الا للهجات غيرهم ثم اذكروا أيضا أن كل كلام صادر عن انفعال فانه يلبس بطبيعته ثوبا موسيقيا بل أرى كلام الغضبان صوتا من الغناء وهكذا كل لباب وصميم وشىء عميق فهو غناء بل يظهر لى أن الغناء هو لبابنا الجوهرى وأن كل مافينا بعد ذلك اللباب أو الغناء فانما هو لفائف وقشور وأغلفة ! نعم الغناء هو أول عناصرنا وعناصر جميع الأشياء ولقد كانت اليونان تقول فى خرافاتها أن للفلك فى مسيره موسيقى ولعل ذلك كان دليلا على ماكانوا يشعرون به من تركيب الكائنات الباطنى ونظامها الداخلى وان روح أصواتها وتعبيراتها لم يك الا غناء وموسيقى وعلى ذلك فسنسمى الشعر : فكراً موسيقياً : والشاعر هو ذاك الذى يفكر على هذه الصورة وأساس ذلك هو فى الحقيقة قوة الذهن وانه الاخلاص ونفاذ البصيرة هما اللذان يجعلان المرء شاعراً أنظر الى صميم الأشياء يكن نظرك موسيقيا فان قلب الطبيعة هو الموسيقى لو أمكنك أن تنفذ اليه

ويظهر لى أن الشاعر — كاشف أسرار الوجود بنغماته — ينزل من

نفوس الناس منزلة منحطة جدا عن منزلة النبى اذ يرون عمله تافها ووظيفته صغيرة فكان البطل عندهم أولا الهاثم نبياً ثم شاعرا أليس فى ذلك دليل على انحدار الرجل العظيم فى أنظارنا على توالى الزمن فانا نراه أولا الهائم ذا وحى الهى ثم لانرى فيه بعد ذلك الاناظم أشعار جميلة ورجلا نابغة وبارعا وما أشبه ! هذا هو الظاهر لى ولكنى أحمل نفسى على الاعتقاد بأن الأمر خلاف ذلك شعوراً منى بانه لايزال فى بنى آدم الاجلال المفرط — لم ينقص مثال ذرة للعظمة والبطولة فى أية هيئة بدت وأى اسم أعطيت

وقد أعلم أنه اذا كنا الآن لانرى فى الرجل العظيم الها ولانبيا فما ذلك ان رأينا فى الله وفى ينبوع الضياء الاقدس الاعلى ومنبع العظمة والعقل الاوفر الاوفى قد اتضع وخبا بل بالعكس لأنه قد سما وطاب وجدير بكم أن تعوا ذلك وتذكروه ولا أنكر أن الشك والكفر والاستخفاف آفات هذه العصور قد أحدثت ضررا عظيما فى هذا الأمر الاجل الاعلى باضعافها فى نفوس الناس اجلالهم للبطل حتى أصبح معظمهم ينكرون وجود العظماء المستحقين للاجلال وهذه وايكم ألأم العقائد وأنكاها وأوخمها مغبة ولن يكون مع اعتقادها الا اليأس المطلق من الانسانية وسائر أمورها وأشيائها ومع كل ذلك فانظروا إلى نابليون ! ضابط صغير على طائفة من جند المدافع هذا هو ظاهر نابليون ولكنه مع ذلك قد أصاب من طاعة رجاله وتقديسهم إياه مالم يصبه كثير من الأنبياء وجبابرة الملوك ثم

انظروا الى الشاعر بارنز كيف كان اذا أطرد به مجرى الحديث استوقف الأميرات وخدم الاصطبلات بسحر بيانه فلم يبق منهم الا من شعر بأن لذلك الرجل فتنة وجلالا لم يروهما لأحد غيره وانه هكذا تكون الرجال والا فلا! فترون من ذلك انه قد كان يكمن فى قلوب هؤلاء القوم وان لم تصرح به ألسنتهم ويلمح من خلال حركاتهم وان لم يظهر ساطعاً جلياً انهم كانوا يرون عظمة وقوة وجلالة لايجدونها لسائر الرجال فى ذلك الفلاح الكثيف الحاجبين الوقاد المقلتين صاحب الكلمات التى تستوكف الأعين تارة بهوامر الدموع وطورا تقوم بالضحك الشديد حنايا الضلوع اولا نشعر نحن أيضاً بذلك؟ ولكنه لو طهر الله نفوس الناس من ادران الشك والاستخفاف والعبث وسائر هاتيك الرذائل — وسيفعل الله ذلك يوماً ما — نعم لو أبدلت القلوب من رذيلة الايمان بالمظاهر الكاذبة فضيلة الايمان بالجواهر الصادقة اذن فاى منزلة تكون لمثل الشاعر بارنز فى نفوسنا وأى محبة واكبار وتمجيد

وعلى كل ذلك ألا ترون أن لدينا شاعرين هما وان لم ينالا منزلة الألوهية فقد نالا فى هذه العصور على مابها من رذائل الاستخفاف والنكران والشك منزلة التقديس والولاية نعم ان شاكسبير ودانتى لوليان من اولياء الشعر حرام على كل انسان أن ينال مقامهما الشريف بأدنى اساءة وهذه نتيجة وصل اليها العالم بالالهام والفطرة رغماً مما قام فى طريقه من ظلمات الجهل والشك وعقبات الجحود والكفر ويفصل هذين الشاعرين من

الزمن مسافة قصية وكلاهما قائم فى فضاء الدهر كراهب فى فضاء القفر له مملكة من الوجدة ودولة من الوحشة غريب فى جيله وقومه

غربته العلى على كثرة الأهـ ل فاضحى فى الأقربين غريباً

لامثيل لهما فى سائر الشعراء تاركا عن الانداد والاقران يحفهما فى نظر العالم نور من الجلال ورونق من الكمال فهما مقدسان وان لم يتول تقديسهما بطارقة وقسوس وهكذا ترون كيف ان ماأودع نفوس البشر من فطرة اجلال البطل مايزال يحيى فى قلوبهم برغم انتشار السخرية والاستخفاف واستيلاء الجحود والكفر وسنلقى نظرة فى تاريخ هذين البطلين

لقد ألفت عدة تراجم لدانتى وجملة حواش وشروح لكتابه ولكنها على العموم قليلة الثمرة أما تاريخ حياته فقلما يعرف عنه وقد فقد معظمه حتى لايمكن تداركه لم يك دانتى فى زمانه الا رجلا صغير الشأن شريدا طريدا مكسور الفؤاد مهيض الجناح قليلا اهتمام الناس به مدة حياته وأسوأ من ذلك ان معظم أنباء ذلك الخمول والبلاء تراها على علاتها قد بادت على مر خمسة قرون وعلى كثرة ما كتب عنه من التراجم والشروح فكتابه هو جل مانعرفه عنه كتابه وصورته المنسوبة الى المصور «جيوتو» التى إما نظرت اليها لم يسعك الا الشهادة لصانعها بالاحسان والاجادة أيا كان أما أنا فأرى ذلك الوجه أمس الوجوه لكبدى وأقرعها لأحشائى وأرى آية الحزن والألم وآية الفوز كذلك والظفر على صحيفة ذلك الوجه البادى فى رقعة

المصور منفردا وحيدا لا يحفه شيء من الأثاث والمتاع الا مايرفرف عليه من روح الوحشة أرى كل ذلك عنواناً على تاريخ ذاتي ! وظني أنه أشجى وجه صور من عالم الحقيقة — وجه محزن مفتت للفؤاد أساس معانيه الرقة والرحمة والحنان لا كما تكون في الرجل بل كما تكون في الطفل ولكن قد خالط هذه المعاني الرقيقة معان أقسى وأمر معاني وحشة وسخط وألم في تجلد وتعزز ويأس في رفعة وكبرياء روح رقيقة هواء قد لبست آية اليأس والقسوة والاستبداد والعبوس والاكفهرار كأنما تنظر اليك من وراء سجن من الثلج ! وقد قلصت شفتاه احتقارا وازدراء — لا كازدراء الأنس بل كازدراء الآلهة — للشيء الذي يذيب حشاه ويأكل فؤاده — كأن ذلك الشيء هو أحقر مايكون وأدنى وكأن صاحب الوجه هو أشرف من ذلك الشيء وان كان يتجرع منه مر البلاء ويسام به سوء العذاب إنما هو وجه رجل منابذ للدنيا مناصب لها معارض لأحكامها قد صب عليها غارة شعواء وأقام لها من الحرب سوقا بضاعتها أبدا نافقة ورحى ماتبرح العمر دائرة وهل هي إلا محبة تحولت حنقاً — لا يفتر ولا يستريح — متمهلا مطردا ساكتاً كحنق إله ! ثم ترى للعين نظرة اندهاش واستفهام كأنها تسأل لماذا خلق الله الدنيا على هذه الصفة ؟ هذا هو ذاتي هذا هو صوت عشر قرون خرس هذا هو الرجل الذي صدح لنا صوتا عن الجحيم والجنة !

وأرى هناك مطابقة بين مانعرفه عن حياة دانتي وبين صورته وكتابه

ولد هذا الشاعر بمدينة فلورنس من أعمال ايطاليا فى عام ١٢٦٥ وعلم وثقف على أحسن نظام كان اذ ذاك وكان فيما تلقاه كثير من الفقه والمنطق والأدب اللاتينى — وقدم راسخة فى بعض أبواب العلم ولم يدع دانتى فيما نظن شيئاً يتعلم حتى حصله وكان ذا فهم صفى مهذب وذكاء مشتعل وعقل راجح وكان قد أتقن من العلم ماجاء فى الازمان القريبة من عصره فاما مابعد عنه فى أقاصى الغابر فلم يجد اليه سبيلا لخلو عصره من المطبوعات ومن أسباب التواصل وسلك فى حياته المذاهب المعتادة فصحب جيش بلاده فى حربين وذهب مرة سفيرا إلى بعض الولايات وأصبح بفضل ذكائه وجده أحد القضاة الأكابر وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره وكان قد عرف فى طفولته صبية حسناء فى مثل سنه ومنزلته وكان يراها أحيانا وكانت تمتد بينهما صلاة على بعد وكلكم يعرف ما كان من أمره معها وما كان من الشتات والفرقة ومن اقترانها برجل غيره ووفاتها بعد ذلك بقليل وهى تشغل جزءا عظيما من كتاب دانتى ومن حياته أيضاً ويظهر لى أنه لم يحبب قط غيرها انسانا وكان حبا من صميم الأحشاء وان فؤاده مابرح يناجيها والقبر مابينه وبينها وينزع اليها وهى مع الله ماتت وزوج من امرأة أخرى ولكنه لم يسعد وشتان مابينه وبين السعادة

ولسنا متوجعين لدانتى آسفين لما أصابه فانه لولا تلك المصائب لما كان دانتى الا أحد قضاة بلده ولخسر العالم كلمات من أبرع ما أنشد وما

تغنى به نعم لقد كان يزيد قضاة «فلورنس» واحدا ولكن العشرة القرون الخرس كانت تستمر على خرسها والعشرة القرون التالية المصيغة (لانه سيتم طبعاً بعد تاريخ وفاة دانتى عشرة قرون وأكثر) تحرم تلك القصيدة الرائعة — كتاب دانتى وتخسر لذيذ مسموعها ! نعم لا أسف ولا حرقة ولا حسرة وكيف وانما أراد الله لذلك الشاعر حياة أشرف واسمى ولعلنا لا نعرف أيهما الاسعد الأهنأ — عيشته تلك المرة الالمية أم عيشا هادئاً عاديا والسعادة والشقاء سر من الأسرار يعنى به البشر وكلهم فيه خابط عشواء وحاطب ليل

وبينا دانتى عائش فى وطنه قائم بوظيفة القضاء اذ ثارت فتنة أدت الى نفيه وسائر حزبه فكتب عليه منذ ذاك الشقاء والويل وانتزعت املاكه واصبح وهو

نا عن الاهل صفر الكف منفرد كالسيف عرى متناه عن الخلل

وكان يشعر وفى حشاه جمرة تتوقد بان مالقيه من أفحش الظلم وأفظع الجور وحاول جهده أن يرجع الى وطنه وثروته ولم يدع وسيلة الا اتخذها حتى السلاح ولكن عبثاً حاول وما زاده اجتهاده الا خطباً على خطب ومحنة فوق محنة فاهدر دمه ونودى متى قبض عليه أعدم احراقا هكذا وجد فى بعض الآثار وألفى أيضاً رسالة تاريخها واقع بعد هذه الحوادث بعدة سنين رداً من دانتى على اقتراح قدمه اليه قضاة بلده يعدونه العفو والعودة الى منصبه وأملاكه اذا هو قبل ان يقدم

معذرة وغرامة فاجاب فى عزة وكبرياء «اذا انا لم ارجع برىء الساحة موفور الكرامة فلا رجعت أبدا »

وكذلك راح دانتى فى هذه الأرض الرحبة الفضاء بلا دار ينتقل من مضيف الى مضيف ومن محل الى محل منطبقاً عليه قوله «آه ما أوعر المسلك وما أخشن الطريق!» ولم يك دانتى بالجليس الممتع وانى يكون كذلك من ظل وهو كسير القلب كسيف البال كلا ولا كان دانتى صاحب الطبع الحاد والفؤاد الجاد والاحزان والاشجان بجدير أن يلهى الغير بفكاهته ويضحكهم بنادرته وقد روى عنه بترارك انه لما كان فى بلاط الأمير «كانديلاسكالا» وقد لامه ذلك الأمير على اطراقه واكتئابه وصمته اجابه بجواب خشن وكان الأمير اذ ذاك وسط مجانه ومزاحه يضحكونه بغرائب النوادر فاقبل على دانتى يقول له «أليس عجيباً ان نرى ذلك الماجن المسكين يجتهد ليجعل فى مقاله متاعا ولذة وأنت على مابك من عقل وحكمة تطوى اليوم فاليوم والشهر فالشهر مطرقا صامتاً لاتفوه بكلمة يكون لنا فيها مستمتع ومستلذ؟» فقال دانتى «لاعجب أو لاتذكر المثل: ان الطيور على اشكالها تقع» فمثل هذا الرجل الكبير صاحب الأجوبة المسكتات والكلمات الموجعات والصمت والاطراق لم يك ممن تروج بضاعتهم بأفنية الملوك وكذلك مازالت الأيام بدانتى حتى افهمته انه اصبح ولا مأوى له على ظهر الأرض ولا

ملاذ ولا ملجا ولا أمل وان الدنيا قد نبذته ولفظته ليضرب فى أنحائها شريدا

كأنما هو فى حل ومرتحل موكل بفضاء الأرض يذرعه

وانه ليس تحت نجوم الفلك قلب ينبض رحمة له أو حشا يخفق وجدا عليه وانه لاخل ولا صاحب ولا سلوة ولا عزاء.

وكذلك كلما صدت عنه الدنيا وتجافت جنح بالطبع الى الآخرة وتوجه وامتلأ خياله بصورة العالم الابدى — ذلك العالم الحق الذى ليست هذه الدنيا وبلدانها ومناصبها ومصائبها الا ظلا كاذبا يرفرف عليه وناجته نفسه: أما وطنك «فلورنس» فلست ناظرا آخر الأبد واما الجحيم والجنة فسوف ترى! وماذا وطنك والامراء وماذا العالم والحياة! تلك لاشىء! وكذلك اذ أصبح دانتى فى الدنيا بلا مأوى جعل مأواه فى عالم الآخرة الرائع الهائل وكذلك أصبح لايرى حقيقة غير الآخرة فصارت مسرح خواطره ومراح افكاره والآخرة سواء حسبها الناس شيئاً معنويا أو شيئاً حسياً فانها مابرحت أهم أمورهم ولكن دانتى كان يعتقد انها حسية تنظر بالعين وتوطأ بالقدم وتمس باليد وكذلك كانت عقيدة تلك العصور فلم يشك دانتى فى انه سيبصر طبقات الجحيم وينظر بها بركة «ماليبولج» كما لا يشك أحدكم فى انه يبصر القسطنطينية لو أصبح على شاطىء البوسفور فلما افعم فؤاد دانتى من هذه الافكار

والخواطر وطال عليه تأملها فى سكوت وتدبرها فى صمت طفح بها اناء صدره وفاض فبرزت للعالم فى ذلك الشعر الباهر والغناء الساحر كتابه المسمى القصة المقدسة أشرف الكتب الحديثة وأشهرها .

ولقد كان من أقوى أسباب العزاء لدانتى بل من أعظم دواعى الفخر أنه استطاع أن يخرج ذلك الكتاب الاجل فى منفاه ومحنته وانه لم يك فى طاقة «فلورنس» ولا فى قدرة أى رجل أو رجال أن يحولوا بينه وبين اتيان تلك المأثرة الكبرى والمفخرة العظمى أو يعينوه عليها وكان يشعر بعض الشعور أنه عمل جليل كأجل مايستطيعه امرؤ وكان ذلك البطل الضخم يقول فى شدة بأسائه وأزمة نكرائه إذا أمضيت عزمك ظفرت كل من سار على الدرب وصل وكانت مؤنة الكتابة كبيرة عليه جداً وكان نصبها شاقا حتى قال : « هذا الكتاب الذى تركنى عدة أعوام فى هزال » أجل لقد أحرز دانتى قصبات السبق بالكد والألم لا بالدعة والعبث — بل بالجد العلقمى والجهد الناصب كيف لا وإنما بدم فؤاده سطر ذلك الكتاب وخطه وكذلك معظم الكتب الجليلة تنقش بدماء كتابها والكتاب مودع سيرته جميعها وكانت وفاته بعد أن أكمله بمدة يسيرة ولما يطعن فى السن — وإنما قضى فى السادسة والخمسين من عمره — ضحية الحزن والكمد — هكذا يقال وهو الآن مدفون حيث لاقى منيته فى بلدة «رافينا» ولما مر على وفاته قرن طلب أبناء وطنه الجثة من أهالى «رافينا» فأبوا كل الاباء وعلى قبر دانتى هذه

الآية: ها اناذا - دانتى - مدفون بعيدا عن وطنى ومسقط رأسى

قلت أن قصيدة دانتى غناء وقد سماها «تيك» غناء لغزيا عميقاً وما عدا بذلك عين الحقيقة وقد قال «كولريج» فى بعض كتاباته أن كل جملة موسيقية التركيب يجرى فى أثناء لفظها حلو النغم فلا بد من أن تكون ذات معنى جليل شريف لأنه مازال أبدا بين الجسم والروح - بين اللفظ والمعنى ألفة وشبه والشعر القديم الجيد - شعر هوميروس مثلا كله غناء بل كل شعر حر غناء وان كل شعر لايصلح أن يتغنى به فما هو بشعر ولكنه قطعة نثر فصلت فى لفظ طنان فيه عقوق لقواعد النحو وأذى ومصاب على القراء وإذا كان فى رأس أحد الناس خاطر فما باله لايبديه فى عبارة سهلة قريبة - أعنى فى جملة نثرية؟ بل ماباله لايستريح أو يخرجه ملتويا معقدا تطن به القافية أما انه لاحق له قط فى النظم والغناء بالقوافى حتى تتملك فؤاده حرارة الانفعال وموسيقى الوجد فيصبح صوت منطقه بفضل موسيقية أفكاره وعمقها وعظمتها موسيقياً إذن فله علينا أن ندعوه شاعراً ونصغى اليه على أنه غريد الناطقين وهزار اللافظين والادعياء فى ذلك كثيرون ولذلك كانت قراءة النظم على القارىء الاريب عملا شاقا إن لم نقل عملا لايطاق! وما أقبح النظم الذى لم يكن هناك ضرورة إلى نظمه - الذى كان أولى له أن يلقى الينا معناه فى وضوح واختصار من غير تقطيع ولا رنة ولا طنين وإنى أنصح إلى كل من أمكنه أن يقول أفكاره أن لايغنيها

وان يفهم أنه لامجال فى الاحوال الجدية وبين القوم الجادين للطنين بأفكاره والتلاعب بها مادامت ليست مما يقذفه الجنان برغم صاحبه شعراً وكما أن الغناء الحر يلذنا ويطربنا فكذلك الكاذب منه يؤلمنا ويوجعنا ولا يقع منا الا موقع الضوضاء الممقوتة المنكرة ولا نراه الا كطنين الذباب أو دوى النحل

وحسب دانتى فخرا أن أقول أن قصته هى غناء حسن بلى أنى لأحس الوزن الموسيقى يطرد فى جميع لفظها فكأنها نشيد من الأناشيد ولعل لمزية اللغة الطليانية دخلا فى ذلك بل أرى حركة اللسان فى تلاوتها تجرى على ميزان فكأنها ضرب من الرقص ولكن السبب الأكبر فى ذلك هو خروجها من أعماق الفؤاد فجوهرها ومادتها من الموسيقى وهى بفضل عمقها وحرارتها وإخلاصها موسيقية وانك ما تعمقت قط إلا أصبت الموسيقى فى كل شىء ثم لاتنس مابالقصة من حسن الائتلاف والتوازن والتناسب وهذا أيضا من جنس الموسيقى وكأنما أركانها الثلاثة: الجحيم ومكان التطهير والجنة فى تواجهها الأركان الثلاثة لقصر مشيد وكأنها كنيسة قدسية عامة باذخة على وجهها آية الروع والجلال والهيبة هذا هو العالم الذى خلقه دانتى وملأه بالارواح بين منعم ومعذب — هذا عالم الارواح خلقه دانتى ! وهى أشد اشعار الدنيا إخلاصاً فالاخلاص هنا أيضا مقياس الفضل ولقد خرجت من لباب لبه فهى ماتزال تبلغ لباب ألبابنا

أفرغت فى الزجاج من كل قلب   فهى محبوبة الى كل نفس

وكان أهل فيرونا اذا بصروا به فى إحدى الطرقات قالوا: هاهو الرجل الذى كان فى جهنم! بلى وخالق الخلق لقد كان فى جهنم — فى جحيم الحزن والكربة والبلاء والقصص التى تخرج من القلوب مقدسة لا يكون مصدرها إلا الشقاء والبث واللوعة أو ليس الفكر والعمل الحر أيا كان والفضيلة العليا — أفليست كل هذه بنات الألم؟ فكأنها نتجت من الزوبعة السوداء — أليست مجهوداً صادقاً كمجهود الاسير اذ يحاول خلاصه؟ ومازال الألم مصفاة النفوس وراووق الطباع

وقد هذبتك الحادثات وربما   صفا الذهب الابريز قبلك بالسبك

بلى ليخيل الى أن شعر دانتى قد سبك فى تنور روحه وبودقة قلبه الم يتركه «مهزولا» عدة سنين؟ وان الدقة لتعتور قصته جميعها لم تغادر منها فقرة ولا جملة فتراها لذلك أصدق مايكون وأجلى وأنصع وتراها متجاوبة الاقسام ينزل كل جزء من أجزائها فى موقعه كأنه حجر المرمر أنعم نحته وأجيد صقله وهل هى الاروح دانتى تتضمن روح القرون الوسطى قد برزت للعيون فى أبدع قوالب الشعر وأعجب صوره وتالله ماهو بالعمل السهل وإنما أمر عظيم وخطب جلل ولكنه أمر نفذ وعمل أكمل

ولعل الحدة هى أكبر مميزات دانتى فما هو بالرجل الواسع الصدر السمح النفس ولكنه رجل ضيق العطن متحزب وبعض هذا راجع

إلى طبيعة العصر وبعضه الى طبيعة الرجل فترى أن ملكات دانتى وقواه الذهنية قد تجمعت وتكاثفت حتى أصبحت حدة نارية وشعورا عميقاً فهو ينفذ فى جسم كل شىء حتى يرسب فى قرارته ولست والله أعرف فى الوجود شيئاً له مثل هذه الحدة أنظروا الى تصويره الاشياء تروا أن له أقوى قوة بصرية فاذا نظر إلى الشيء عرف حقيقته فأداها وحدها وتذكرون صفته لقاعة «دايت» بالجحيم اذ قال «ذروة حمراء حديدة محماة جمرية التوقد مخروطية تتوهج فى ظلمة كثيفة طخياء» ما أنصع هذا الوصف وما أبين وما أوضحه لاول وهلة ثم إلى الابد! وهذا عنوان الرجل فان فى دانتى لاختصار ايجاز واقتضاب فى دقة واحكام وانه ليقذف بالكلمة يصيب بها كبد الحقيقة وكأنها طعنة الفارس الكمى ثم وراء هذه سكوت أفصح والله من القول

والشعر لمح تكفى اشارته وليس بالهذر طولت خطبه

ثم ما أرشق تشبيهاته وما أدقها وما أحكمها حتى ليخيل الى أنه يحز فى الشيء بقلم من نار فيقول عن المارد المنتفخ حينما أرعوى لزجر فرجيل «أنه كان كالشراع انحطم عموده بغتة فهوى» ويذكر أحد المعذبين فيقول «بوجه مشوى» ثم انظروا ماذكره من «الثلج النارى» المتساقط على المعذبين «ثلج نارى بلا ريح بطىء مصمم دائب لاينى ولا ينتهى» ولا أحسب هذا التصوير الا قطعة من صميم عقل الرجل وفيه يتجلى لنا ذلك الطبع الطلياني الحاد السريع النارى الصامت الشديد القوي وحركاته

الوشيكة المقتضبة وثوراته الساكتة الكظيمة

لأن التصوير وان لم يكن إلا من القوى الظاهرية السطحيةولكنه خارج كسائر القوى من جوهر النفس وعنوان على الرجل جميعه أوجد رجلا يحسن الوصف توجد رجلا فاضلا ذاقيمة فانه ما كان ليتبين حقيقة الشيء لو لم يكن فى فؤاده حب يلقيه على ذاك الشيء فيكون سبباً الى التعمق فيه وانعام النظر — لو لم يكن ذا جد واخلاص والرجل العديم الفضل لايستطيع أن يصف لك شيئاً فانه بضعفه ولؤمه لايمكنه أن يتعدى الظواهر ولا يقف الا عند الأكاذيب والأباطيل أولا يمكننا القول بأن آية الذهن هو قدرته على استبانة حقائق الأشياء ؟ — استبانتها بالامتزاج بها الناشيء عن محبتها والانجذاب نحوها وكذلك الطبيعة لاتكشف أسرارها الا للولوع بها الذى كله اخلاص لها وصبابة اليها وقدما كان الحب أول هاد الى خباى الحقائق الحب الصادق الصاحى الراكز على أساس العقل والحكمة لا الكاذب الثمل الطائر بأجنحة الخديعة والطيش لأن الحب الصادق يستدعى رقة الشعور وسداده والشعور الرقيق المسدد هو مقلة النفس المستجلية للغوامض المستبطنة للدخائل ولن ترى الرجل البليد الاحساس الكليل الحب إلا محجوباً عن أسرار الأمور لايلابس منها سوى القشور وهذا هو الواقع حتى فى المسائل العملية فالرجل الذكى الأريب هو ماأبصر من الأمر المراد اتيانه النقطة الجوهرية فامسك بها وصفح عن كل ماعداها

وليس الوضوح والاختصار والصدق والجلاء الناصع الذى كأنه وهج الحريق فى الليل البهيم هو كل مايمتاز به وصف دانتى وتصويره بل تراه أيضاً شريفاً جليلا كيفما قلبته ومن أى ناحية أتيته ثمرة روح شريفة جليلة انظروا الى ماورد بالقصة من حديث الغادة «فرانسسكا» وعاشقها — ذلك الحديث المذيب الفؤاد المفتت الأكباد تجدوه كأنه منسوج من ألوان قزح على رقعة من السواد الأبدى أو كأنه صوت ناى جم النواح مبحوح الأنين يناجى حبات القلوب بادياً فيه رقة الشكوى وذلة الولهى ورنة الثكلى وأشجى مافيه ان الحبيبين يلقيان عذاب الجحيم معاً فحبذا ذاك الاجتماع سلوة فى الشقاء وعزاء فى الضراء لقد كان الشاعر صديق والد «فرنسسكا» هذه وربما جلست تلك الفتاة على ركبة دانتى صبية بريئة من كل عيب حسناء سمحاء ولكنها اذ أذنبت فى حياتها أبى دانتى إلا عدل الجزاء فجعلها فى جحيمه بحيث تعلمون ولكنه شفع العقوبة بما ترون من نعمة الوصل ومنة الاجتماع بحبيبها يالها رحمة فى قسوة وعفو فى شدة وتلك شيمة الطبيعة وما قصر عن اداركها دانتى وما أفيل رأى القائلين بان كتاب دانتى لم يك الاهجاء فاحشاً أراد أن يسىء به الى من أعياه مؤاخذتهم والانتقام منهم وأحسب لو أن رجلا حمل فى قلبه حنان الأم الرؤوم ورأفتها فذاك هو دانتى ولكن من لم يعرف القسوة لم يعرف الرحمة أيضا والذى تخاله منه رحمة هو فى الحقيقة جبن أو تصنع للرحمة قصد الافتخار وما أعرف فى العالم رجلا أرحم من دانتى ولا

أكثر حبا وان بين جنبيه لحشا خفاقا ووجدا واشفاقا وفؤاداً ملتاعا وولها ونزاعا كحنين النايات والعيدان ليناً ليناً او كمهجة الطفل ويشوب كل ذلك مرارة الحنق ووعورة البأس والعناد ! سخط على عمى الحظ وعثرة الجد وجور القضاء ولؤم الزمن وصبابة وحنين الى حبيبته «بياتريس» ولقاؤهما فى الجنة ونظره فى عينيها النجلاوين تشرقان بشعاع النور المقدس — وقربه منها — من الغادة التى طهرتها حياض الفردوس وصفاء الابدية كل هذا شبيه عندى بأغانى الملائكة ولعله أصفى مانطق به امرء فى هذه الحياة الدنيا من آيات الحب الطاهر

وأرى هذا الرجل الحاد حاداً فى كل شىء فلقد نفذ بحدته الى كل جوهر ولب وما عمق نظره فى التصوير وعمق نظره فى البرهان والدليل الا مايعتور جميع ملكاته من الحدة وهو فوق كل ذلك كبير من حيث الصلاح والتقى وذاك أساسه وعنصره فاحتقاره للدنيئة عظيم وأسفه على أولى البؤس والبلاء عظيم كعظمة حبه ووده وهل الأسف والاحتقار الاحب قلب عن جهته وأحيل عن طبيعته ويقول فى كتابه عن الجناة المجرمين حين يمر بهم فى الجحيم «لسنا متكلمين عنهم وحسبنا نظرة اليهم ثم نضرب صفحاً» ياله احتقار فى ترفع ونفرة فى سكوت وانفة فى صمت واعراض ثم قوله يذكر فئة من المعذبين «لقد انقطع أملهم حتى من الموت» ليخيل الى ان داتى يعرض بنفسه فى هذه الجملة فلقد أتى عليه حين من

الدهر كان قد يئس من الراحة حتى راحة الموت ولعله جاءه بعد ذلك يوم برق فيه لفؤاده المكلوم شعاع أمل انه سيلقى بعد كل ذلك الجهد والمصاب والكمد راحة القبر وان القضاء نفسه لايمكنه أن يحرمه هذه النعمة » مثل هذه الكلمات كانت فى ذلك الرجل وأراه فى الحدة والشدة والجد والعمق مقطوع القرين معدوم النظير الا فى انبياء بنى اسرائيل فاما اردت مثل كلامه فانظر فى التوراة العبرانية

ولا أوافق قوما يفضلون الجحيم فى قصة دانتى على قسميها الآخرين ومرجع هذا التفضيل هو فى ظنى «بيرونية» (١) فى الذوق والمشرب ولعل القسم الثانى «مكان التطهير» أبرع من الجحيم وأسمى أجل ماأشرف ذلك الجبل – جبل التطهير – فهو رمز لاشرف أفكار هذا العصر رمز لبراءة الانسان بالتوبة واذا كانت الذنوب من وخامة العاقبة كما تعلمون والجحيم من العذاب والألم كما تعهدون أليس جديرا أن يكون فى التوبة منجاة للمذنب وبراءة ؟ والتوبة أجل أعمال النصرانية ثم ما أبدع ماوصفها دانتى وأبرع اذ قال انه بعد خروجه من الجحيم أبصر على مدى العين بريق أمواه تترقرق ولمع أمواج تهتز وتخفق فى بريق الصباح ولمع الضحى فهذه صورة تدل على تحسن الحال وهذا ولا شك فجر الامل والرجاء قد لاح والأمل حى لايموت وأشد مايكون فى الحزن كالشهاب أسطع مايكون فى فحمة الديجور

(١) نسبة الى بيرون يراد طريقة بيرون وهي كراهة العالم

كالكوكب الدرى أخلص ضوءه حلك الدجى حتى تألق وانجلى

وهناك جبل يقوم فى سفحه ويصعد فى أوعاره المذنبون التائبون وقمة الجبل فى عليين دونها باب الجنة وماتنى أنفاس هؤلاء التائبين المستغفرين تتصاعد الى عرش الله ويقولون لدانتى حين يرونه: استغفر لنا ربك: ولا يأتلون فى ذلك الجبل صعودا وارتقاء ومشقة وعناء وقد أدنى الكلال خطاهم وأنضى الكد أبدانهم وأسنوا وشاخوا فى ذلك الصعود ولما يبلغوا القمة ولكنهم مواظبون وجادون حتى يبلغوها وعندها باب الفردوس وبرحمة من ربهم وغفران سيدخلونها خالدين وكلما بلغ القمة واحد عم الفرح الجميع ورنح الجبل طربا ووجف سرورا وهتفت الملائكة بنشيد مقدس! فهذا فى نظرى تصوير شريف لمعنى شريف

ولكن أركان القصة الثلاثة متعاونة متوازرة ولا غنى لواحدة عن الآخرين وأرى «الفردوس» أحد أركانها موسيقيا صامتا وغناء ساكتا وهى المكفرة لسيئة الجحيم والجحيم لولاها ضرب من الباطل ومن الثلاثة يتألف عالم الآخرة كما كانت تمثله نصرانية القرون الوسطى وهو شىء جليل حر الجوهر طول الدهر ولعله لم يتمثل فى نفس انسان كما تمثل فى نفس دانتى اذ سطعت حقيقته فى ضميره ونقشت صورته على لوح خاطره كالوحى فى الحجر وما دانتى الا نبى أرسله الله ليبين هذه الحقيقة للناس وينقشها على جبهة الدهر وما أغرب والله سهولة انتقاله

وسرعة تخلصه فى مبدأ القصة من ذكر الحقائق العادية الى العالم الخفى حتى لنجدنا بعد سبعة أبيات أو ثمانية وسط عالم الأرواح ونسير فيه كأنما نسير بين أشياء ملموسة لاريب فيها ! وكذلك كانت فى نظر دانتى وما كانت الحياة الدنيا عنده الا سبيلا الى حياة أخرى خير وأبقى ولم تكن الدنيا فى نظر دانتى بأقل غرابة من الآخرة ولا الآخرة بأقل حقاً من الدنيا وإذا كانت الآخرة عنده هى عالم أرواح فالدنيا كذلك فى نظره عالم أرواح أو ليس فى كل امرىء روح ؟ نعم لقد كان ذلك بيناً له جلياً ولقد كان يعتقده وينظره فهو من أجل ذلك شاعره والاخلاص كما قلت أكبر صفات الشاعر

وجحيم دانتى وجنته ومطهره انما هى فى الحقيقة رمز وتمثيل لعقيدته فى الكون ولعل ناقدا يقوم فيقول لنا ماقصة دانتى الا ألعوبة شعرية وضرب من اللهو والعبث كلا والله انما هى أشرف وعاء ضمن روح النصرانية وهى تمثل بأجسم رموز التمثيل ما أحسه دانتى من ان الخير والشر هما قطبا هذا الوجود اللذين عليهما مدار كل شىء وان الخلاف بينهما ليس هو أن الخير أفضل من الشر — مذهب الماديين الذين يرجعون فى كل أمر الى الحساب والوزن والمكسب والخسارة — بل ان الخير هو الصالح فقط والفرض والواجب وان الشر هو الخبيث المحرم اتيانه تحريماً كلياً لامقارنة بينهما ولا قياس ولا تفضيل فاحدهما للآخر كالحياة للموت كالجنة للنار نعم ماشعر دانتي الا رمز لذلك ورمز للعدل السرمدي

والتوبة والندم للنصرانية بأكملها كما كانت فى تلك القرون — رمز ولكنها فى نظر دانتى ونظر تلك الاجيال عين الحقيقة التى لاريب فيها ولا شك ولا نزاع التى يعتقدها الناس من صميم أفئدتهم ولقد قلنا قبل ان الناس ما كانوا قط مؤمنين بالرموز الشعرية والاقاصيص المنظومة ولا أحسب ان أهل عصرنا هذا يحسبون قصة دانتى مجرد قصة قصد بها الانتقام ممن أساءوا اليه ومجرد عبث وصنعة فاذا رأى ذلك أهل العصور الآتية فشد مايخطئون وقد قلنا عن الوثنية أنها البيان الحق لما كان يجيش فى صدر المتوحش من وقع مشاهد الكون وتأثير روائعه — بيان كان فى وقته حقاً صادقاً وليس يخلو الآن من فضل وقيمة لنا ولكن انظروا الفرق بين الوثنية والنصرانية — فرقاً كبيراً لم تكن الوثنية الا تمثيلا لظواهر الكون وأفعال الطبيعة ولحياة الانسان وطبائع الأشياء وتقلباتها وتصرفات شؤونهما واختلاطهما فى هذه الدنيا وأما النصرانية فتمثل قانون الواجب الانسانى — قانون الأخلاق والآداب فكانت إحداهما للطبيعة الحسية بيانا عاجزا ساذجا لأفكار الانسان الاولية إذكان أهم الفضائل هى الشجاعة — الاستعلاء على الخوف ولم تكن الاخرى للعالم الحسى بل للعالم الاخلاقى فان لم يكن من الفرق سوى ذلك فاى فضل بين وارتقاء عظيم!

وهكذا وجدت القرون العشر الصامتة التى سبقت عصر دانتى صوتها فى ذلك الشاعر الكبير ولسانها و«القصة المقدسة» من يراع

.انتى ولكنها فى الحقيقة إملاء عشرة قرون نصرانية وإنما اتمها دانتى
_أكملها وتلك مازالت الحال وكذلك الحداد بآلاته وأدواته وصنعته
_حذقه — قل والله نصيبه هو فيما يأتيك به من بدائع صنعته وإنما
معظم الفضل لجميع من سلف من واضعى الصنعة ومبتدعى أساليبها
_أبوابها وكلهم قد صنع معه ماصنع وتلك هى الحال فى كل أمر
دانتى هو لسان القرون الوسطى ومن خلال سطوره يلذ آذاننا صوت
فكار تلك العصور كما لو كان أعذب النغم وأشهى الغناء ويرن فى مسامعنا
وسيقيا أبديا مادعا الله داع وما ترنم فى الايك مسجاع وما أفكاره
لك السامية الجميلة الرائعة الأثمرة مافكر جميع الصالحين من قبله أولو
فضل والله أولئك وهل خلا هو من الفضل ؟ أما انه لولم ينطق لبقى
طيب الكثير من تلكم الافكار كامناً مكتوما — لا أقول ميتاً :
ل حياً صامتاً

وعلى كل حال أليس هذا الغناء اللغزى هو غناء روح من أكبر
لارواح وتمثيل حقيقة من أكبر الحقائق ؟ والنصرانية كما يغنيها دانتى
ى، خلاف الوثنية الشمالية وخلاف النصرانية التى هدمها الاسلام
برى الشام — وإنما هى أجل فكرة اعتقدها الناس انبرى لها ذلك
شاعر فغناها وألبسها ثوبا لايبليه الدهر

ابقى على الزمن الباقى من الزمن : أليس خليقاً بنا أن نفرح بذلك
كتاب ونغتبط ؟ وظنى به سيبقى الآلاف المؤلفة من السنين لان

فرقا عظيما بين ماخرج من أعمق أعماق النفس وما صدر من خوارج أجزائها فالخارجى هو سحابة صيف ومسألة تولد مع الصبح وتموت مع المساء وتزول كالظلال بزوال الاهواء والاميال وما تزال تتلون وتتشكل بتلون الصروف وتشكل الاحوال وأما الداخلى فانه سواء اليوم وفى غد وآخر الابد وما يزال ذووا النفوس الحرة والقلوب البارة فى كل زمان ومكان يجدون فى داتنى هذا أخا وصديقاً وخلا شفيقاً لما بين روحه وأرواحهم من النسب وبين قلبه وقلوبهم من الصلة والسبب

أولم يكن نسب هناك فماؤنا ماء تحدر من غمام واحد

كيف لا ولما كانت نفوسهم ونفسه شعبا متفرعة من أصل واحد أصبح الألم الذى يقدح فى نفسه يقدح كذلك فى نفوسهم والأمل الذى يدب فى روحه يدب أيضاً فى أرواحهم فقلبه وقلوبهم كالناى والعيدان إذا حن وهتف خفقت جوابا وأنت وأعولت وذلكم نابليون كان يرتاح فى منفاه بسانت هلينا الى قصيد هوميروس ويسر جداً بما فيه من الحق والصدق وبين القارىء والمقروء كما تعلمون عدد السنين وأقوال أنبياء الله الأقدمين ماتبرح تخالط نفوسنا لخروجها من نفوس قائليها وصدور الكلام من أعماق الروح هو سر خلوده الوحيد وداتنى فى عمق الاخلاص كأحد هؤلاء الأنبياء وأقواله كأقوالهم خارجة من القلب ولاعجب اذا كان الله قد قضى لكتابه أن يكون أخلد شىء أخرجته أوروبا

لانه ليس أخلد من كلمة الحق شيء وكل مابالقارة الأوربية من كنائس ومعابد ونحاس وحديد ومبانى مشيدة وثيقة فمهما بلغت من المتانة والرسوخ فهى قصيرة العمر فى جانب غناء قلبي هكذا وظنى أنه سيبقى حبيباً الى القلوب شهياً الى النفوس وقد زالت جميع هـذه الاشياء عن أوضاعها ولبست هيئات محدثة وتألفت فى تراكيب جديدة وانعدمت ذواتها وان لم تنعدم مادتها وان ماصنعت أوروبا وما أتت لكثير جداً مدن كبيرة ودول مجيدة وعقائد وشرائع وطوائف آراء وأعمال ولكنها لم تصنع من قبيل آية داتى إلا شيئاً قليلا وذالكم هوميروس حى للآن يخاطبكم وجهاً لوجه ولكن أين دولة اليونان؟ بادت من القرون العديدة وذهبت وزالت ولم يبق منها الا كثبان أنقاض ان تسلها عن سالف مجدها لم تحر غير السكوت جواباً. حلم كان ومضى. دولة أصبحت فى الثرى. كأنها رفات أميرها أغا ممنون! وكذلك قد كانت اليونان. وهى اليوم لاتكون إلا مانطقت

وماذا نقول للقوم السائلين «مافوائد داتى!» أنه سؤال غريب لايسعنا أمامه إلا الضحك والاستغراب. حسبنا القول بان العقل الذى أمكنه أن ينغمس فى عنصر النغم والغناء ثم يغنى لنا من ثمت غناء حسناً جدير أن يكون قد أثر أكبر الأثر فى صميم الحياة وقلب الوجود. وأنه مازال طول الدهر ينبوع الغذاء لما فى النفوس من جذور كل خير ومكرمة يغذيها بطريقة لايهتدى الى قياسها ووزنها علماء الاقتصاد

بمقاييسهم وموازينهم ! وهل تقدر فائدة الشمس بمقدار ماتسقط عنا من نفقات الشمع والبترول؟ والخلاصة ان داتى أجل من أن تقدر قيمته

وعلى العموم فما كانت الرجال وأعمالهم لتقاس بما نسميه تأثيرهم فى الدنيا — بما نراه نحن انه تأثيرهم . — تأثير ؟ فائدة ؟ نتيجة ؟ عبث كل هذا وباطل ! ليصنع كل امرء صنعه فما ثمرته إلا حسب عناية غيره . وسيثمر ثمرته وليس يهمنا أخرجت أعماله ترفل فى حلة الملك والدولة وترن من ضجيج الحروب وصدى الوقائع بما يملأ صدور الجرائد والتواريخ التى هى جرائد مصفاة . أم خرجت عارية من كل هذه — خفية صامتة — نعم ماذا يهم ذلك ؟ ليست هذه الظواهر هى الثمرة الحقيقية . وماقيمة الملك أو الخليفة إلا ماأحسن وإذا كانت أعمال الملك أو الخليفة لم تعد على الناس بالخير والمنفعة فانها كالهباء وما ذلك الملك إلا أكذوبة وباطل وحرض هالك وسقط متاع مهما أحدثت أعماله فى الجو من الضجة والجلبة ومهما فلل من مضارب السيوف وأدار من أقداح الحتوف . ومهما قبض من الآجال . والأموال . وملك من أعنة الرجال . والأحوال . هذا الملك فى الحقيقة لم يكن . ألا فلتكبروا معى دولة السكوت وعالم الصمت ! حياهما الله من عالم ودولة؟ لا يريان بالحس ولا يدركان باللمس . وهما مع ذلك أنفع من الصراخ واجدى . وخير من الضجة وأبقى .

وكما أن الله أرسل داتى ليصور لنا فى أشجن الغناء والنغم ديانة

له فى عيشه القرى وسكنى الريف مقنع عن كل ماعداهما وكان قد عاش ومات ولم تفتح اغلاق خزائنه . ولم تكشف أسرار دفائنه . فحرم العالم أكبر شعرائه قاطبة نعم لولا تشرده عن وطنه لذاك الحادث لاكتفى بالغابات والسموات والريف والعيش القروى . ولكن ان كان شاكسبير هذا قد جاءنا عفوا . ألم يجىء ذلك العصر — عصر اليصابات — أيضا عفوا كاجاء من تلقاء نفسه ؟ وهكذا صروف الزمن وأحوال الدهر تقبل وتدبر وتموت وتحى وتذبل وتنضر كالشجرة التى جعلها الوثنيون الشمال رمزا للحياة الدنيا — ولكنها تذبل وتنضر وتلقى أوراقها وتورق بقوانين أزلية ونواميس أبدية . لاتظهر عليها ورقة الا بميقات . لا يظهر عليها بطل الا بميقات . عجيب والله ما بين جميع الأشياء والكائنات من الأسباب والروابط فما من ورقة ذابلة تعفن على ظهر الطريق الا وهى جزء متداخل فى نظام الكائنات أجمع مستحيل فصله عن سائر الأجزاء وليست كلمة أو فعلة لرجل ما الا ومنشؤها العالم أجمع ولا بد أن تعود بالتأثير آجلا أو عاجلا ظاهرا أو باطنا فى العالم أجمع . أجل . هى شجرة « اجدرازيل » التى أصلها فى مملكة الموت وذرى فروعها فى الجنان ! وعهد اليصابات هذا وشاكسبيره من بعض الوجوه ثمرة العصور السالفة — وينسب الى كاثوليكية القرون الوسطى . وانما نشأت هذه الحياة الظاهرية العلمية التى تغنى بها شاكسبير من العقيدة المسيحية التى سجع بها دانتى . لأن الدين كان اذ ذاك كما هو الآن وكما يكون

فى كل آن روح العمل — كان الحقيقة الأولى الجوهرية فى حياة البشر . ومن العجب أن ظهور شاكسبير لم يكن الا بعد ان نسخت اللوائح البرلمانية تلك الكاثوليكية التى شاكسبير من ثمراتها بقدر مافى استطاعة تلك اللوائح أن تنسخ دينا وثيق العرى — ومع ذلك فقد ظهر شاكسبير برغم البرلمانات ولوائحها . لقد أرسلته الطبيعة حين شاءت ولم تبال باللوائح والبرلمانات . فان للموك والأميرات مذهبا وللطبيعة كذلك مذهبا . واللوائح البرلمانية حقيرة برغم ماتحدث من الجلجلة والدوى . إذ اى لائحة أو مناظرة كانت قادرة على إخراج شاكسبير هذا ؟ كلا ولا الولائم بالقصور ولا افتتاح صحائف الاشتراك ولابيع الأسهم ولا غير ذلك من الطنين الحق أو الباطل ! إنما جاد ذلك العصر الا ليصاباتى بمجده وشرفه من غير ماطلائع ولا رواد ولا احتفال لاستقباله ولااستعداد . وجاء معه شاكسبير منحة الطبيعة وجائزة الدهر . أداه الينا الحظ فى سكوت . فتناولناه فى سكوت . كأنما هو شىء صغير الشأن قليل الخطر . وإنه فى الواقع النعمة لا تقدر . والهبة لايحد مقدارها ولا يحصر

إن صفوة الأدباء فى جميع الاقطار الاوروبية وأعاظم الفحول من النقاد والكتاب والشعراء قد أوشكوا أن يجمعوا على أن شاكسبير سيد شعراء العالم على الاطلاق . والحق أقول أنى لاأعرف قط مايقارب تلك البصيرة النافذة والذهن القوى إذا تأملنا جميع صفاته فى أى إنسان

آخر: تبارك الله وتعالى عن الشبه ذلك العمق الساكن والنفس الجذلة الصافية تترآى فى جوفها صور جميع الاشياء مبينة واضحة كأنها البحر العميق الصفى! وقد قيل أن فى تركيب روايات شاكسبير فضلا عن سائر الفضائل والمزايا آية على فهم مماثل لما جاء فى كتاب بالون «النظام الجديد» «نوفام أورجنام» وهذا حق. ولا غرابة فيه. وربما كان أبين إذا نظرنا إلى الحوادث التاريخية أو الجغرافية العارية الجافة التى أحدث منها شاكسبير رواياته البارعة الرائعة واجتهد أحدنا أن يصنع من تلك المواد اليابسة الميتة ماصنع ذلك الشاعر الاكبر! حجارة وأخشاب وحدايد متراكم بعضها فوق بعض فى أفسد اختلاط وتشويش شاد منها ذلك الرجل قصرا موثق الاركان. مونق البنيان. تتلى فى أصغر أجزائه آية الاحكام والصنعة. حيثما ألقيت البصر لم تلق إلا اتقانا واحسانا. فكأنما ظهر فى الدنيا وحده بقانون أبدى فى فطرته وبناموس الطبيعة السرمدى وما هو إلا أن ننظر اليه حتى ننسى الانقاض المبعثرة والاخلاط المشوشة التى صاغ منها وصور. وإن كمال تلك الصنعة التى كأنها صنعة الطبيعة نفسها لتخفى فضل الصانع وتغيبه. ولنا أن نصف شاكسبير فى ذلك بأنه أكمل من كل إنسان وفوق كل امرىء بطبقات. فانه ليدرك كأنما بالغريزة والفطرة مقتضيات الحال والمواد التى يصوغ منها شعره ومقدار قوته وعلاقة مابينها وبين تلك المواد والاحوال. وما نظرته فى ذلك بالسريعة القصيرة ولا غناء فى تلك. وإنما نظرة طويلة

جمة الشعاع غزيزة الضياء ينير اشراقها الموضوع كله — وعين ذات ابصار دائب دائم. ساج ساكن أو بالاختصار عقل كبير. وعسى أصح قياس لمقدار عقل الرجل هو أن تجعله يصف لك فى قصة أمرا جليلا كان أبصره فتنظر أى تمثيل وصورة يقدم لك وأى حادثة هى فى نظره أعظم وأجل فيبرزها وأى أمر أدنى وأقل فيخفيه وما هو أحسن ابتداء واستهلال وأعجب تخلص وانتقال. وماذا أبرع تقسيم وتبويب. وأبدع تنسيق وترتيب وكيف يكون حسن الغاية. وجودة النهاية؟ فاذا حملت الرجل على ابداء كل ذلك جهدت قوى نظره أشد الجهد. وكددت أسباب عقله منتهى الكد. اذ لابد له أن يفهم الشىء الذى يحاوله ويبصر الامر الذى يزاوله. وعلى قدر عمق النظر يكون فضل الجواب. أتراه يضع الكلام فى مواضعه؟ ويجعل اللفظ الى لفقه وقريبه. والمعنى الى شكله ونسيبه. وهل أرسل روح النظام فى تلك الانقاض المبعثرة والاخلاط المشوشة فرد الفوضى نظاما. والخلاف وئاما. وألف أعناق الشوارد. وجمع شمل البدائد؟ وهل أمكنه أن يقول للشىء كن فيكون؟ هل أمكنه أن يقول ليكن ثمت ضياء يحول به عالم السديم نظاما؟ أما انه لايستطيع ذلك لو كان الضياء فى عقله والشعاع فى نفسه

ومن أسباب عظمة شاكسبير أيضاً براعة تصويره للأشخاص والأشياء لاسيما الأشخاص. نعم لشد ماتتجلى عظمته فى ذلك وتستبين ولا أحسب أن إنساناً يماثله فى تلك القوة المخترعة الثاقبة الهادئة. فاذا

نظر إلى شيء لم ينظر منه إلى ذلك الوجه أو ذاك بل إلى صميم لبه . فكان ذلك المنظور يتحلل أمامه فى ذوب من الضياء فتنكشف له دخائل تركيبه وبواطن بنائه . نحن نسمى ذلك ابداعا واختراعا وخلقاً — خلقا شعرياً وما هو لو تأملت الا النظر الدقيق المستوعب للشيء . المحيط بظاهره وباطنه . ومتى وجد ذلك النظر الثاقب المحيط استدعى بطبيعته اللفظ اللائق فجاء من تلقاء نفسه مسرعا ثم أما ترون فى شاكسبير أيضاً فضائل الحكمة والعظة والعبرة والشجاعة والمروءة والصراحة والحلم والعفو والسداد والصدق وتلك القوة الكبيرة والهمة العظيمة المذللة العقبات الهازمة المشقات الخروج من كل قحمة عزاء . وورطة نكراء . عظمة ويمين الله فى سعة السموات والارضين . وعقل يمثل لك الحقائق كما هى لا كما يحرفها الذهن المنحرف عن الجادة ويحورها الفكر المصدود عن القصد . فكأنما والله عقل شاكسبير المرآة المستوية إذا كانت اذهان غيره من الكتاب والشعراء المرايا المقعرة الحدباء . أعنى أن شاكسبير رجل يعدل فى النظر ويسوى فى الرأى بين جميع الاشياء والبشر — رجل كريم عادل . براعة والله وقوة وجلال وعظمة من شاكسبير استيعاب بصره لجميع أصناف الرجال من هامليت إلى أوثيلو إلى فولستاف إلى روميو إلى كوريالاناس وتأديته إياهم فى أكمل خلقهم وصفاتهم والتسوية بينهم فى حبه ومعذرته . وسعته إياهم جميعا بلطفه ورحمته — حبذا هو أخو البشر وشقيق الانسان . وما كان ذهن باكون

ليقاس بذهن ذلك الشاعر فان الاول على كماله وعظمته من طينة أدنى من طينة الثانى – طينة أرضية مادية حقيرة بالقياس إلى ذهن الشاعر الاكبر. وإنى لا أجد لشا كسبير فى التاريخ الحديث مثيلا قط وليس منذ أيامه حتى الآن من يذكرنيه الا رجلا واحدا هو «جيتا» فانه أيضاً نظار إلى حقائق الامور وجواهر الاشياء ويمكنك أن تقول فيه ماقاله هو فى شا كسبير إذ قال «أشخاص شا كسبير كالساعات الشفافة الوجوه – بينما تريك الساعة فى وجوهها إذا هى أيضاً تريك اللوالب والآلات فى ضمائرها المكشوفة واحشائها »

العين البصيرة. هذه هى الكشافة لبواطن الامور والكامن فى ألبابها من النظام والائتلاف – الكشافة لما أودعته الطبيعة أجواف الأشياء من الاغراض – من المعانى الموسيقية تحت تلك الظواهر الجافة الخشنة. نعم لقد أرادت الطبيعة بكل شيء مهما قبح ظاهره غرضا هو للعين البصيرة واضح بين. أفهل هذه الاشياء خبيثة دنيئة ؟ إنك قد تضحك من تلك الاشياء. وقد تبكى. وقد تمد بينك وبينها الصلات والاسباب كيفما كانت. أو على الاقل يمكنك أن تصد عنها وتنصرف. وتعرض وتنحرف حتى يحين أن تقتلها وتمحوها! والعقل الكبير هو أول مواهب الشاعر فاذا اوتى ذلك فقد صار شاعراً – شاعراً بالقول. فان لم يؤاته ذلك فشاعرا بالفعل. وكونه يكتب أولا يكتب – ثم يكتب شعراً أو نثراً هذا أمر ثانوى يتوقف على الصدف – ربما على أدنى الصدف. ولكن القوة التي

تمكنه من أن يبصر ألباب الأشياء والمودع ضمائرها من النظام «لأن لكل كائن نظاما فى جوفه وائتلافا موسيقياً فى ضميره والا فما كان يتماسك ويكون» ماهى بنتيجة عادات ولا صدف ولكنها منحة الطبيعة وأول مزايا الرجل العظيم كيفما كان. ولذلك أول مانقول للشاعر بل لكل انسان هو — انظر! فاذا عجزت عن ذلك فلا فائدة هنالك فى استمرارك على نظم القريض وتفصيل القوافى ولا حاجة هناك الى ذلك الطنين والدوى وتسمية نفسك شاعرا. وأولى لك ان تقطع من ذلك الامل وتنفض يدك من هذه الامنية. فاذا شئت فان لك فى غير الشعر مجالا ومندوحة — فى التجارة مثلا أو الصناعة أو الزراعة. وحسبك ذلك. وأنت فاضل ما أجدت صنعتك وأحسنت عملك أيا كان بشرط ان يكون حلالا طيباً كريماً. ولا عار فى العمل المتقن مالم يكن خبيثاً والاتقان نتيجة العقل. فالعقل هو أجل النعم كما فقده أشد المحن

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

والحقيقة ان قيمة المرء بمقدار بصيرته ولو سئلت ان اعرف ملكات شاكسبير فقلت ارباء عقله على كل عقل لكنت قد أدركت الغاية وبلغت النهاية وما هى فى الحقيقة تلك الملكات التى نذكرها كأنها أشياء شتى كأن المرء ذهناً وخيالا وادراكا مثلما له يدان ورجلان وقدمان وهذه غلطة مبينة ثم نسمع أيضاً ان للمرء «طبيعة ذهنية» و «طبيعة أخلاقية» كأن هذين شعبتان كل فى ناحية أما انه لاباعث على

استعمال تلك الالفاظ المختلفة الا ضرورة النطق وأرانا اذ كنا لابد ناطقين ومتخاطبين فلا مناص من استعمال تلك الكلمات المتفرقة ولكن لاينبغي أن تتجمد الكلمات حتى تصير أشياء فان ذلك هو السبب الى خطئنا فى هذا الامر وضلالنا وانما يجب علينا أن لانزال نذكر ان هذه الاقسام ليست فى الحقيقة الا أسماء وان طبيعة المرء الروحانية القوة الحية الكامنة فيه — هى شىء واحد لاينقسم ولا يتشعب وان مانسميه خيالا وادراكا وذهناً ومفكرة وبصيرة وغير ذلك انما هى صور مختلفة لتلك القوة المبصرة وكلها شديد اتصال بعضها ببعض دليل بعضها على بعض حتى لو عرفنا أحدها لامكننا أن نعرف الباقى وما اخلاق المرء الا ناحيـة من تلك القوة الحيـة التى بها يعمل وبها يكون وكل أفعال المرء لو تفقهون دليـل عليه حتى ليمكنك أن تعرف عن هذا الرجل كيف يكون بلاؤه فى الحرب من لهجة حديثه وطريقة غنائه فان جبنه أو اقدامه ليبدو لك فى خلال لفظه وما كلمة الرجل أو رايه باقل نمياً عن شجاعته أو خوره من ضربتـه أو طعنته وهو هو بعينه واحد يظهر للملأ نفساً واحدة فى صور شتى

قد يعيش الرجل من غير يدين قائماً على قدميه يسعى بهما فى الارض ويضرب ولكن البصيرة مستحيلة الوجود بلا خلاق والرجل الذى لاخلاق له المجرد من كل أثر للخير والبر والمكرمة هو معدوم البصيرة بالمرة لا يرى شيئاً حق الرؤية ولا يعرف شيئاً حق المعرفة لان المعرفة

الصادقة لشيء ماتستوجب المحبة لذلك الشيء والانعطاف نحوه أعني الاتصال به الصلة الكريمة الصادقة واذا لم يكن من العدل بحيث لايزال ينتصف لكل شيء من نفسه ويأخذ الحق منها لغيرها ويقمعها ويقدعها ويذلها ويقهرها ويكون من الشجاعة والمروءة والتقى بحيث يميل الى الحق على مافيه من عذاب ومضض فكيف يجد الى العلم بالحقائق سبيلا ؟ وانما الطبيعة وحقائقها للخبيث اللئيم الخسيس كتاب مختوم ومايعرف مثل هذا من الطبيعة إلا قشوراً وأباطيل وخبائث مما يستخدمه في أغراض ساعته وما مثله إلا كمثل الثعلب أو مايعرف الثعلب شيئاً من الطبيعة ؟ نعم يعرف أين توجد الأوز ! وكذلك الثعلب الآدمي وما أكثره في كل زمن وبقعة أتراه يعرف إلا هذا أو مثل هذا ؟ كلا بل ان اشتمام الثعلب ريح الدجاج واهتداءه اليها فضيلة ثعلبية ولو أنه أضاع أوقاته حزيناً آسفاً مطرقاً يفكر في نحسه وشقائه وظلم القضاء له وجور الدهر واشتغال الحظ عنه بغيره من ناعمات الثعالب ذوات اليسر والرغد ولو لم يكن عنده جرأة واقدام وعزم وحزم وغير ذلك من المحامد والمناقب الثعلبية لما أصاب دهره من الدجاج ولا ريشة.

فاذا قلت اذن ان شاكسبير أكبر الاذهان فقد قلت كل مايقال عنه على أن في ذلك الذهن الكبيرمزية لعل الناس لم يدر وها بعد هوما اسميه ذهناً غير متعمد وفيه من الفضل أكثر مما يشعر به صاحبه وقد قال نوفاليس ماروايات شاكسبير إلا ثمرة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها

وأرى ذلك صواباً وحقاً فما صناعته بصناعة إنما هى وحى يتدفق به طبعه عفواً ويهطل به خاطره سحاً دراكا

ويدر درك للألى يغونه عفوا بلامسخ ولا ابساس

شىء يحصل بلا كد ولا نصب ولا جهد ولا تعب. يذوب كدمعة المحزون غير معتصر ويفيض لمنحة الجواد غير معتسر ويجىء كوداد المحب غير معتنف ولا مقتسر ويسقط من تلقاء نفسه كالطل فى السحر وغناء الحمام فى الشجر أوكشذا المسك يفوح وينتشر وسنا البدر يلوح ويشتهر لاتكلف ولا تعمل ولا تصنع ولا تمحل وإنما هو نبات ينبت من جوف الطبيعة فيخترق روح ذلك الرجل أو صوت الطبيعة يخرج الينا من فم ذلك الرجل أو إن شاكسبير ناى تتناوله الطبيعة فترنم فيه بأشجى نغماتها وتخرج منه أشهى أصواتها ولعل الأمم التى ستجىء بعد آلاف السنين ستجد فى شاكسبير هذا معانى جديدة وبياناً لألغاز حياتهم وإنها لنعمة الطبيعة على الرجل العظيم الصادق ان بجعله جزأ منها فمؤلفات هذا الرجل مهما تعمد أن يجيدها ويتقنها تخرج من مجاهل أعماق نفسه عفواً لا أثر فيها للصنعة والتكلف — كالدوحة نابتة من الثرى وكالجبال والأمواه إذ تلبس أشكالا خاصة منطبقة على قوانين الطبيعة. موافقة لسنة الحق أيا كان. ومع ما أخرج ذلك الرجل من بدائع الآيات أرأيتموه يتسخط ويتشكى ويتلهف ويتشهى أعهدتموه يتألم ويتحسر. ويتوجع ويتضجر. أم كان خلواً من الألم والبرح والكمد والترح. كلا ولكنه ستار للشجو

كتوم للمصيبة وكم خفى فى تلك السريرة من الآلام والمحن فلم يظهر إلا ثمارها من بارع الكلم . وروائع الحكم . كأنها الجذور وكأنها الأغذية النباتية والقوى الكونية الخفية الفعل المستورة الأثر عظيم والله الكلام ولكن الصمت أعظم

وعلى العموم فسكينة هذا الشاعر الجذلة الفرحة هى من جلائل الصفات ولا أنعى على داتى كآبته وشقوته فانها حرب بلا ظفر ولكنها حرب صادقة وهى أهم المسائل وأخطر الأمور وأرى شاكسبير يعد أعظم من داتى من حيث أنه جاهد فظفر ولا يخالجكم الشك فى أنه قد كان له حظه من الهموم والأحزان وقسطه من القروح والأشجان وأغانيه تشف عما كابد من غصص الزمن وتجرع من مرارة المحن وغامس من حومة الخطب وكافح من غمرة الكرب يكدح فى بحر الشقاء ويضرب ويطفو به ذلك العباب ويرسب حتى بلغ شاطىء الامن ونجاه الله من الحين وقد أفال الرأى من زعم ان عيش شاكسبير كان خلوا من الأسى صفوا من القذى لم يرد منه الاعذبا زلالا وفراتا سلسالا وان شاكسبير لم يك إلا بلبلا بروضة الصفاء أفنى عمره سجعا وتثويبا وبلغ أجله شدوا وتطريبا سعيد الفال مغبوط الحال ناعم البال هادىء البلبال شأن البلابل والقمارى اللواتى هن

نواعم لايعرفن بؤس معيشة ولادائرات الدهر كيف تدور

كلا وأبيكم ما كان امرؤ قط هكذا وانى لرجل أن ينتقل من سرقة

الغزلان الى كتابة مبكيات كمبكيات شاكسبير من غير أن يكون قد ذاق الحزن ولبس الشجى بل كيف يتأتى لرجل أن يصور أمثال هامليت وكوريالاناس وماكبيث وغير هذه من القلوب الكبيرة المتألمة الا وقد عرف قلبه الكبير الألم ؟ ثم انظروا كيف جمع بين ذلك وبين الضحك الغزير الطافح ؟ وقد تقول ولا حرج إن المبالغة عنده مقصورة على فن الفكاهة رهن بباب الضحك وكثير فى رواياته اللفظ الموجع والقول المقذع والكلم النافذ المحرق ولكنه عند حد وما كان قط ليغلو فى كراهة البشر ولكن ضحكه ينحط عليك كالسيل المنهمر وإذا نصب من أشخاصه واحدا للفكاهة هال على رأسه ما لا يحصى من فنون المزاح والمجون وألقاب السخرية وما زال ينقله من الأشكال المضحكة فيما يستقصى العجب ويستنفد الاستغراب فكأنه يضحك بملء ضلوعه وقلبه ثم هو ضحك صالح لا يقصد به الى السخر من المساكين والبؤساء والضعفاء ولن يكون الضحك من هؤلاء ضحكا وإنما هو سفالة ولؤم فان الضحك الحر الكريم من شيء ما يستلزم حبك لهذا الشيء وليس الضحك الكريم بمعمعة النار تحت القدر — تقهقه النار والقدر تفور وتلتهب ! وضحك شاكسبير ممزوج بالرحمة حتى نحو الاغبياء والادعياء وهذا الضحك فى نظرى كبساط الشمس على ساحة البحر المحيط

ولا مجال هنا للاسترسال فى وصف كل من روايات شاكسبير على حدة وإن كان لا يزال فى ذلك متسع للقول ومنفسح للكلام فلو أن كل

قصة من قصصه اتيح لها شارح مثل «جيتا» لكان خيرا وسيكون ذلك يوما ما وقد سمى الفيلسوف الكبير الالمانى «سكليجل» رواية هنرى الخامس وما شاكلها تاريخها جليلا وطنياً. وتذكرون ماقاله القائد «مالبرا» من أنه لم يعرف من تاريخ بريطانيا إلا ماعلمه من شاكسبير وقل فى كتبنا التاريخية لو تنظرون مايوازى تلكم الروايات قيمة وفضلا وما أبدع وصفه لحرب «اجنكورت» ونعته جيش الانكليز المكدود المنهوك وساعة التصاف اذ توشك الحرب أن تبتدىء — تلك الساعة الجليلة التى يكمن فى اثنائها النحس والسعد ثم تلك الشجاعة الخالدة الذكر «معشر الرماة الذين صيغت أكفهم فى بريطانيا» الا تجدون فى فى ذلك ريح الوطنية ؟ أما فى ذلك مكذبة للرامين شاكسبير بفتور الوطنية وقلة النعرة أما تحسون قلب الشاعر الكبير ينبض فى كل حرف من مؤلفاته العديدة نبض فؤاد هادئ قوى برىء من كل أثر للجلبة والغلواء كأنما صوت نبضه رنين الحديد الصلب وظنى أن فى صدر شاكسبير هذا جرأة ليث وفى يمينه بطشة قسور لو اشهدته صروف الدهر ساعة الوغى !

هـذا هو فلاح قرية «سترافورد» الذى ارتفع الى درجة مدير تمثيل فكفى بذلك ذل السؤال والذى رمقه اللورد سواذمبتون بعين رحمته والذى كان السير توماس حفظه الله يريد ارساله الى السجن ! انا لم نعده الها كاودين اذ هو عائش وسطنا ولكنه رغما من ضعف ايمان

الازمان الحديثة بالأبطال فاى اجلال واكبار لم يصبه شاكسبير هذا من أبناء اللسان الانكليزى ؟ أى رجل بل أى مليون رجل من رجالنا لانجعلهم فداء شاكسبير الذى هو أكبر مفاخرنا وأعظم مآثرنا — مفخرة نزهى بها على الاجانب وحلية يزدان بها صدر بريطانيا انظروا ماذا يكون الجواب اذا خيرنا بين أن نترك شاكسبير أو بلاد الهند — أن نكون لم نمتلك قط شاكسبير أو لم نمتلك قط امبراطورية الهند أنا أعلم ان رجال السياسة والحكومة يفضلون الهند ولكنا نحن لنا الحق أيضاً فى أن نختار مانراه أفضل فنقول سواء حكمنا الهند أو لم نحكمها فلا غنى لنا عن شاكسبير ! ستذهب الهند يوما ما ولكن شاكسبير لايذهب

بل ان لشاكسبير فضلا عن مزية المجد والفخار وتهذيب النفوس والاخلاق فائدة مادية عملية وهى انه الجامعة الكبرى والعروة الوثقى لشتى طوائف البريطان فى أنحاء المعمورة وسيجىء يوم تظل جزيرتنا هذه لاتعى من أبناء بريطانيا الا الجزء الاخس وسائرهم مبعثر فى نواحى الكرة مبدد فى جوانبها واذا كان ذلك فما الذى يقرب بين هذى النفوس المتدابرة ويؤلف بين هاتيك القلوب المتنافرة فيخضر بينهم الثرى ويتحلى ويشرق الجو بينهم ويتلألأ ويصبحون بفضله أمة واحدة ؟ ماذاك الذى يكون قطباً تدور حوله مصالحهم وأوطارهم وكعبة تشرئب نحوها أعناقهم وأبصارهم ؟ وبماذا يقوم عمود صلاحهم فى مستقره

ونصابه ويستحكم رواق عزهم بأوتاده وأسبابه ؟ بماذا يكون ذلك ؟ أبالحكومة ولائحتها أم بالوزارة واقتراحاتها أم بالسياسة واصطلاحاتها ؟ كلا ثم كلا ! بل بشاكسبير هذا فهو الملك الاكبر الحاكم على جميع طوائف الانكليز فى سائر الانحاء والارجاء الذى

يؤلف من أعناقهم فكأنما يؤلف من أعناق وحش منفر

الذى بفضله نصبح وأمريكا شعباً واحدا على رغم ما أتته الحكومة من التفريق بيننا وبينهم وما هو فى الحقيقة الا انفصال ظاهرى سطحى وشاكسبير الملك الذى يضمنا جميعاً تحت صولجان واحد وراية واحدة الذى ليس فى قدرة الحكومة ولا البرلمان كلا ولا ألف حكومة وألف برلمان أن تخلعه ؟ ولن يبرح الرجل الانكليزى يقول لصاحبه وجاره والمرأة الانكليزية تقول لتربها وجارتها فى الهند وفى كندا وفى جامايكا وفى استراليا «نعم شاكسبير هذا رجلنا . نحن أنتجناه والينا ينسب وبفؤاده نشعر وبذهنه نفكر ونحن واياه من طينة بعينها ومن دوحة واحدة .» ولاهل السياسة ورجال الحكومة ان يتدبروا ذلك لو شاؤا

المحاضرة الرابعة

البطل فى صـــورة قسيس

لوثر — البروتستانيـة — نوكس — البيوريتانية   سيكون كلامنا اليوم عن البطل فى صورة قسيس . والقسيس فى مذهبي نوع من النبي إذ لا بد من أن يكون منطوياً على نور الوحى والقسيس دليل الناس فى مذاهب الدين وقائدهم فى مناهج العبادة . والواصل بينهم وبين السر الخفى . فهو وزيرهم الروحانى إذ النبي أميرهم الروحانى والقساوسة وزراؤه وهو (القسيس) العارج بهم إلى السماء عن طريق الأرض الصاعد بهم إلي الجنان على درج الصالحات ومراقى الطيبات ومعارج الخيرات والحسنات وهو أيضاً فى اعتقادنا صوت من العوالم المستورة يترجم للناس أسرارها بعبارة أقرب إلى الاذهان وأشبه بالدنيويات من عبارة الانبياء والرسل : يترجم أسرار السموات — أو ماسماه جيتا (السر الجلى) الذى لايكاد يراه إنسان فكلنا — إلا من اصطفاه الله — ازاءه كما قيل

ياشاهداً يرنو بعينى غائب   ومشاهدا للأمر غير مشاهد

هو نبي عار من روعة جلال النبي وهول مهابته يشرق له فى نواحى المعيشة اليومية سراج أقل وهجاً من الشهاب النبوى وأسكن لألاء هذا مايجب أن يكون صفة القسيس الكامل وكلنا يعلم أن الكمال نادر وانه

ينبغي الكثير من التسامح والتجاوز عند الانتقال من الشروط النظرية إلى الحقائق الواقعة . فاما أن يكون قسيس مجردا من كل هذه الشروط غير محاول أن يكون كل ماوصفت ولا متيمم وجه الفضل وأمد الكمال فذلك مانحن منه براء ولا شان لنا معه

***

كان لوثار ونوكس قسيسين حرفة وقد أديا الوظيفة فى أمانة وصدق وأولى بنا مع ذلك أن نعدهما حسب صورتيهما التاريخية أعنى مصلحين وربما وجد فى أيام السلم من القسوس من يساوون لوثار ونوكس فى حسن القيام بشؤون الوظيفة وصدق النهوض باعبائها — يستنزلون هدى الله على عبيده ويحدون بركب الفناء فى سبيل الحياة الهادئة المطمئنة ولكن إذا جاء عصر أوعرت فيه تلك السبيل وأوعثت وقامت فيها القحم والعقبات . والموارط والهلكات . ودجت الخطوب وأظلمت الفتن . وأزمت الكروب وتشنعت المحن فليس القسيس الذى يسير بنا فى هذه الطريق سيرة النوتى فى البحر ذى الصخور والحجارة

تجافى بها النوتى حتى كأنما يسير من الاشفاق فى جبل وعر

ليس الذى يساور بنا تلك القحم ويواثب . ويزاحم بنا هذه العوائق ويغالب إلا أكبر من غيره — ولا سيما فى نظرنا نحن — وأخطر . فهو القسيس المجاهد المقاتل لم يكن طريقه بالذلول الركوب ولا جرت سفينته على يم ساكت مطمئن تحت ريح رخاء سهوة إلى مرسى الهدوء والسكينة

ولكنه نزل باناسه سوح (ساحات) القتال فى زمن فتوق ثائرة وخطوب طائرة وحروب دائرة . وصروف جائرة . وأمور بائرة . ونفوس حائرة . فسنعد هذين الرجلين أكبر قساوستنا من حيث انهما أكبر مصلحينا . أوليس كل مصلح صادق قسيساً قبل كل شىء بطبيعته ؟ وكيف وانه بالله يستنجد ويستغيث من ظلم الظالمين . وجور الجائرين ويعلم أن بطش الله فوق كل بطش وان

يد الله كانت فوق أيديكم التى أرادت بنا ما فى الظنون الكواذب

أليس هو المؤمن بالأسرار المقدسة — كاهناً يهتك ببصره الشبهات عن حقائقها — أعنى قسيساً . واذا لم يكن قسيساً قبل كل شىء فلن تراه من الاصلاح والمصلحين فى شىء

وكما رأينا أعاظم الرجال فى مراكزهم المختلفة يبنون الأديان — الأساليب الشريفة للحياة الدنيوية العقائد الحيوية الجديرة بأن يتغنى بها أمثال داتى والأفعال الخليقة بأن يشدو بها أمثال شاكسبير — نرى أيضاً عكس ذلك أعنى هدم هاتيك الأديان . وهو أيضاً من الضرورات وحرى أن يكون من أعمال الابطال ومفاخر العظماء . وعجيب أن يكون ذلك ضرورياً ولكنه فى الحقيقة ضرورى . حتى ترى نور الشاعر — ذلك النور اللين الغض يخلى مكانه لبارقات المصلح السريعة الوميض الطائرة الشعاع . ولا بد للكون من المصلح وليس يخلو التاريخ منه قط ولولا المصلحان القديس (ومينا كيس) والرجل الشديد الباس .

الصعب المراس (ثيبار دايمـاتس) ماترنم دانتى . ولولا ماسبق شاكسبير من أعمال الأمم ومساعى العالم من (أودين) الى معاصره (والترالى) مانطق شاكسبير . بل ان الشاعر الكامل لدليل على أن عصره قد بلغ حد الكمال وانه قد أوشك أن ينتهى ويجىء عصر جديد ودولة جديدة وحال جديدة . فلا بد اذن من أن يوجد المصلحون فيقوموا بتلك الحركة

ولا شك أنه قد كان خيرا لنا وأجمل لو أمكننا أن نفلت تلك الفتن والثورات ونتحامى هذه القلاقل والاضطرابات . ونسير أبداً السير اللين الرفيق على أنغام الشعراء . يروضنا شجى غنائهم . وطرب حدائهم . كما كان يفعل (أورفيس)

حيث استفز الراسيات بلحنـه   أورفيس واستدنى القطا الحذرات

ودعا الوحوش النافرات فاقبلت   خضع الرقاب نواكس الهـامات

وكان خيرا لنا إذ يؤاتنا غناء الشعراء لو انا سرنا فى طريق السكينة والامن يتولى قيادنا ويأخذ زمامنا قساوسة ذوو هدوء وسلم . يصلحون من أحوالنا يوماً فيوماً . لقد كان حسبنا والله ذلك . ولـكن أبت سنة الطبيعة إلا أموراً أخرى . إذ مابرحت تقوم العقبات وتعترض العائقات فى طريق الحياة الدينية بل يصبح الأمر الصالح الذى كان يعد من أسباب الرقى عقبة وعائقاً وقيداً لامناص من خلعه واطراحه . وفى ذلك مافيه من الجهد الجهيد والمشقة وعجيب والله كيف ترى الخطة الدينية والنظرية الروحانية التى كانت بالأمس تشمل العالم طراً وتسع الأمم جميعاً ويرضى

بها بمام الرضى ذهن ثاقب دقيق كذهن دانتى تصبح اليوم حديث خرافة للقرن الحاضر وموضع تكذيب وإنكار . وسخر وإصغار . شبيهة عندهم بنظرية (أودين) ! كان دانتى يرى تمثيل الحياة الدنيا وأفعال الله بالعباد بتلك النيران التى صورها فى قصته وتلك الأودية والجبال . ولكن لوثر لم ير ذلك ولا صوبه . فكيف كان ذلك ؟ ولم لم تبق على مدى الأيام كاثوليكية دانتى حتى تذهب ويعقبها بروتستانية لوثر ؟ اللهم لاشىء يبقى !

أنا لاأحفل بمسألة ارتقاء البشر وتقدم المدنية كما يتكلم فيها علماء هذا العصر فان كلامهم فى ذلك الصدد شديد الغلو كثير الخلط والخبط مضطرب مشوش ولكنى أقول على الرغم من ذلك ان ارتقاء النوع حقيقة لاشك فيها وبرهانها باد فى طبيعة الأشياء . وذلك أن كل انسان فضلا عن أنه متعلم فهو كذلك مخترع يتعلم بالعقل الذى وهبه الله ماصنع السلف وبنفس هذا العقل يكتشف أموراً جديدة ويبدع ويبتكر . وليس انسان قط يخلو من ملكة الابداع والاختراع . ولا رجل قط يعتقد ماكان يعتقده جده حذوك النعل بالنعل بل يفسح بالاكتشاف مجال نظره فى الكون ويبعد مدى رأيه فى الخلائق . والكون تعلمون عديم النهاية وماكان لرأى قط مهما انفسح أن يستوفيه ويستقصيه . ويشتمل عليه ويحتويه . أقول كل امرىء يزيد رأيه فى الكون على رأى جده اذ يخطىء بعض ما كان راه ذلك الجد ويراه غير منطبق على حقيقة

حديثة الاكتشاف . هذا تاريخ كل فرد وهو يظهر فى مجرى التاريخ العام مضاعفاً أعظم تضعيف حتى يبدو فى هيئة الانقلابات الكبيرة والثورات الخطيرة . ولقد كان دانتي يحسب أن فى نصف الدنيا الآخر جبلا فى المحيط يظهر الله فيه أرواح المذنبين قبل ادخالها الجنة وهو ما وصفه فى قصته وسماه جبل التطهير . هكذا كان يرى دانتي ويعتقد فلما ذهب كرستفور كولومباس الى ذاك النصف الآخر من الدنيا لم يجد فى بحاره ذاك الجبل الذى كان دانتي يعتقد وجوده هنالك ! افترى الناس بعد ذلك يصدقون قول دانتي ؟ كلا . وهذا حال سائر المعتقدات فى هذا العالم وحال ماينشأ عنها من النظامات الدينية والدنيوية

فاذا أضفنا الى ذلك الأمر المحزن وهو أنه اذا مرضت القلوب ووهنت العقائد ونخر الشك فى عظام اليقين فسدت عقيب ذلك أعمال المرء ونجمت هنا وهنالك الاغلاط والمظالم والمصائب ومدت الفتنة أسبابها وأخذت الثورة أهبها . وشمرت جلبابها . وما زال من البديهى انه لايصدق عمل المرء حتى يصدق اعتقاده . فاذا ضعف اعتقاد الانسان فلم يكن له من عقيدته هو باعث على الأعمال بل أصبح يجرى فى جميع امره على مذهب العرف السائد وسنة العادة المتبعة مخضعاً رأيه لرأى الدنيا جاعلا ارادته رديفاً لارادة العالم وفكره جنيباً لفكر الملأ . فما هو والله اذ ذاك الا عبد وأسير وبالخطأ فيما يسند اليه خليق وجدير . وهو احد سواق الفتنة . وحداة الثورة يضرب عجزها ويأخذ بناصيتها الى اليوم

الموعود . والاجل المحدود . ومامن عمل يأتيه من غير صدق ولا اخلاص ناظراً الى ظاهره الكاذب فقط الا وهو اثم جديد يلذ لبعض الناس جديد مصاب ومستطرف بلية . ثم تتراكم الآثام حتى لا تطاق وحتى تتفجر عن الثورة انفجار البركان . وهكذا لما أصبح الناس لايؤمنون بكاثوليكية داتى من حيث معانيها . ولا يقدسونها لما افسد الشك والكذب والعمل المنكر الخبيث من مبانيها . اتيح لشملها من لوثر ممزق . ولنظامها مبدد ومفرق . وقضى ربك على العيشة الاقطاعية تلك العيشة المونقة البهيجة التى أبدع صفتها شاكسبير أن يكون ختامها الثورة الفرنسوية . وانما هو كما قلنا انفجار من الآثام المتراكمة كانفجار البركان ثم لاتستقر الأمور الا بعد مدد طويلة من الاضطراب والقلق

وانه لمن البلية أن نقصر نظرنا من ذلك الأمر على جهة واحدة فلا نبصر فى آراء البشر ونظاماتهم الا انها مشتبهة ملتبسة وقتية رهينة بالفناء والموت والحقيقة غير ذلك اذ نجد أن الفناء هنا انما هو فناء الثوب لا الجوهر والموت موت الجسم لا الروح . وكل اتلاف بسلاح الثورة انما هو خلق جديد على نظام أبدع . ونطاق أوسع . فكانت الوثنية الأودنية شجاعة وبسالة . وجاءت النصرانية خشوعا وضراعة وما الخشوع الا ضرب من الشجاعة أشرف وأكرم وما من رأى جال فى صدر الانسان جولة جد واخلاص عن عقيدة صدق وإيمان الا وكان في وقته نظرة صادقة من

الانسان فى صميم الحق فيها عنصر صدق مايزال على تجدد الأحوال جديدا فهو ذخر لنا باق على كر الجديدين . وتعاقب الخافقين . ثم أليس من الجور والسخف أن نرى أن جميع من خلق الله من الأمم فى جميع الأزمان والأمكنة مخطىء ضال الا نحن . وأنه ليس فى خلق الله غابراً وحاضراً من بات على هدى من ربه الا نحن وان جميع الأمم والشعوب ضلوا وخابوا لكى نصيب ونفلح نحن — الفئة الضئيلة القليلة . وان جميع تلك الأمم إنما ساروا منذ بدأ الخليقة حتى الآن مسير الجنود الروسية لم يك زحفهم نحو الخندق إلا ليلقوا بأنفسهم فيه فيسدوه بأجسامهم الميتة فيكون لنا ثمت من جثثهم جسر نعبر عليه إلى المدينة المحاصرة فنأخذها! وهذا وربكم غاية الغرور ومنتهى الباطل

وما أشد ما يتمسك الناس بهذا الباطل فيحسبون أنهم سائرون على جثث جميع من سلف من القرون الى أمد النصر والظفر، ولكن ماذا عسى أن يقال اذا هم وقعوا كذلك فى الخندق وصاروا أجسادا ميتة وكذلك أرى فى فطرة الانسان أنه مابرح يحسب فكره أمام الأفكار ورأيه خاتمة الآراء . ويمضى على هذه العقيدة . ولو أنصف لأبصر أن جميع من ذهب من عباد الله الصالحين ومن حضر إنما هم جنود جيش واحد أدرجوا فى سلك الكتيبة تحت قيادة الله ليقاتلوا عدوا واحدا أعنى به عالم الظلمات والباطل . ففيم التناكر والتجاهل والاشتغال عن جهاد العدو المشترك بقتالنا بعضنا بعضاً لمجرد اختلاف فى اللباس والزي ؟

الاكل الأزياء حسن مازرت عراه على ذى مروءة ونجدة. ومرحبا بالسلاح كله على إختلاف نوعه وشكله من العمامة العربية واليمانى المرهف الى معول «ثور» يضرب به الجان والمردة. وما زمجرة لوثر فى حومة الحرب. والحان داتى من اليراع و القصب. الاعون لنا لا علينا. وكلنا تحت ذياك القائد وذاك اللواء

«وبعد» فلنلق نظرة فى جهاد لوثر هذا لنعلم أى ضرب من الجهاد هو وكيف كان فيه بلاؤه ولوثر لاتنسوه كان من أبطالنا الروحانيين — نبياً لامته وزمنه

ولعل كلمة هنا عن الوثنية على سبيل المقدمة لاتكون الا فى مستقرها وموضعها. لقد كان من أهم خواص محمد (عليه السلام) ومما امتاز به الأنبياء عامة شدة الانكار للوثنية. وهو أكبر مسائل الرسل. وعبادة الاوثان الميتة كاله هو مالايسكتون عنه أبدا ولا يطيقونه. بل لايزالون يشددون النكير عليه ويسمونه بالدغ مياسم القذع والقذف. وهو عندهم أس الذنوب ورأس الكبائر. وهذا جدير بالتأمل. وكلمة (ايدول) أصلها (ايدولون) ومعناها الشيء المنظور أعنى العلامة أى الرمز فليس معناها اذن آله بل رمزا للآله. وجدير بنا أن نشك هل كان قط إنسان مهما بلغ انحطاطه وعماه رأى فى ذلك الصنم أكثر من أنه رمز؟ أنا لا أظن أن مثل ذاك الانسان كان يحسب أن الشيء الذى صنعه يديه هو الآله بل كل مايحسب هوانه يمثل الآله وان ألا إله كائن فيه

بشكل ما . وإذا كان الامر كذلك حق لنا أن نسال أليست كل عبادة أية كانت هى عبادة بالرموز أو بالاشياء المنظورة . وسواء تمثل الآله للعين الخارجية فى صووة منظورة أو للعين الداخلية أعنى للذهن أو للخيال فانما هو فرق سطحى لاجوهرى . اذ لاتزال تبقى هـذه الحقيقة وهى أن هناك شيئاً ينظر — بالعين او بالذهن — دليلا على الاله أعنى وثنا . وليس يخلو أورع الناسكين وأولع المتصوفين من الممثلات الذهنية للمسائل المقدسة وبهـا يعبد الله ولولاها ماوجد الى العبادة سبيلا : وكذلك كل العقائد والملل والنحل والتصورات المطوية على الوجدانات الدينية على هـذا الحد أشياء منظورة ولا تسير العبادة قط الا بالرموز — بالاوثان وعلى ذلك نقول أن كل دين وثنية . وانما بعضها أشد وثنية والبعض أقل

أين اذن شرها ؟ اما أنه لابد من ان تـكون منطوية على شر كبير والا فمـا كانت ملاقية من انكار الأنبياء والرسل أشده وأبلغه . أجل لمـاذا نرى الوثنية بغبضة كل ذلك البغض الى الانبياء ممقوتة لديهم . ولا أحسب أن أكبر اسخط نبياً على الوثنية وملأ صدره غيظا وحنقا ليس هو بالضبط ماكان يخطر بباله فى ذلك الصدد ويصرح به للغـير . فان أحط وثنى من عباد الـكواكب أو الأصنام كان كما راينا خـيرا من الحصان الذى لم يعبد شيئاً ! بل لقد كان فى عمله الحقير هذا نوع من الفضل الخالد . شبيه بمـا يحمد فى الشعراء أعني ايناس الجمـال الالهي

والمعنى الكبير فى النجوم وسائر الكائنات الطبيعية على الاطلاق . فلماذا ياترى ينقم عليه النبي كل هذه النقمة ؟ ان أحقر وثنى عاكف على صنمه ليس اذا امتلأ صدره ايمانا بهذا الصنم الا جديرا بالرحمة لا الابغاض وان كان بعد أهلا للاحتقار والمقت والاجتناب ان شئت ليمتلىء باعتقادها قلبه وليستنر بها وعاء ذهنه الضيق المظلم أو بالاختصار ليؤمن بصنمه الايمان كله يكن فى ذلك خير له أو بعبارة أخرى ماهو حاضر فى ذاك الوقت من الخير وممكن . ثم دعه وشأنه آمنا فى سربه ماضياً على رسله .

ولكن الوثنية تصاب بعد ذلك بآفتها الكبرى . وهى ان الايمان بها يكون قد تطرق اليه الفساد فى أزمان النبوة . ويكون الكثير من الناس قد أدركوا بعض ما أدركه النبي من ان هذا الوثن انما هو قطعة من الخشب وينكر النبي هذه الوثنية . والوثنية المنكرة هى الخالية من الاخلاص والصدق لما أكلت الشكوك قلبها ونخبت الشبهات لبها . فبينا يتشبث بها الوثنى اذ يخيل اليه أنه يتشبث بطيف الخيال . واشباح الظلال . وهذا لعمرى من شر البلية وأسوأ المحنة . ولقد قال كولريج « انكم لاتعتقدون وانما تعتقدون أنكم تعتقدون » وذلك هو الفصل الأخير من رواية الأديان والعقائد . وآية دنو الموت واقتراب الهلاك . وهو شبيه بما نسميه اليوم اتباع التقاليد وتقديس العادات وليس فى طاقة الإنسان ان يأتى جناية أفظع . وموبقة أشنع . ولا اثما أفجر — وجرما

انكر – وما هى الا رقدة العقل وشلل النفس . وضياع الاخلاص والصدق . فلا عجب اذن ان ينكر الحر ذلك ويمقته ويبرأ الى الله منه

ولا أجد لوثر فى أمر الأصنام وتكسيرها الأكأى نبى من الأنبياء . وما كان بغض محمد (عليه السلام) لآلهة قريش المصنوعة من الخشب والشمع بأكثر من كراهة لوثر لمسالة غفران ذنوب الموتى وأدواتها من الجلد والحبر كما كان يجريها بطارقة الكاثوليكية . وانه لشأن البطل أيا كان وفى كل زمان ومكان ان يرجع الى الحقيقة ويعتمد على الاشياء لاعلى ظواهر الاشياء . وبقدر حبه لحقائق الاشياء واجلاله اياها اجلالا ناطقا يصدح به صوت الشعر ويسجع أو اجلالا مفحما يجيش به الجنان ويعجز عنه اللسان . يكون مقته وكرهه لظواهر الاشياء مهما صقل التمويه من أطرافها وهذب التزويق من حواشيها ومهما أيدتها قريش أوعززتها قساوسة الكاثوليكية . والبروتستانتية عمل جليل جدير بفاعله أن يسمى نبياً . وهى فى نظرى نبوة القرن السادس عشر وأول ضربة فى مفاصل عقيدة أصابها الدهر بداء الكذب والوثنية وهى تمهيد لجديد صالح مستقبل سيكون حقاً ويكون مقدساً !

يظن الذى لايدقق النظر أن من شأن البروتستانتية محوها لما نسميه عبادة الأبطال وجعلها أساس الخير الدينى والدنيوى ترك الثقة بزعماء الدين وعدم الايمان بهم وطالما نسمع أن البروتستانتية أوفدت عصراً جديداً شديد الخلاف لجميع ماسبقه من العصور – «وعصر الرأى

الشخصى » كما يسمونه وإذ كانت البروتستانتية ثوراناضد البابا أصبح كل فرد بابا لنفسه . وعلم فيما علم أن من أول واجباته عدم الثقة بأى بابا أو امام دينى ! وعلى ذلك نسمع القائلين يقولون أولم تصبح الرابطة الدينية وكل انقياد لزعامة دينية بعد ذلك من المستحيلات ؟ أنا لا أنكر أن البروتستانتية لم تك إلا ثورة ضد أئمة الدين من بابا وبطريق وما اليهما . كما لا أنكر أن البيوريتانية الانكليزية التى كانت ثورة ضد الملوك والأمراء إنما هى الفصل الثانى من الرواية التى أول فصولها البروتستانتية وان الفصل الثالث من هذه الرواية هو الثورة الفرنسوية الهائلة التى كان من شأنها فيما يرى ويظن أنها نسخت جميع الزعامات الدنيوية والدينية ـ الأرضية والسماوية ـ أو جعلت أمر نسخها قضاء لابد من تنفيذه والبروتستانتية هى الجذر الذى عنه تفرع تاريخ أوروبا الحديث وتشعب لأن الروحانيات مابرحت تتقمص فى العمليات والروحانى مبدأ العملى وقد أصبحنا الآن وملء آذاننا صيحات « ياللمساواة » « ياللاخاء » « ياللحرية والاستقلال ! » وأصبحنا ولدينا بدل الملوك أوعية أوراق الانتخابات وأصوات الانتخاب وكأنما قد ذهب من الدنيا بتاتا طاعة الانسان للانسان فى الدنيويات والدينيات ولو ان الحقيقة كذلك لتناهى يأسى من الدنيا وأريقت صبابة رجائى . ولكن أرسخ عقائدى أن الأمر ليس كذلك . ولولا الحكام أخيار الحكام ـ الدنيويون والدينيون لاصبح أمر الناس فوضى . وشر الامور الفوضى . ولكنى أرى

البروتستانتية رغما مما أحدثت من الديموقراطية الفوضوية منشا ملوكية حرة صادقة ومنشا نظام . وصلاح وأحكام . وأراها ثورة ضد أشرار الملوك وكاذبيهم . وأراها الخطوة الاولى إلى اقامة أحرار الملوك بيننا وصلاحهم ! وهذا يحتاج إلى قليل من الشرح

ولنذكر أولا أن أمر «الرأى الشخصى» فى العبادة لم يك بالامر الجديد فى العالم ولكنه كان فى تلك المدة جديدا . نعم ليس فى البروتستانتية شىء جديد فى جنسه وإنما هى رجعة إلى الحق والجوهر بعد الاقامة على الباطل والظاهر الكاذب شان كل رقى وتعليم صالح . ولا أحسب الا أن حرية الرأى الشخصى مابرحت فى الناس من قديم الازل لم يخل منها جيل من الاجيال . وما أظن أن دانتى كان قد عمد إلى عينيه فقلعهما ولا إلى حركات ذهنه فغلها وقيدها . ولقد كان فى كاثوليكيته تلك حرا طليقاً وان أصبح قوم فى أغلالها من بعده مكبلين وفى أصفادها موثقين حرية الرأى ماذا أسمع ؟ كلا والله ما كان قط فى قدرة السلاسل والاغلال ولا أى قوة بشرية ترغم إنساناً على الايمان بهذا الامر أو الكفر بذاك . وانما رأيه فى ذلك سراجه الدائم الاشتعال الذى لا يخبو الا مع أفول كوكب حياته . وبه يستنير ويهتدى بفضل الله وحده ! وان أشقى الضالين الذى يامر بالاعتقاد الاعمى والطاعة المهينة لابد من أن يكون قد أقنع نفسه أولا بانه لاحق لها فى طلب الاقناع . نعم و «رأيه الشخصى» هو الذى أشار عليه بذلك كاصوب مايؤتى فمثل هذا الرجل حر الرأى فى ضلاله ولكنه حر الرأى.

وهو فوق ذلك مخلص . وما دام فى قلب المرء اخلاص فالراى الشخصى جاره فى ذلك القلب وحليفه . والرجل المخلص يعتقد بملء رأيه و بجميع ماهو مطوى عليه من النور والهدى . بينا ترى الرجل الكاذب الذى يحاول جهده أن « يعتقد انه يعتقد » يسلك طريقاً آخر . فللاول تقول البروتستانتية « خيرا صنعت ! » وتقول للآخر « ويل لك ! » فما هو كما ترون بالقول الجديد ولا الخطة العذراء . وإنما كما قلت عودة إلى جميع ماقيل من أقوال القدماء « كن حرا . كن صادقاً . كن مخلصاً » لقد كان محمد (عليه السلام) يؤمن بملء قلبه . وكذلك كان أودين . وكذلك جميع المسلمين والنصارى وصادقى الوثنيين . لقد رأى كل فريق منهم مذهبه الذى تبعه « برأيه الشخصى »

وانى لاقول ولا حرج أن الاستمرار على أعمال الرأى الشخصى لاينتهى قط بالاستبداد الأنانى والتفرق والتقاطع بل ينتهى بعكس ذلك بطبيعة الحال. وليست الفوضى من نتائج البحث الحر والفحص الصادق ولكنها نتيجة الخطأ والكذب وضعف الايمان وما ثورة المرء ضد الباطل الاميل منه الى ناحية الحق. وجنوح الى اللحاق بزمرة أهل الصلاح والتقى . فأما أهل المظاهر الكاذبة فمحال أن يكون بينهم صلة أورابطة وكيف وفى جوف كل منهم فؤاد ميت لاعاطفة فيه على حقيقة شىء وإلا آمن بالحقائق لابالأباطيل واذا أقفر القلب من العاطفة على الأشياء أفترجوان يكون منه على اخوانه الآدميين عاطفة ؟ كلا انه لايأتلف

بالناس – انه رجل فوضوى . والوحدة أيدكم الله والجامعة لاتكون إلا بين اخوان الصدق وأولى الاخلاص .

أما من حيث قولهم ان كل إنسان يعبد الله «برأيه الشخصى» فان معظم الناس ليس لهم آراء شخصية وانما الرأى هبة الله يهبها لأعاظم الرجال ثم لابأس على غير العظماء ان يعتقدوا رأى العظيم ويستشعروه حتى لكأنهم مبتكروه وقانصوا شريدته . ومخترعوه ونابشوا دفينته وحسب المرء من الابتكار والاختراع . والاكتشاف والابتداع . ان يصح ايقانه . ويصدق إيمانه . فاذا كان ذلك . فما ضره ان لم يكن من الرأى بمنزلة كاشف خبيئته . وفاض لطيمته . ومن كان كذلك فهو الحر الصادق المخلص بل ان له فوق ذلك من فضيلة الاكتشاف والابتكار بمقدار ماهو فاهم للرأى الذى يعتقده ويستنبطه . فان فهمك لرأى عظيم من العظماء ضرب من الشركة مع ذلك العظيم فى احداثه . وكذلك لكل امرىء أن يكون متى شاء مخلصاً صادقا أعنى مبتكرا بمعنى ما . بل لقد أوجد الله أمما وشعوباً كل أفرادها مؤمن صادق تلك أمم الحق وشعوب الايمان وقرون الصدق والصلاح وأعصر البر والفلاح . أعصر مباركة وافرة الثمرات . كثيرة الخيرات . جمة المبرات . إذ كل فرد يقوم على أس الحقيقة لا الباطل فكل شجرة عمل يانعة الثمر . وكل لقحة صنع غزيرة الدر . وحاصل الجميع جم وافر . بما كان كل فرد يضرب إلى ناحية واحدة . ويؤم غرضاً بذاته وأمدا بعينه . هذه أعصر الربح

لا الخسران وأزمن المزيد لا النقصان

ولد لوثر ببلدة ايزليبن بمقاطعة ساكسونيا من ولايات جرمانيا لعشر خلون من شهر نوفمبر ١٤٨٣ وقد لبست تلك البلدة بمولده حلة فخار تبقى مالبس النهار حلة الشمس وتاج مجد يدوم ماكلل البدر هامة الليل . وكانت أمه وأبوه وهو صانع فقير فى بعض معادن البقعة المسماة «موهيرا» قد ذهبا الى سوق ايزليبن الشتوى فأخذ السيدة المخاض فى حومة السوق وغماره . فعاذت بدار حقيرة وولدت غلاماً سمى مارتين لوثر . عجيب والله ذلك لو تدبرتمونه . لقد ذهبت هذه المرأة «فرولوثر» وبعلها الى ذاك السوق لتقضى حاجاً من البيع والشراء - عله لتبيع ثمت ماكانت نسجت من ثياب الصوف ولتشترى ذخيرة الشتاء لدارها الحقيرة . ولعل فى ذاك اليوم لم يك فى طول الأرض وعرضها اثنان هما أصغر شأناً وأخمل ذكراً وأقل خطراً من ذلك العامل الفقير وزوجه .

ومع ذلك فماذا ملوك الأرض وسلاطين العالم وباباته وبطارقته فى جانب ذينك الاثنين ! لقد ولد اليوم بطل جليل . وشب لله شهاب وقاد سوف يمتد على مئات القرون المقتبلة شعاعه فى ذلك اليوم ولد بطل أطال سكان الأرض ارتقابه وخوله التاريخ احتفاءه وترحابه . عجيب والله وغريب وخطير على الغرابة وكبير ! وفيه ذكرى لميلاد أقدم عصراً . وأسمى منزلة وأرفع قدرا وقع منذ الف وثمانمائة عام . وهو حادث الصمت ازاءه أولى من الكلام وما عساه يقال فى مثل ذلك

المقام ! ويزعم الناس بعد لوثر ومولده أن الأرض قد صفرت من المعجزات . وانفضت من الآيات كلا وأسماء الله انما العالم عريق فى الاعجاز والمعجزة من نبات ذياكم الثرى

وأرى أنه كان ملائما جداً لوظيفة لوثر فى هذا العالم وحكمة من الله بالغة أن ولد ذلك الرجل فقيراً وربى فقيراً كأفقر عباده . وكان أيام تلمذته يشحذ القوت متسولا بالغناء من دار الى دار . وكان البؤس رفيقه والكرب شقيقه والشقاء أبداً مجاهره وجهاً لوجه والدنيا تكاشفه الكره والعداوة لاتخادعه قط بزخارف الباطل والكذب . وبوارق الأمل الخلب وهكذا شب لوثر بين حقائق الأشياء المرة المضيضة لا ظواهرها الحلوة المصقولة غلاماً خشن الهيئة ضعيف المنة فى جوفه روح كبيرة نهمة كلها ذكاء وشعور شب فى ملتطم أمواج البلاء . ومصطدم أواذى الشقاء ولكن ذلك خير مدراس له تعلم فيه سنة الحق وألف صحبة الحقائق . وهذا واجبه فى الحياة أن يعرف الحقيقة ثم يرجع اليها العالم الضال بما قد طال فى الباطل لجاجه . واشتد بالزور والكذب الهاجه ! غلام نشأ فى مهد العواصف وربى فى حجر القر والزمهرير . وغذته مرضعات الهم والنكد . وغازلته بنات الباساء والكمد . فخرج من أحشاء وطنه خروج « ثور » [1] من ضمير اسكاندينافيا . وكيف وانه ما انفك يضرب فى شياطين الافك والزور . وابالسة المنكر والفجور . كما كان

(١) آله الرعد عند الامم الشمالية الوثنية وقد مر ذكره

يفعل « ثور » بالجان والمردة حتى هزم كتائب الكذب والمحال وكشف جنود البدع والضلال

ولعل الأمر الذى كان عليه متحول مجرى حياته هو موت صديقه « الكسيس » بالصاعقة . لقد كان لوثر أظهر فى زمن طفولته وصباه أشد الميل للدرس والمذاكرة رغماً من كارثات الفقر ورجا أبواه أن يكون له فى الرقى قسمة فاركباه طريق الدراسة القضائية لانها الطريق اذ ذاك الى النهضة والصعود . فرضى لوثر بذلك رضى كَكره وأساغه مساغ الشجى وأغضى منه على القذى

فلما كان فى التاسعة عشرة وقد شخص هو وصديق له « الكسيس » ليزورا أبويه فى بلدة « مانسفيلد » ثارت زوبعة ورمت بالصاعقة فاصابت صديقه فاذا هو تحت قدميه ميت فناجاه مناجى العبرة من أعماق نفسه «تباً لهذه الدنيا وقبحا لهذى الدار . ويابؤس للحياة ويارحمتا للانسان ! ماهذه الحياة أتزول فى لفتة الجيد ولمح البصر وتذهب كالقرطاس طوته ألسنة النيران فتضيع فى مجاهل الابد ؟ ماذا الدنيا وماذا الدول والممالك والسلاطين والقياصرة ؟ كلهم فى التراب تراب ! بينما هم فى حلل عزهم رافلون . على الارائك متكئون . تفغر الأرض فاها فاذا هم فى بطنها ثاوون . وبالعفر والرغام مكحولون . والمدر والحجارة موسودون . بلى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . ثم أن لوثر عزم من ساعته على الانقطاع لله وعبادته طول عمره وأصبح قسيس كنيسة القديس

او جاستين ببلدة «ارفورت» برغم ابيه والكثيرين من معارفه

ولعل هذا أول شعاع برق فى تاريخ الرجل ولكنه شعاع وسط ظلمات . وقد حدث عن نفسه أنه كان فى تلك المدة قسيساً صالحا يجد ويجتهد ليؤدى وظيفته وليدرك السعادة ولكن عبثاً حاول فما خف مصابه ولا قلت شقوته ولكن تضاعف عليه البلاء حتى جاوز كل حد . وما أشقاه لامن كد فى عمله ولا نصب ولا من مهانة العمل وذله أتاه البلاء وإنما لسقوط نفسه اذذاك فى أسحق مهاوى الشك والخوف — الشك فى أنه على الهدى والخوف من عذاب الله فى الآخرة . وقد قام بخاطره أنه قد دنا أجله وشر من ذلك أنه قد دنا عذابه الأبدى . أليس فى ذلك دليل على خشوع الرجل وضراعته وإخلاصه ؟ لعله جعل يقول فى نفسه «من أنت أيها المسكين حتى تدخل الجنة ؟ أنت الذى ماعرفت إلا الشقاء والهوان . كلا ذلك مقام دونه الشمس . » ولم يكد يفهم كيف أن فى الصوم والتهجد وتكاليف الدين والكنيسة منجاة للمرء من النار . فمن ثم هوت نفسه فى اعتم ظلمات البؤس وجعل كأنما يرنح به على شفا جرف هار .

وكان عثوره على نسخة قديمة من الانجيل فى مكتبة ارفورت حسنة من أكبر حسنات الزمن . ولم يك قط قبلها أبصر الانجيل فلقنه درساً خلاف درس الصيام والتهجد وأعانه على ذلك أخ فى الله قسيس فعلم لوثر أن المنقذ للانسان من وهدة البلاء ليس هو نشيد الصلوات وترتيل

الآيات . وإنما هو الله ورحمته . وذلك أقرب الى العقل وأوقع فى الجنان . فاعتصم من رحمة الله بأوثق عروة . وأنشب من مغفرة الله فى ارسى طود وهضبة . ولا بدع أن جعل يقدس الانجيل الذى أسدى اليه تلك المنة فأجله كما يجل مثله كلام الخالق. وعزم على أن لا يحيد عنه اصبعاً وقد كان منه ذلك حتى لقى ربه

فكان ذلك خلاصه من أسر الشكوك والريب ومنجاته من مرتطم الخوف والجزع وانتقاله من الضلال الى الهدى . فازدادت نفسه من يوم الى آخر غبطة وصفاء . وراحة ورخاء . وكانت النتيجة الطبيعية أنه أظهر للملأ ماكان مكتتما قبل فى زوايا صدره من المواهب الالهية . والصفات العلية . فأعظمه الرؤساء وبوأه من الدرج ماهو أهله ووكلوا به أمر البعث فكلما آب من رحلة كلفوه أخرى . ثقة منهم فيه بالحزم والصدق . ثم اختاره أمير المقاطعة «فريدريك الملقب بالعاقل» وكان عاقلا عادلا أستاذا فى جامعة «وتنبرج» فاحسن اداء ذلك العمل كما أحسن البلاء فى جميع مانيط به من الامور وجعل من يوم إلى آخر يعلو فى أنظار الناس ويتغلغل فى نفوسهم

وكان فى السابعة والعشرين من عمره أن رأى مدينة روما لاول مرة وكان أتاها برسالة كما قلت من ديره . ولا إخال الا أن لوثر عجب كل العجب لما أبصر من حال البابا «يولوس الثانى» وسائر أحوال روما اذ ذاك . وكان ظنه أنه قد أتى المدينة المقدسة . عرش ولى الله

فى الأرض وإمام الناس وهاديهم سواء السبيل فاذا هو بين فسق وفجور . وغفلة وغرور . وويل وثبور . وبين اثم ووزر . وبلاء وشر . وباطل ومنكر . وما أحسب الا أن هذه الحال السيئة قد بعثت خاطره فى أودية الفكر وشعاب الظن ولكنها كانت هواجس لم يرفعها قلبه إلا لسانه . ولا أسلمها وجدانه إلى بيانه لقد علم أنه لايبصر أمامه هدى ولا حقا . ولكن ماله ولذاك ؟ وانى لرجل ضعيف مثله أن يصلح عالما ويقلب دنيا ؟ حقا أن لمثل هذا العمل لانساناً غيره أعظم قدرا . وأكبر خطرا . وحسب لوثر أن يوفقه الله إلى هداه . ويسدد إلى خطة الحق خطاه . وبحسبه أن يقوم بواجبه فى خفية وغموض . فاما العالم فعالم الله يفعل به مايشاء ولله فى خلقه شؤون .

وكذلك ترك لوثر هذه البابوية الضالة وشانها وعاد إلى بلاده . نعم تركها وشانها ولم يتعرض لها إلا بعد أن تعرضت له . ولم ينقض عليها ويسطو بها حتى هاجته واستثارته . ومن أكبر فضل الله أنها هاجته واستثارته واستدعته بذلك إلى شن الغارة عليها والايقاع بها . إذ ماذا كانت الحال تكون وإلى أى شيء كانت تصير الأمور لولم يثر لوثر ثورة الاسد المخدر فى وجه ذلك المذهب الباطل فيرد عرامه ويفل غربه ويكف منه عن العالم شرا مستطيرا كان يؤذن بالويل العظيم . والخطب الجسيم . والتلف العميم ؟ ماذا كان يكون الأمر لو قد استمرت تلك البابوية تضرب في سننِ غوايتها . وتمعن فى طريق عمايتها . من

غير ان تعترض لوثر فى سبيله وتصادفه فى منهاجه فتضطره إلى الحملة عليها ؟ إنما الواضح لى أنه لو لم يكن ذلك ما كان لوثر ليفوه ببنت شفة عن مفاسد روما وموبقاتها . وإنما يجعل الأمر فى ذلك لله شيمة الرجل المتخشع المتواضع الذى لايرى من شانه أن يستطيل بالتسفيه على ذوى الامر من غير أن يكون ثمت موجب أو علة . بل يرى كما قلت أن حسبه من التطفل بالنصيحة على الغير أن ينصح لنفسه ويبغى بها جادة الحق ومنهج السداد . ولكن البابوية لم يكفها ماأتت فى سائر الجهات والامصار من التضليل والتغرير حتى هجمت على لوثر فى قريته الحقيرة فسامته خطة الخسف والضيم فابى . وآية الرجل الشريف أنه إذا سيم الخسف قال لابملء فيه وبيان ذلك أن البابا «ليو» العاشر احتاج المال وكان مبذرا متلافا فابتغاه من وجه حرام وطريق ممقوت إذجعل يبيع الناس عفو الله . وعفو الله لا يحتاج إلى شفاعة بابا ولا بطريق. وما هو بالسلعة تباع فى السوق بالذهب والورق . وإنما هى بضاعة لاثمن لها الا الاخلاص الصريح . والتوبة النصوح . ودمع المذنب يقرع وجنتيه . وسنة يضرس سبابتيه . فان كان لابد من شفيع فالسيد المسيح ومحكم التنزيل . وآيات التوراة والانجيل . ولكن البابا رأى الجهل فاشيا فى الناس فارسل فيهم رهبانه وقساوسته بتلك الاوراق المدلسة المرذولة وكان يسميها أوراق الغفران ومع كل راهب صندوق فيقول للناس «من كان له فى الجحيم صاحب أو قريب فاحب أن يغفر الله

له وينقله إلى الجنة فلينبذ فى هذا الصندوق قرشا . فانه لايكاد يصل قعره حتى يطير الروح المعذب من مثواه فى النار إلى انضر مقامات الجنة »

ونزل أحد هؤلاء الرهبان واسمه « تتزل » على بضعة فراسخ من بلدة « وتنبرج » حيث كان لوثر فاصغى اليه كثير من العامة لسذاجتهم وبلغ من شره ان بعض القوم نبذ طاعة لوثر فى كثير من أوامره اتكالا منهم على ما اشتروه من عفو الله بالدرهم المنقود . فقدح ذلك فى احشاء لوثر ورأى انه قد آن له ان يثور فى وجه البابوية الكاذبة ولم يخش الراهب « تتزل » بل قال « ان يشأ ربى وربكم فلأصد عن مروته ولأنحتن اثلته »

ثم كتب رسالة ابطل فيها عمل البابا وطعن فى خطته وأرسل صورة منها الى بطريق مدينة « ماجد برج » شيخ النصرانية بالمانيا . وعلق صورة ممضاة باسمه بباب كنيسة « وتنبرج » فهب هذا النبأ مهب الريح فى كل وجهة وطار فى انحاء العالم الاوربى مطير البرق .

وادبر الراهب « تتزل » فنزل بلدة فرانكفورت الواقعة على ضفة نهر « اودار » فكتب ردودا على اقوال لوثر ونشرها فتناول تلاميذ لوثر نسخة منها فاحرقوها ببلدة « وتنبرج » وسمع البابا بذلك فقال متهكما « لأخال ان لوثر هذا من نوابغ العالم » واستمر لوثر يكتب الردود والمطاعن وينشرها ويجيئه زعماء البابوية وانصارها وتقوم بينه وبينهم سوق المناظرة ويحمى به وبهم وطيس الجدال فيدمغ بالحق باطلهم

ويدفع باليقين شبهاتهم وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى نفذ صبر البابا وذهب عنه ما ابقاه التجلد من رمق الاحتمال والمطاولة فنشر لائحة كفر فيها لوثر ورماه بالخروج والزندقة وامر بكتاباته ان تحرق وبه ان يرسل مكبلا فى الاغلال الى روما لعله ليحرق ايضاً . فيلقى من الجزاء مالقى القسيس «هاس» من قبله . ونعم المناظرة النار ما اخصر وما اسرع وما أقرب الى الغاية وحسم النزاع ! ياللظلم ويالفجور ! يستدعى البابا القسيس «هاس» ويعطيه عهد الله وميثاقه ان لا يمسه بسوء ولا يناله باذى . ويحضر «هاس» رجلا لا مشاغبا شديد الخصومة ولا مشاكساً الد الجدال . وانما رجلا سهل الشكيمة لين العطف سلس العنان فيودعونه سجناً أضيق من بياض الميم ثلاث اذرع فى مثلها ثم يضرمونه عليه نارا فيقطعو بصوارم اللهب صوتاً مارفع الا فى طاعة الله . لبئس والله مايصنعون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

انا أحد الذين يفسحون ساحة العذر للوثر فى قيامه الآن ضد البابافان ذلك البابا المترف الكافر والوثنى الانيق الثوب السائغ الطعمة لما أوقد ناره لحريق مكتوبات لوثر اجج بها حنقاً وسعر بها غيظاً وحرداً فى اشجع فؤاد كان اذ ذاك فى العالم — اشجع فؤاد واضرعه لله واشده تواضعاً . بلى لقد استعر ذلك الفؤاد وتاجج ولات حين اطفاء . وكأني بلوثر يقول فى نفسه حينذاك «أيحرق ياهذا الرجل كتاباتى هذه

وما اريد بها الا الحق والهدى ولم يعمد بها الى غير الله وتسمى نفسك بعد ذلك امام الناس وخليفة المسيح فى الارض ؟ أنجعل الجواب على هذه الاوراق احراقها وما فيها الا عظة لك وحكمة وتريد ان تحرق كاتبها ؟ أأنت خليفة الله فى ارضه ؟ كلا ! انت خليفة الشيطان ومثواك مثواه ودارك مغنى لابليس وجنوده وعش لخفافيش العمه والجهالة . وجحر لهوام السفه والضلالة . وانى لأشهد على لائحتك تلك التى اصدرتها نقمة على بالكذب والجور وليس لها لدى الا النار . ولتفعل بعد ذلك ماتشاء . ثم ان لوثر جمع من شيعته وانصاره جمعاً ورفعوا نارا فاحرقوا فيها لائحة البابا واكثروا عليها الهتاف والصياح بمرأى من مدينة «وتنبرج» بل بمرأى من العالم اجمع . لك الله أيها البابا ! لبئسما صنعت اذ استثرت من صدور الناس تلك الصيحة . فانها صيحة استيقاظ الامم وانتباه العالم لقد طالما اوغرت صدر المانيا حتى ضاق ذلك الصدر بما كظم . وحتى طفح ذلك الاناء ولم يبق فى قوس الصبر منزع . ولقد طال بالناس حكم الضلال وتراخت مدة الباطل وشاخت فيهم دولة الزور والبهتان وقد آن للحق أن يميل عروشها فيهدمها .

وهل كان لوثر إلا من قبيل الأنبياء حاطمى الأصنام ومرجعى الناس الى الحقيقة بعد طول الاقامة على الضلال . وتلك وظيفة العظماء عامة . أولم يقل محمد «عليه السلام» للناس انما أصنامكم هذه خشب لاتضر

ولا تنفع . وهل كانت مقالة لوثر للبابا إذ يقول له « ماهذه الأوراق التى تسميها أوراق العفو الا أكذوبة وأضلولة وما أنت والعفو عن الناس إنما ذلك بيد الله » إلا كمقالة محمد ؟ لله أنت يالوثر أى كاشف غمة . ومنقذامة . وأى مرجم شياطين . وسيف على رقاب الظالمين أنت ! وبأبى أنت اذ تقول ولا تبالى نيران البابا ولا جيوش السلطان « إنما العفو بيد الله والأمر لله وحده . وانما البابوية وما يدعونه من تلك الرعاية الروحانية افك وزور وكيف وما أراها الا أثواباً مرقوشة . وأوراقا منقوشة . وما كانت تلك المواد الجامدة الميتة لتكون زعامة دينية . ورعاية روحانية . انما هى حقيقة رائعة . وما دين الله وفردوسه . وجحيمه بأباطيل كتلك ولا أكاذيب . فبهذا وحده أومن وبه اعتصم وعليه أقوم وفيه أضرب أوتادى . وأرسى اطوادى . وانى اذا فعل ذلك لأقوى منكم جميعاً . وعصمة الله أمنع للمؤمن من جميع ماتشيدونه من القلاع والمعاقل وبأس الله من بأسكم أشد وكيده من كيدكم أقوى . وأنا وأنتم بنصر الله كما قيل

كادوا وكدت فاذهقت مادبروا إحدى هناتك ايما ازهاق

أنا فى وحدتى بهدى الله قوى . وأنتم فى جموعكم بالضلال والكذب ضعاف . أنا من طاعة الله مدجج فى أكمل سلاح وأحصن جنة وأنتم من معصية الله فى اسمال رثاث واطمار رعابيل منكشفوا العورات حاسروا المقاتل . وأنا من تقوى الله على صخرة أصلها تحت الثرى وفرعها فى

السماء. وانتم فى باطلكم كالمتكئ على الهواء والمعتمد على الماء.

ثم جاء بعد ذلك حفلة «ورمز» وظهور لوثر هنالك ولعل هذا كان أجل مشهد فى تاريخ أوربا. والمنبع الذى منه فاض تاريخ المدنية الحديثة والذى كان من أمر هذه الحفلة ان امبراطور المانيا شارل الخامس لما أعيته الحيل فى لوثر ولم تنفعه فيه المناقشات والمجادلات وكان قد عقد الحفلة للنظر فى شؤون الولايات استدعى لوثر ليعرف ماعنده ولينتهى معه عند حال. وكان المجلس حافلا بجميع الوجوه والاشراف وأمراء الدولة والولاة وزعماء الدين والملك. والى هذا الجمع الحاشد استدعى لوثر من قريته ليسال إلا يزال مصرا على رأيه؟ فيجيب نعم أولا. خصمان متواجهان. وقرنان متبارزان. أحدهما قوة العالم وزهرة الدنيا وجيوش الأرض. وثانيهما رجل فرد نجل الصانع المسكين «هانز لوثر» قائما فى نصرة الحق. وقد نصح اليه الاخوان أن لايذهب وذكروه بنبا القسيس «هاس» ليكون فيه عبرة ومزدجر. فاغلق دون كلامهم أذنيه ومضى على عزيمته فى الذهاب وصمم. وقال «تالله لأذهبن ولو أن بمدينة «ورمز» من الشياطين بقدر مابها من الحصى». وجعل الناس يصيحون به من نوافذ الدور وشرفاتها وهو سائر الغداة الى الحفلة أن أقم على مبدئك وتشبث برأيك ومذهبك واياك والانخذال والهزيمة وجعلوا يتمثلون له آية من الانجيل فى ذلك المعنى. ذلك ماطلبه اليه أهل وطنه وهل هو فى الحقيقة إلا طلب العالم أجمع — طلب العالم الذى

جهدته اغلال الباطل وشفتة ظلمات الضلال واخذ بكظمه شيطان الجهل حتى بلغت الروح التراقى — طلب العالم يصيح بلو ثر اغثنا أدركنا يا بطل الابطال فان مدار أمرنا عليك . وأرواحنا فى يديك .

ولم يخذلهم لوثر ولا خيب فيه آمالهم . وقام فى المجلس خطيباً فتكلم ساعتين كلاماً سداه الحكمة ولحمته الاخلاص والصدق . أبان فيه أنه يذعن للحق وليس لغيره يذعن . وأن كتباته بعضها من املاء ضميره وبعضها مستمد من كتاب الله . فاماما كان من بنات خاطره فذاك ملىء بالعيب والخطأ بما أنه كلام بشر وأما ماكان مأخوذاً من قول الله فاساسه الحق وليس يبرأ منه يد الدهر . ثم سألهم أن يناضلوه بالحجة والدليل فاذا دحضوا حجته زال لهم عنها وصار الى مايحبون الى أن قال « انا لا أخالف ما يأمرنى به العقل والنهى ويوحى الى به صوت الحق من زوايا الضمير والنفس . ذلك ما فى وسعى وطاقتى وليس لى عنه محيد ولا دونه مذهب وعلى الله أتوكل وهو حسبى ونعم الوكيل » الا ترون أيها الاخوان أن هذه كانت اخطر ساعة فى التاريخ الحديث . وأن عليها قامت دعائم الدستور الانكليزى وبرلماناته . والحرية الاميركية واستقلالها . والثورة الفرنسوية ونتائجها فى انحاء الأرض . نعم فى هذه الساعة غرست جذور تلك الحوادث الكبرى والمسائل العظمى ولو سلك لوثر فى تلك الساعة خطة أخرى لكان لها عواقب أخوى ! وكانما العالم الاوربى كان ساعتئذ ماثلا أمام لوثر يساله هذا السؤال : أترى لا ازال فى محنة

وبلاء يهوى بى النحس الى مساقط الجهل و الشقاء أم يرزقنى الله من ذلك الداء الشفاء . ولظلمة الباطل من نور اليقين الجلاء . فاغتبط بمناعم الراحة و الصفاء . بعد مخابث العيشة الكدراء ؟

ومما يمدح به لوثر أنه ثار فى وجه الدين ثورته و أحدث ذلك الانقلاب العظيم من غير أن يهيج زوابع الفتنة أو يسعر نيران الهيجاء . بل حقن الدماء فى الابدان . والسيوف فى الاجفان . ولم يحول اليزاع حساما . والقرطيس أعلاما . ولا استبدل من صرير القلم فى الطروس صليل السيف فى الرؤوس ولا من التناضل بالأقوال . التناضل بالنبال . ولا جعل الكلوم (١) موضع الكلام . والجلاد بدل الجدال والخصام . وقلما نجد رجلا احدث أمرا جللا وهاج حركة هائلة الا غاله مما أحدث غائلات . والتهمه مما اثار محن جائحات . وهذه من مستلزمات الفتن والفتوق . ومستدعيات كل خروج عن الاوضاع المألوفة ومروق . وانما وفق لوثر الى ذلك بفضل ما اوتيه من الحزم والبصيرة . والحزم رأس بوارع الخصال . وكرائم الخلال . وداعية الصلاح . وسائقة الفلاح

ومن اكرم ما امتاز به لوثر فضيلة التسامح . وبها كان يميز الأمر الاساسى الجوهرى من غيره فجاءه ذات يوم عن بعض قسوس المذهب الجديد أنه يعظ الناس فى قلنسوته . «كانت هذه سنة المذهب

---

(١) الكلوم جمع كلم وهو الجرح

الكاثوليكى ومخالفة لمبادىء الملة الجديدة» فلم يعبأ لوثر بتلك الشكوى بل قال «وأى ضرر فى القلنسوة دعوه يلبس قلنسوة أو ثلاثا اذا شاء؟»

وقد ذكر «ريشتار» لوثر فقال لقد كانت كل كلمة من كلماته كموقعة حربية. وما أخطأ فى قوله. ولعل أهم صفات لوثر هو أنه كان يستطيع أن يحارب فيقهر. ويقاتل فينتصر. وانه كان قطعة من الشجاعة. وفلذة من المروءة: ولا نعلم قط فى التاريخ الحديث والغابر انساناً أشجع قلباً من لوثر. ولما قال فى مدينة «ورمز» كلمته المأثورة وهى «لوان فى ورمز من الشياطين عدد ما بها من الحصى لما حفلتها» لم تك لمجرد الافتخار والتيه كما يكون فى مثل تلك المواطن. ولكنه كان عن عقيدة صحيحة بأن هنالك شياطين يعترضون عباد الله فى مسالكهم بالشر والأذى. ومن يذهب إلى الغرفة التى كان يكتب فيها لوثر ترجمته للانجيل يرى على أحد حيطانها بقعة سوداء — أثر موقعة كانت له مع شيطان من الجن. وأصل ذلك ان لوثر كان جالسا فى تلك الغرفة يكتب ترجمة الانجيل وكان قد نهكه الكد. واعياه الجهد. وبلغ منه المرض والصوم. وكان من أثر ذلك أن ترآى له شبح مبهم الشكل مخوف الهيئة فحسبه إبليس أتاه ليقعده عن عمله فثار لوثر ثورة جبار وأخذ الدواة فرمى بها الخيال فاذا هو قد أملس! وأثر الدواة فى الحائط باق الى الآن آية ودليلا على أمور شتى. وان فى قدرة أى تلميذ بمدارس الطب أن يكشف لنا القناع عن هذه الحادثة ويحل لنا مشكلها. ولكن اعتقاد لوثر أن الشبح القائم أمامه

هو إبليس ثم نهضته فى وجه إبلبس وقذفه اياه بالدواة دليل على منتهى الشجاعـة وأقصى غايات البأس والنجدة . ومن كان لايهاب شياطين الجحيم وأبالسة جهنم فهو أحرى ان لايهاب ملوك الأرض وجبابرتها . وقد كتب مرة العبارة الآتية « الشيطان يعلم أن عملى هذا ليس بنتيجة رهبة ولا مخافة فلقد طالما رأيت الشياطين ونابذتها والدوق جورج لايعادل شيطاناً واحدا . وأين هو من سطوة الشياطين ! فليعلم هذا الدوق أنى لو شئت أن أدخل بلدة «ليبزيج» لدخلتها قسرا وعنوة وجست خلالها ولو أن سماءها تمطر أمثاله من الدوقات تسعة أيام ولاء . » لك الله يالوثر أى طوفان وسيل من الدوقات تريد أن تقتحم

وشد مايخطىء الذين يحسبون أن شجاعة هذا الرجل كانت ضربا من البطش والفتك . وصنفا من العناء والعصيان والخشونة والعجرفية . وما أبعدها عن ذلك . وأنا لا أنكر ان هناك ضربا من قلة الخوف مصدره قلة العطف أو قلة التفكير . وربمـا كان منشؤه وجود البغضاء والحنق الاعمى . كشجاعة النمر وهل ترون لشجاعة النمر قيمة ؟ أما لوثر فكان غير ذلك بتة ولم أر تهمة أكذب من نسبة الفتك والقسوة اليه وكيف وما كان قلبه قط مجالا لغير الحب والرحمـة شأن كل فؤاد ذى مروءة وبر . والنمر أن صادف قرناً أشد منه بطشا فر هاربا . فما هـذه بشجاعة وإنما فتك وقسوة . ولست أعلم شيا أرق وألطف ممـا كان يصدر عن فؤاد لوثر من أنفاس المودة والعطف تلك التى كانت أرق من

أنفاس العاشق فى الهجر . وأنفاس النسيم فى السحر . لله ما كان أرق هاتيك الانفاس وأغنى بها كلمات الرجل وما كان أصفاها واخلصها من شوائب الرياء والكلفة وأشبهها بالعذب الذلال تتفجر به الصخرة الملساء . وهل كانت كآبته واطراقه ويأسه مدة صباه الا بعض آثار التفكير والاتعاظ والعبرة مما يكون عادة فى القلوب الرقيقة والنفوس الجديدة الشعور الذكية الوجدان ؟ وهى حالة يصاب بها ذووا الرقة من الشعراء وقد اصيب بها الشاعر المسكين وليم كوبر . بل لقد بلغ من رقة لوثر وتواضعه أنه كان يحسبه الناظر غير المدقق رجلا ضعيفا هيابة . وعندى ان أكرم الشجاعة وأسماها . بل أشدها وأقواها . هى المنبعثة من فؤاد كله لين ورأفة .

وكم لنا فى كتاب لوثر المسمى «حديث المائدة» ذلك الذى جمعه أصحابه بعد وفاته من أقواله وكلماته من الآيات البينات الدالة على عظمة الرجل وفضله فمن ذلك ماأبداه عند وفاة حفيدة له من جلد فى رقة . وصبر فى حرقة وقوله انه استودع الصبية عند الله ولكنه لايملك مع ذلك وجدا عليها قد أوقد لوعته . وهاج غلته . وكمدا والتياعاً . وحنيناً ونزاعاً . ثم جعل وهو مشدوه «مدهوش» حائر ينظر فى أعقاب روحها الصاعدة الى الله قد غابت فى أثناء تلك العوالم المجهولة وراء حجب الموت — ينظر دهشاً حائرا وحسبكم ذلك دليلا على صدق الرجل واخلاصه وعلمه انه رغماً من اختلاف الملل وافتراق النحل فانا معشر الآدميين لانعلم شيئاً ولن نعلم

وكل مايدرك ازاء حادث الموت الذى اخترم حفيدته هو انها ستصبح عند الله وان الله ارأف بها وأرحم . وان خير الأمور له ان يسلم الأمر لله . فالاسلام دينه ومذهبه

ومن آيات عظمته انه أطل من نافذته مرة فى جوف الليل فقال فى نفسه «عجباً لهذه القبة الزرقاء وهذا الفلك الدوار وهذا السحاب الركام يالله ماأروع وما أجل . على أى دعامة تقوم هذه السماء ؟ لادعامة الا قوة الله سبحانه رفع السموات بغير عمد وأمطر من السماء ماء فاخرج به نباتاً وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها . ولما كان عائدا ذات يوم الى داره أعجبه رواء مغارس القمح فقال ماأبهج منظرها صفراء تميل فوق خضراء كأنها حقاق الذهب على قضبان الزبرجد . بركة تفطرت عنها أحشاء الأرض ونعمة سلتها يد الله من اغماد الثرى

ومن آياته أيضاً انه أبصر ذات مساء عصفورا قد خيم فى وكره على شجرة باحدى البساتين . فقال : عجباً لهذا العصفور ماراعه هول مافوقه من هذى السموات أن يطمئن فى عشه آمن السرب . ساكن القلب . مفوضاً أمره للخالق الذى مهد له فى جنابه ووطأ له فى كنفه . هذا وما زالت شذور المزاح تفصل نظام حكمه . وما برحت نكت الفكاهة تزين ديباجة كلمه . وكذلك من كان قلبه أمين النواحى رقيق الحواشى . غزير مادة الحنان والحب . وقدما كان الضحك الصريح عنوان الكرم والخير . وأمارة المروءة والبر . ثم أما ترون فى حبه الشديد للموسيقى جملة تفاصيل

هذه الأميال الكريمة . ويجمع تفاريق هذه النزعات العالية . وكم من معنى لطيف . يعيا به البيان . ووجدان شريف . يعجز عن تأديته اللسان . أداه الينا لسان مزماره . وباحت به مناطق أوتاره . وكان يقول ان الشياطين لتفر من نغماته وتفقد عندوجود ألحانه ونبراته . فلله أنت ايها البطل من جامع الضدين . ومؤلف النقيضين . بأس تسطو به على الجن وأبالستها . ورقة جذبت بلبك نحو الانغام ومطرباتها . والالحان ومرقصاتها لهما والله قطبان لروحك العظيمة . وبين هذين القطبين مجال لكل كريمة من الخصال . ومضطرب لكل شريفة من الخلال .

وأرى فى وجه لوثر عنواناً على خلقه . فهو وجه خشن الملامح تعرف فى نتوء عظامه ووعورة أركانه معانى البأس والقوة . والنشاط والهمة . وفى العينين حزن فى صبر ووجد فى سكينة . وكآبة لاتكيف ورقة لاتوصف وتلك أصل كل عاطفة رقيقة . ومنها يستفيد ذلك الوجه مايرى فيه من سيماء الشرف والنبل . وقد قلنا ان الضحك كان مغروساً فى طينة الرجل ولكن تلك الطينة كانت فوق ذلك مسقية بالدموع نهلا . وكأن فيها ينابيع الدمع وبحاره . وخلجه وأنهاره . وكان أساس حياته الحزن والجهد والاخلاص والجد . ولقد قال فى أخريات عمره بعد مظافره وانتصاراته له قد مل البقاء وسئم تكاليف الحياة . وان له عند الله أمنية هى أن يريحه من متاعب الوجود ويقبضه اليه . ومن عابه بكلمته هذه واعتدها عليه فقد أخطا ! وما أحسب الا أن لوثر كان رجلا كبيرا — كبير القلب

كبير العقل كبير النفس — رجلا من خيرة رجالنا وصفوتهم . ولا أراه إلا كالجبل الأشم أصم الصخور صلد الصفا وفى نقره وثغبانه الماء الزلال . العذب السلسال . وعلى جوانبه الرياض تبتسم نضارة . وترف بهجة وغضارة . إلى زهر وريحان . وفاكهة ألوان . وقصارى القول أنه بطل ونبي . ونتيج الطبيعة وسليل الحقيقة والجدير أن يحمد الله عليه هذه الاجيال . ومن سوف يدرج على هذه الارض من غابر الناس ويدب .

ثم إن مذهب لوثر تفرق شعباً فاكرم شعبه وأطيب فروعه ذلك الذى نبت فى انكلترا أعنى الملة البيوريتانية فاما فى جرمانيا ذاتها فان البروتستانية أخذت تضمحل حتى تحولت عن منزلة الاديان إلى مواطن الجدل والمخاصمة وزالت عن القلب إلى اللسان . وعن العقيدة إلى الحجة والبرهان . بل مازال بها الاضمحلال حتى صارت فولتيرية وانتهت إلى تلك المباحثات الجدلية التى كانت أيام الثورة الفرنسوية . أما فى بلادنا (بريطانيا) فقد أخذت البروتستانتية صورة أخرى هى البيوريتانية ثم غولى بالبيوريتانية حتى صارت الملة المسماة (البريزباتيريانية) وهى الكنيسة القومية لاهالى اسكوتلاندة . وهى ملة حق صريحة وعقيدة محضة صادقة مغرسها القلب وثمارها جمة فى انحاء العالم البريطانى . وحقيق بنا أن نذكر كلمة عن مؤسس هذه الملة الامام (نوكس) ذلك الشجاع النبيل . وقبل ذلك نذكر كلمة عن البيوريتانية ومعناها

البروتستانتية فى انكلترا ومنها نشأت البريزباتيريانية — مذهب القسيس نوكس

فى عام ١٥٢٥ رحل القسيس الانكليزى وليم تيندال إلى بلدة لوثر (وتنبرج) منجذباً اليها بشهرة ذلك البطل الكبير وخطورة مذهبه وكان القسيس تيندال شديد التدين والتقى ناقما على الكاثوليكية فرحب بمذهب لوثر أى ترحيب وكان قبل رحلته إلى جرمانيا بطويل قال لاحد القسوس الجدليين (ان يطل الله مدتى لاتركن راعى الغنم وهو اعلم بكتاب الله منك) . ولما ذهب إلى بلدة لوثر وجدها محط الرحال وملتقى الرجال قد ازدحمت بالقاصدين من كل صوب وحدب وجلهم من الطلبة . قد أخلصوا لله وتفانوا فى حبه فلم يكن لحالهم تلك مثيل الاحالة الصليبيين ولا لبلدة لوثر شبيهاً الا مدينة بيت المقدس . وكانوا إذا دنوا من البلدة هتفوا بحمد الله وصاحوا غبطة وسرورا . وهنا لك ترجم تيندال الانجيل وأرسل ستة آلاف نسخة منه إلى انكلترا . ولم يك هذا الكتاب قاصرا على ترجمة الانجيل بل كان بما ضمن من أقوال لوثر كأنه قطعة من الحركة اللوثرية فقابلته الكنيسة الانكليزية باشد المقت والانكار . وأمرت بعدد كبير من نسخه أن تحرق فاحرقت فى مدافن كنيسة سانت بول بعين الوزير ولزى . ولكن ذلك لم يمنع أرباب المذهب الجديد من تهريب العدد الوفير من تلك النسخ ومن الرسائل المهيجة التى كان يكتبها لوثر وأنصاره إلى الاقطار الانكليزية ونشرها بين طبقات القراء

من العمال والصناع والباعة . وكان المتولى لذلك جمعية اسمها (الاخوان النصارى) مؤلفة من بعض تجار لندن وأهلها مركزها لندن ولكن رسلها تنتشر فى سائر البقاع البريطانية . فوجدت هذه النسخ سبيلها إلى الجامعتين كامبرج واكسفورد حيث كانت النهضة العلمية قد فتحت عيون القرائح إلى المسائل الدينية وبعثت الطلبة على الاشتغال بالمناظرات الفقهية والالهية . وكانت كامبريج قد رميت بالزندقة وسرت منها العدوى الى اختها اكسفورد وكان من أمر ذلك الهياج الذى اعقب انتشار النسخ المذكورة ما الجا الوزير ولزى الى مؤاخذة الهائجين فزج عدة من قسوس اكسفورد فى السجن واحرقت كتبهم ولكن ولزى لم يتجاوز فى عقابهم ذلك الحد رغماً مما ملكهم من الذعر والفرق . وانما صرفته شؤون السياسه عن مسائل الدين

وكان لانتشار الانجيل بين سكان بريطانيا من التغير الاخلاقى ما لم يسبق له مثال فى تاريخ البشر . اذ أصبحت انكلترا امة كتاب — وهذا الكتاب هو الانجيل . نعم أصبح الانجيل كتاب كل انكليزى يتلى فى الكنائس وفى المساكن وحيثما وقعت كلماته قرعت آذانا لم تخلقها كثرة الاعادة ولا بلدها طول التكرار فحركت من النفوس ماحركت . وهزت من كل جنان أريحيته . وهاجت من كل قلب غيرته فى الله وصبوته . وحب الامة للانجيل راجع الى علة خلاف السبب الدينى . وذلك انه كاد يكون اول كتاب ادبى نظر فيه الشعب الانكليزى وتنزه في

رياضه وجناته . وجنى ازهاره وثمراته . ولم يك قبل ترجمة الانجيل لدى الانكليز من اسفار الادب الا ما كان كتبه «ويكليف» وكاد ان ينسى والا مانظمه الشاعر «تشوسار» وكان لايعرفه الا الاقلون . نعم لم يوجد قبل ترجمة الانجيل فى اللسان الانكليزى تاريخ قط ولا رواية ولا قصة ولا شعر الا منظومات تشوسار . فلا غرو ان اصبح الشعب الانكليزى يرهف الآذان لاستماع عبارات الانجيل فيجد ابهج مستمتع فيما بذلك الكتاب المقدس من الروايات والقصص واغانى الحرب وأناشيد الدعاء والتراجم والسير ومواعظ الرسل ومزاجر الانبياء . وحكايات الاسفار البرية والاخطار البحرية . وجولات القسوس فى بلاد الوثنية . وفى المناظرات الفلسفية وتصورات الكهنة . فقد كان اذ ذاك نهضتان — علمية احدثها ظهور دفائن العلوم القديمة اليونانية ودينية احدثها كشف خبايا الآيات العبرانية . والثانية أبعد اشواطاً وامد انفاساً . وأعمق جذوراً واطول اغراساً من حيث انها نهضة شملت الخاص والعام فى حين انحصار الاولى فى دوائر العلية المتأدبين وذلك انه لما لم يك فى طاقة الترجمة ان تنقل الى الانكليزية براعات اللسان اليونانى تركت عرائس ذلك اللسان مخبوءة فى خدورها فلم يستطع استجلاءها الا الواقفون على اسرار اليونانية وهم قليل . ولكن الآيات العبرانية كانت اسمح ما يكون قياداً فى عنان الترجمة حتى أصبحت فى ثوب الانكليزية مثلها فى حلتها العبرانية حسناً وبهاء . وبهجة ورواء . بل

اصبحت اشرف مالدينا من تحف اليراع الانكليزى واكرم نفائسه . واسلوبها ميزان الاساليب فى الانشاء ونظامها معيار النظم فى الكتابة . بل ان اثره فى نفوسهم ككتاب ادبى . واذا تذكرنا ماهو مبثوث فى عرض كلامنا العادى من كلمات كبار مؤلفينا — اعنى تلك الشذور التى تسربت الى احاديثنا من دواوين شاكسبير وملتون وصحائف دكنز وثكرى ادركنا كيف كان اللسان الانكليزى فى تلك الاوقات يأخذ من ترجمة الانجيل زخارفه وحليه .

وأعظم من اثر الانجيل فى الادب ولغة المحاورة اثره فى اخلاق القوم لقد كان الانجيل يفعل بالالباب اذ ذاك ماتفعله الآن الجرائد الدينية والمقالات والرسائل والمحاضرات والخطب والمواعظ . وكان من اثره انه بدل آراء الجمهور فيما يتعلق بمسائل الحياة واحوال الانسان . وبعث فى جسم كل طبقة من طبقات الأمة روحاً جديدة أخلاقية وأخرى دينية . ونفض الدين صبغته على الكتابة فما من رسالة تصدر الا وبها عرق زاخر بالورع والتقى وهكذا خلفت الكتابات الدينية فى ذاك الوقت ما كان يشغل العصر السابق من مترجمات الآداب الطليانية واللاتينية . وقد قال جروشاس وذكر انكلترا « أصبحت السيادة فيها للدين » وقصارى القول ان البلاد أمست وهى كنيسة كبيرة . ومسئلة الموت وما وراء الموت تلك المعضلة التى اعتاصت على ذوى الألباب وأولى النهى فى عصر شاكسبير فما عرفوا لها حلا عادت الآن نصب عين الفلاح والتاجر يطالب نفسه

بحلها . ولم تك البيوريتانية فى أول أمرها تقشفاً وتعصباً . ولم تتعد الى ملاهى أربابها وملاذهم فتلغيها وتبطلها وانما كان البيوريتانى فى أول الأمر كما قيل

فلله منى جانب لا أضيعه وللهو منى والخلاعة جانب

فمن أدلة ذلك ان احدى السيدات لما صورت زوجها القائد هاتشنسون وكان بيوريتانيا وجهت جل عنايتها الى ابراز جماله كما كان أيام صباه ولو كان أمر التقشف والورع أمكن فى نفوسهم اذ ذاك من أمر الزخرف والزينة لكان لها مندوحة عن فعلها ذاك . ولكن السيدة مالت الى ابداء ثغره الوضاح . كاللآلىء النسق والاقاح . وجبين كأنه المصباح . او فلق الاصباح . ولمة . حالكة مدلهمة . فهى كما قيل

وجاء بها ثور ترف كأنها سلاسل برق لينها وانسكابها

هذا وقد كان السيد المذكور مع حسن تدينه وصحة تقواه مولعاً بالصيد والقنص . مغرماً بالمسابقة والرقص . كلفا بالفنون الجميلة . ماتزال تستخفه قصيدة . وتستفزه صورة . وتستبيه نغمة . وتطبيه دمية . وكان ربما نزل بستانه فسقى وعل . وغرس واستأصل . وأصلح وشذب . ونقح وهذب .

وكان البيوريتانى بعد عزوفاً عن الفحشاء والمنكر . قد صرف صبواته عن الحرام الى الحلال . وعدل بصباباته عن مراتع الوخامة والوبال الى مقامات الشرف والكمال . فكان أبا رحيما . وخلا حميما . وزوجا

شفيقاً . وأخا رفيقاً . ولم يك قط فى فتنة النساء مايحرك شهوته بل كان غضيض الجفن عن كل مايريب شامس العطف عن المغريات تجده الفتنة بأصعب مرام وأوعر ملتمس . عفيف النفس عفيف الطرف . طيب معقد الازار . يقف من النساء عند محاسن الحديث والسمر . ويقنع منهن بشهوة السمع دون البصر .

وكان البيوريتانى حسن القصد فى أموره قليل السرف يباكر شؤنه والبركة فى البكور . لاونية عنده ولا فتور . مشمرا من ذيله . منكمشاً فى عمله . وكان أحسن ماوفق اليه من المحامد فضيلة المساواة وذلك ان أخاءهم فى الله انساهم ماكان قبل راسخاً فى نفوسهم من تفاوت الدرجات . وتفاضل المقامات . حتى كان أحقر فلاح يعتقد أن الله قد شرفه وقدسه . وحتى صار أكبر الوجوه والأعيان يوقر مساكين الأبرار . وصعاليك الأتقياء الأخيار ولكن افراطهم ذلك فى حب الفضيلة والتقى وان عاد بالقوة على أخلاقهم فانه ضيق دائرة رحمتهم وفهمهم . وقد ظهر أثر ذلك فى الشاعر الكبير البيوريتانى ملتون — فى احتشامه وانقباضه واحتقاره لآراء الغوغاء «كما كان يسميهم» وعزوفه عما يحيط به من أساليب الحياة الغليظة الخشنة . بل لقد كان على فرط حبه شاكسبير لايظهر ارتياحا الى مجون ذلك الشاعر الأكبر ومزاحه . وإذا كانت هذه حال ملتون وهو يعد سيد شعراء عصره وعصارة قومه . فكيف كانت الحال مع من هم أقل أدبا وعلما . وأجمد قريحة وأكثف فهما . نعم لقد آل ذلك التشدد فى التدين والافراط فى التورع

بهؤلاء القوم الى أجمد أساليب الحياة وأمرها واكرهها وأبعدها من الالفة وحسن العشرة. وأصبح البيوريتانى وليست الرابطة بينه وبين الغير هى رابطة الانسانية ولكن نسب التورع والتدين بين طائفة المتدينين المتورعين أصفياء الله وأوليائه. وكل من خرج عن دائرة هؤلاء الأبرار المصطفين فليس منهم ولا هم منه. وإنما هم منه ابرياء. وان نفور البيوريتانيين من المخالفين لمذهبهم هو السبب فيما نرى من الخلاف الشديد بين رقة قلوبهم وبين غلظة ماقد يأتون من وحشى الفعال. وهذا كروموبل تراه بينما قد أدمى حشاه موت ابنه حتى حرمه الغبطة والسرور بانتصاره الباهر فى واقعة «بطحاء مارستون» فعاد من المعترك فائزا كخائب وظافرا كمنهزم — تراه مع ذلك يهش ويبش لدن يوقع امضاءه على الأمر الصادر باعدام الملك «شارل الأول» وما ذلك الا لاعتقاده ان ذلك الأمير المنكود الحظ من المعشر الضالين وليس هو لغلظ فى كبده او فظاظة فى طبعه. وكان من أثر تفانيهم فى الله ان ماتت فيهم فضيلة التسامح والتساهل حتى فى أصغر الأشياء. وهكذا تحولت حقائر الأمور فى حرارة التدين ووهج الغيرة جسائم وعظائم وأصبح أحدهم يؤلمه من رؤية فطيرة العيد أو كعكته مايؤلمه من رؤية الخبائث والمفاسق. وباتت الحياة وهى عبء من الاعباء وسخرة خالية من اللذة وكلفة قفر من البهجة وقام بدل مباهج العهد اليصاباتى ومفارحه ومآنسه وممارحه مرارة البيوريتانية وجدها. وعبوسها واربدادها.

ولقد كان البيوريتانى مصابا فوق كل ذلك بمخافة عذاب النار وهول القيامة . ويقضى الكثير من وقته نهب هاتيك الوساوس . وتلك الهواجس . وكان فى شدة حرصهم على الورع والتقى مايخيل اليهم أن حياة الناس العادية نوع من الاثم والخطيئة . ولقد قال أحد كبار البيوريتانية أو ليفار كروموبل «لشد ماغويت وضللت أيام الشباب» وما أدراك ما هذا الضلال وما تلك الغواية . هى أنه كان يباشر الطيب الحلال من ملاهى الشباب ولذاته . ويعوزه ركانة حلم الكهل ورزانة عقل الشيخ ولا بأس على الشاب فى أن لايكون كذلك . ثم انظر الى جون بانيان صاحب الكتاب الجليل «سيرة الحاج» كيف حدث عن نفسه فقال «لما كنت صبيا فى التاسعة من عمرى كانت تحضرنى خواطر الموت وهواجس النار والحشر والجنة وما أشبه ذلك فكانت مبعث رعب لى ومثار قلق وكرب تعترينى أثناء لعبى مع الصبية عظة من الله ومزجرة ولكنى كنت اهملها وآبى الا اقامة على ذنوبى ومآثمى.» افتدرى ماهى تلك الذنوب التى أبى الا الاقامة عليها ؟ هى نوع من لعب الأطفال وصنف من الرقص فاما عيبه الحقيقى وهو الاكثار من الحلف فقد كان أقلع عنه عملا بنصيحة عجوز رأت منه ذلك فانكرته وكان له ولوع شديد بسماع الاجراس تقرع وكان يحسب ذلك مأثما فكان لايزال يذهب الى موضع تلك الاجراس من الكنيسة فيقف تحتها وهى تقرع حتى يخيل اليه ان الله سيرميه باحدها فيفر هاربا . وانصرف حينا عن

الرقص والالعاب ثم عاد اليها وفى ذلك يقول «لقد صرفتنى عظة رجل من القسوس عن الالعاب ثم مالبثت ان استهوتنى بلذاتها فانى ذات يوم لالاعب قطتى وقد لطمتها لطمة وهممت أن ألطمها الثانية واذا بصوت من السماء قد نفذ الى صميم قلبى وكأنما يقول: ايهما تفضل وتختار ترك الذنوب ونعيم الجنة أم الاقامة عليها وعذاب النار؟: فاصابتنى لذلك دهشة وأطلقت القطة ورفعت طرفى الى السماء. وكأنما رأيت بعينى ذهنى السيد المسيح ينظر الى كالغاضب على وكأنه يتهددنى بعقوبة صارمة ان أنا لم أقلع عن تلك الذنوب والآثام»

كذلك كانت البيوريتانية مزيجا من النقص والفضل: وخليطا من السخف والنبل. ولنا أن نذم من تلك الملة عيوبها ماشئنا ولكنه لا يسعنا مع ذلك الا الاعتراف بأنه لا يزال فيها ولن يزال جوهر من الحق. وهى بعد غرس غرسته الطبيعة وما أن تزال تتفقده فهو ينمو ثم ينمو. وطالما قلت أن الحياة معترك فما فاز فيها وظفر فهو حق وما خاب وانهزم فهو باطل فالقوة مقياس الفضل. خذ مثلا عظمة امريكا الحالية وانظر ماذا كان أصلها ومنشؤها. الله يعلم أن منشأها لم يك الافئة ضعيفة بيوريتانية من اهالى هولاندة أضربهم جور السلطان وشفهم ظلم الحكومة فخرجوا من ديارهم وهاجروا منذ قرنين الى امريكا فى تلك السفينة الصغيرة المسماة زهرة الربيع! ولو كان لنا خيال اليونان وشاعريتهم لقلنا فى ذلك الحادث القصيد المحبر ولكن حسبنا أن الطبيعة كتبت فى الحادث

المذ ور قصيدتها الغراء بحروف الحقائق الناصعة على صفحة العالم .
ولقد كان باميركا قبل تلك الفئة البيوريتانية جماعة من النزلاء مبعثرون هنا وهناك ولكنهم لم يكونوا الا كجسم ميت فلما نزلت تلك الفئة فيهم كانت كأنها الروح دبت فى الجثة الهامدةفاحيتها . نعم لقد ضاقت بهؤلاء القوم بلادهم فعزموا على انتجاع امريكا . وما ادراك ماذا كانت اميركا اذ ذاك غابات خضر وآجام سود مسدودة عذراء لم تفترعها قدم ولا فتحت اغلاقها يدان . مستبهمة المعالم طامسة الاعلام . وامم همج وحشية ولكن هذا كله أخف وطأة من الحكومات الظالمة . والملوك الغاشمة وقد علموا أنه مهما يكن من صعوبة جانب الطبيعة هنالك فان فى الرياضة ما يذلل انفها . ويلين عطفها . ويستغزر درها . ويستدر خيرها . وانهم سيجدون من الأرض وطاء . ومن السماء غطاء . ثم تطمئن بهم النوى ويستقرون فى حيث تنام عنهم الحادثات وتلهو صروف الدهر . فيقضون اعمارهم بالعبادةوالتقى ويتزودون من دنياهم لآخرتهم . ولما صحت منهم النيات على ذلك وصدقت العزائم اخذوا عددهم وشحنوا امتعتهم واستأجروا مركباً — السفينة الصغيرة المسماة زهرة الربيع — واستقبلوا بها عباب اليم .

ولما نزلوا السفينة اقاموا بها شعائر الوداع والتشييع على صورة دينية ولاغرو فقد كان عملهم هذا دينياً — وان تشأ فقل ضربا من الصلاة والعبادة . فصحبهم قسيسهم الى جوف السفينة وشيعهم كذلك اخوانهم

الباقون بعدهم . وابتهلوا جميعا الى رازق النسر فى السماء والحوت فى بطن الماء . أن ينظر اليهم بعين عنايته . ويسقيهم من صوب نعمته ويظلهم بجناح رعايته . ويكون لهم فى بلاد الغربة . وديار الوحشة . حرزاً منيعاً . وروضاً مريعاً . وكنادفيئاً . ووثاراً وطيئاً . نعم لقد كان لهذه الفئة البيوريتانية شأن كبير وقد جعل الله على ايديهم نفاذ أمر من أجل اموره . وان كان قدرهم اذ ذاك لم يك الا صغيراً فاول النار شرر . وأول الغيث قطر . وكل شيء حق فمهما ضؤل وضعف فسيريكه الدهر يوماً ماضخما جسيما .

مثل الهلال بدا فلم يبرح به   صوغ الليالى فيه حتى أقمرا

والبيوريتانية وان سخر منها الناس سلفاً فلا يستطيعون أن يسخروا منها الآن وكيف وقد أخذت عددها ولبست سلاحها وحملت الحذق واللباقة فى أصابعها العشر والبطش والقوة فى قوائمها الأربع . وأصبح فى وسعها نزف البحار . ونسف الجبال . وتسخير البخار . وتسيير الجوار المنشآت كالأعلام . فهى الآن من أشد قوى العالم !

ولست أرى فى تاريخ اسكوتلاندة عصراً جديراً بالذكر الا ذلك الذى حدثت فيه بيوريتانية «نوكس» وما ظنك ببلاد قفرة لاتغبها المشاحنات من أهلها والمشاغبات والفتن والمذابح — ناس فى أدنى حضيض الغلظة والسقوط أحسن بقليل من أهالى ايرلندة الحاليين — طوائف من جياع الأمراء والسادة أبى عليهم جهلهم وحماقتهم أن يعرفوا

كيف يتقاسمون فيما بينهم تلك الغنائم التى سلبوها جماعة فقرائهم وعمالهم. ولكنهم كالجمهوريات الكولومبية الحالية لايستطيعون أن يحدثوا تغيراً ماحتى يحدثوا معه ثورة عامة . ولا يجدون الى تبديل وزارة سبيلا الاشنق أفراد تلك الوزارة. أشجاعة هذه ؟ نعم ولكنها شجاعة متوحشين لا تمتاز عن شجاعة آبائنا الأول الوثنيين من سكان الشمال. أولئك الذين لانجد فى مآثرهم الوحشية ومساعيهم الدموية شيئاً يذكر. أجل لقد استمرت اسكوتلاندة جسما بلا روح حتى نفخ الله فيها من نهضة نوكس روحا . فاصبح كل فرد بها برا صالحا تقياً . وان تشأ فقل بطلا ورسولا نبياً .

ومما يقال فى مدح هذا الرجل أنه لم يطلب تلك المرتبة بحيلة . ولا بلغها بوسيلة . وإنما أتته من تلقاء نفسها وذلك بعد أن أوفى على عقد الأربعين وكان من أمره أنه عاش طول تلك المدة غامض الشأن فقضى أيام صباه فى المدارس ثم تخرج منها قسيساً واعتنق المذهب الجديد — مذهب لوثر وقد قنع من التداخل فى شؤون الغير بالاقبال على نفسه يصلح من شأنها ويحملها على المنهج القويم وكان يكتسب بالقاء الدروس فى الأسرات الكريمة . يشرح مبادىء مذهبه إذا سئل. ثابتاً على الحق يصدع به متى دعت الحال. غير حاسب أنه يستطيع أكثر من ذلك . وعلى هذه الصورة قضى أربعين من عمره . فلما كان ذات يوم وقد اشتد الحصار على جماعة الخوارج المصاحين وكان نوكس

بينهم وقد أخذ رئيسهم يخطبهم يربط نافر جاشهم ويفتل مرد عزائمهم . ويستنهض عاثر هممهم . قال فيما قال أنه لاباس أن يكون من القوم من يعمل عمله من عظة الناس ونشر المذهب . وإنه جدير بكل من وهبه الله قلباً حافظاً ولسانا ناطقاً أن يكد فى نشر الحق لسانه ويبح فى الارشاد إلى الصواب . وإن جون نوكس هو ذلكم الرجل ثم التفت إلى القوم فقال «أوليس هو كما وصفت . اذن فما قعوده عن الارشاد والنصيحة ؟» فوافقه الجمع على مقالته وقالوا أنه عمل غير صالح . فاضطر نوكس إلى الوقوف للكلام ولكنه ارتج عليه فلبث برهة صامتاً حائراً ثم أجهش بالبكاء وخرج من المجلس يعدو ودموعه على وجنتيه أشد عدواً

ومن ذلك الوقت فصاعداً ثار ثورته وأشعل المذهب البيوريتانى فى قلوب الناس اشعالا . حتى عادت الأمة الاسكوتلاندية أمة قسوس وعادت البلاد وكأنها كنسية . وبدأ الناس يحيون . واعتقادى أن كل ماجاء بعد ذلك من آداب اسكوتلاندة وأفكارها وصناعاتها أثر من آثار تلك النهضة بل أن من آثارها أيضاً ونتائجها أولئك الرجال الذين هم فخر الأمة الاسكوتلاندية: جيمس وات ودافيد (داود) هيوم ووالترسكوت وروبرت بارنز. وانى لأجد نوكس ومذهبه ينفثان قوتهما وسرهما فى قلب كل واحد من أولئك الأبطال وهاتيك العوارض . وارى انها ما كانت تكون قط لولا البيوريتانية . نعم لقد فاضت تلك الثورة الدينية الاسكوتلاندية بالخير العميم على جميع انحاء الدولة البريطانية . وذلك

انها شبت جمرة فى كنيسة ادنبرج «عاصمة اسكوتلاندة» فاذا هى قد صارت حريقاً اسرع فى كل جانب من جوانب بريطانيا . وبعد ان دارت رحى الجهاد خمسين عاما زف الله الى البلاد عروس الحرية متعة هنية . وهبة سنية . والفضل فى ذلك للذين جاهدوا لنا وكافحوا . ولم ينعموا بثمرة كدهم . ونعمنا بها دونهم . وما تلك بالقسمة العدل أن يصطلوا نار الجحيم ونستصبح نحن بنورها ونا كل جنى النحل وهم يكابدون لذع ابرها . وتلك حال هى كما قلت أشبه بحال الجيش الزاحف على قلعة محصورة تبادر مقدمته الخندق المحفور فتسدها بجثثها لكى يجوز الباقون على تلك الاجسام كأنها قنطرة فيفتحون القلعة ويملكونها فسبحان قاسم الحظوظ لهؤلاء النصر والظفر . ولاولئك الموت الأحمر وكم من رجل كنوكس وكرومويل كافحوا وجاهدوا . وقاسوا وكابدوا ولاقوا الشدة والبرحاء . والكرب والبلاء . بل اللوم والتفنيد . والهجو والتنديد قبل ان يسوق الله للبلاد الحرية ترفل فى الاوراق الرسمية . والمواد البرلمانية .

وانه لمن الفحش الجور ان تتناول الذرية عرض نوكس بالقدح والذم فيكون وهم كما قيل

جزى بنوه ابا الغيلان عن كبر ... وحسن فعل كما يجزى سنمار

وعيب وعار ان لاتزال الاجيال تستثير صدى ذلك البطل من لحده ثم تنصبه للمحاكمة كأنه بعض الجناة المجرمين ولاجرم له الا اليد البيضاء

والهمة القعساء . والصدق الصميم . والحسب الجسيم . والا انه كان يحمل تحت ضلوعه اشجع فؤاد فى الاقطار البريطانيـة وانه كان ولا مشاحة انبل ابناء جلدته وانجدهم . ولو كان متقاعس الهم متقاعد العزم للزم زاوية بيته كما فعل غيره . فلم تنتشل اسكوتلاندة من قبضة البـلاء وراح هو بعرض برىء الساحة املس الجانب . ولـكنه آثر المروءة مع لوم الناس على الدنيئة مع قلة اللوم . فاصبح وحده ذا الفضل العظيم على بلاده . والنعم الجليلة على العالم اجمع . فواعجباً ان يحمل ذلك البطل على ان يستغفر لنفسه من ذنب المروءة واثم المجد وان يسال اسكوتلاندة العفو لانه كان انفع لهـا من الآلاف المؤلفة ممن لم يذنبوا ذنبه فهم فى مأمن من مثل مايصاب به من اللوم وفى غـير حاجة الى مثل مايقدمه من الاعذار ! وهل فى العدل ان يحل ذلك برجل باع اللذة فى سوق الحق بالالم والراحة بالنصب والرفاهة بالشظف والقشف ونزل المعترك بلا درع ولا جنة وأهدف للسهام صدره . واحتمل فى الله النفى والاسر يسام العذاب الواناً ويعرض للرعود القواصف . والرياح العواصف . الى غير ذلك من ضروب المحن وصنوف البلاء . ولـكن ليقل الناس فيه مايقولون فليس والله يعنيه قولهم وهو يعلم من نفسه مالا يعلمون . وان كان يعنينا نحن ان ندفع الظلم عن رجل لانزال نرتع فى غرس يديه وان نقشع ضباب التهمة عن شمس حقيقته

وأرى ان اول شروطنا فى البطولة اعنى الاخـلاص ينطبق تمـاماً

على نوكس وليس احد ينكر انه مهما تكن عيوبه وعوراته فلقد كان من اشد الناس اخلاصا . وكيف وانما كان بالحق لاغيره يتشبث وذلك بفطرة فيه وغريزة . ثم يرى كل ماعدا الحق شبحاً باطلا فيدعه . ولما نفى اسيراً مع اصحابه الى سجون نهر اللوار بفرنسا بعد سقوط حصنهم اثر حصار طويل جاءهم أحد السجانين يوما بصورة مريم وسالهم أن يركعوا لها . فقال نوكس «أتزعم هذه أم المسيح ؟كلا ماهذه الاقطعة خشب عليها ألوان وصبغ ! وأولى بها أن تطفو على مياه هذا النهر . ثم تناولها فالقى بها فى اليم . ولم يكن مثل هذا المزح بالشىء الرخيص إذ ذاك . ولكن نوكس لايبالى فى سبيل الحق ماذا يبذل .

وكان يسلى صحبه فى النكراء . ويعزيهم فى المحنة السوداء . ويقول لهم سيظهر الله الحق مهما لج به الخفاء . والحق أبلج . والباطل لجلج . وأخو الباطل على الأيام مقهور . وصاحب الحق على كر العصور منصور . والحق سنة الديان والباطل مسلك الشيطان ولا بد من يوم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق فمثل هذا البطل ممن لاحياة له الا فى عنصر الحقيقة فهو يتشبث باعطافها كما ينشب الغريق فى أطراف الصخرة الركود وما أحسب إلا أن الله قد طبع فؤاد هذا البطل على غرار أفئدة الأنبياء فهو نبى القلب وان لم يكن نبى اللسان وما أصدق ما كتب «مورتون» على قبره حيث كتب «تحت هذه الصفائح رجل كان لايهاب وجه إنسان» وهو أشبه المحدثين بالأنبياء الاولين

من رسل بنى إسرائيل له مالهم من شدة التمسك بطريقته والتفانى فى الله وتضحية كل شىء فى تلك السبيل . وشدة الانحاء باللائمة على كل من شذ عن الصراط السوى والخطة المثلى . فياله من نبى عتيق فى ثياب قسيس محدث . وما ينبغى لنا الا أن نعده كذلك . ولا ناسف أنه كان كذلك .

وقد أنكر الناس سيرته مع الملكة مارى وغلظة خطابه لها وخشونة نصحه . هكذا يزعم الناس ولكن من قرأ تاريخ هذه الحوادث وجد الأمر على خلاف مايزعمون ولم ير لنصائح الرجل ومقالاته من الغلظة ماينسب اليها . بل إنى لاراها من اللين على قدر ما كانت تسمح به الحال إذ ذاك ! ولم يمثل نوكس امام الملكة ليعطيها ملق الحاشية وإنما لامر غير ذلك كان مثوله هنا لك . ومن قرأ محاوراته معها فلم ير فيها الا قحة سوقى لاميرة أخطأ وجه الحقيقة وأشوى مقتل الصواب . لانه كان من المستحيل إذ ذاك أن يجمع جامع بين التادب فى حضرة الاميرة وبين مصلحة الامة الاسكوتلاندية وشرفها . ومن كان همه حينئذ أن يحمى البلاد من أيدى الاجانب من أمراء فرنسا ويربأ بها عن أن تكون مدباً لمكايد أمثال «دى جيز» ومسرحا لمطامعهم ويعزف بدين الله عن مساقط الذلة ومواطىء الاقدام ومواطن الكذب والضلال فغير ملىء أن يتذرع بحلاوة الملق وعذوبة الاطراء إلى الحظوة لدى الاميرة والحال عندها . وما أصدق قول «مورتون» حيث يقول «لان تبكى النساء خير من أن تخضل اللحى بدموع الرجال» . وماذا كان نوكس يفعل

وقد رأى الاوطان . قد خانها الاعوان . ونام عنها الانصار وتواكل من أشرافها وتخاذل من عيونها وأعلامها من كان يرجى للكريهة ويدخر للجلى أكان يقعد عنها فيمن تقاعد ويخنس فيمن تقاعس ويتركها نهباً لايدى الحوادث وغرضاً لسهام الخطوب ؟ كلا ماهذه شيمة الرجال . ولا تلك سجية الابطال . وهذا أمر دونه خرط القتاد . وضرب الاجياد . وقالت له الاميرة مارى حين جاء ينصحها « من هذا الذى قد بلغ من جرأته أنه تكلف نصيحة وجوه هذه المملكة وأميرتها ؟ » فاجاب « سيدتى ! رجل من رعايا هذه المملكة وأبنائها . » جواب أصاب والله المفصل وقرطس الغرض !

نحن نلوم نوكس على عدم تسامحه . ولا أنكر أن التسامح محمود بشرط ان لا يتجاوز الصغائر الى الكبائر . والقشور الى الجواهر وانما التسامح الصادق هو العدل وامتلاك النفس عند الغضب وأن لايكون المرء لئيم القدرة . فاما التسامح مطلقا بلا حد فهذا من المنكر الذى من حق النبلاء أن يترفعوا عنه . وما أرسل الله المرشدين والهداة ليتسامحوا ولكن ليجاهدوا ويكافحوا ويهزموا ويقهروا . نحن لا نتسامح فى جرائم الكذب والسرقة والظلم اذ أصابتنا . وانما نخاطبها بقولنا « أنت أكذوبة وأنت سرقة وأنت ظلامة لايتسامح فيك ولا يتجاوز عنك ! وانما نحن فى هذا العالم لنخمد الاكاذيب ونقطع دابرها بطريقة صالحة ! ولست مشدداً النكير على طريقة استئصال .

الباطل وان شابها العيب . فحسبها ان بلغتنا الغرض من ازالة الشر ومحو الباطل . ومن هذه الوجهة اعنى من وجهة محو الضلال ولو بواسطة معيبة — بالواسطة التى لم يمكن غيرها — كان نوكس عديم التسامح

وما كان رجل اضطهد ونفى الى بلاد الغربة أسيراً سجينا ليكون فى معظم أوقاته الامر الطباع وعر الناحية ! ولست بقائل قط أن نوكس كان فى طبعه عذوبة وفى جانبه لين ودماثة ولا أنه كان سيء الخلق شرس الشيمة ولم يخل قلبه من عواطف الرحمة والبر والرأفة . هذا ولقد كان فى جرأته على الملكة باللوم وفى رجاحة وزنه عند اشراف اسكوتلاندة أولئك الذين كان لهم من الكبرياء والتيه الميزان الراجح — واستطاعته أن يقبض على زمام النفوذ فى تلك البلاد الوحشية العاتية زمنا طويلا — لقد كان فى كل ذلك دليل على أن الرجل لم يك حرج الصدر ضيق العطن وانما كان رجلا حمالا للعبء نهاضاً بالفادح من الأمر مضطلعاً بالباهظ من الخطب ولا يكون ذلك الالمن أوتى بسطة فى الحلم وفضلا فى الذكاء والعقل . وقد ينعون عليه تهديمه للكنائس كما لو كان ثورويا مخربا وانما أمره عكس ذلك لو انعمنا النظر ! وما هدم الزور والفساد وغسل القلوب من كل دنس ورجس نعم ولا كان ديدنه الثورة بل النظام التام . وانما كان من سوء حظه أن ألجىء الى الثورة فى سبيل امضاء عزمه . وما كان مثل هذا الرجل ليكون الا عدوا للثورة والفوضى . ولكن ماذا يصنع اذا لم يجد بدا من ركوب الفتنة لبلوغ

غرضه ؟ يركبها والرجل المضطر يركب الصعب وهوعالم بركوبه . هذا وانه كان على الحق . والحق هو النظام

ومن العجيب غير المنتظر أن نوكس هذا كان فيه مزح وفكاهة . وكان بصيراً بمواضع الضحك فى كل شىء . وصفحة تاريخه مخللة من سطور الفكاهة بما يلين من قسوة جدها ويحلى من مرارة وقارها . فلما تشاجر اثنان من القسرس بباب كنيسة « جلاسجو » على الاولية فى الدخول من ذا يتقدم صاحبه واشتد الخصام بينهما وعلا الضجيج وتخابطا بعصويهما كان لنوكس فى هذا المنظر مضحك فيه أى مضحك ضحك مع التهكم والازدراء والمرارة شىء من الرحمة والرثاء والعطف . — لاقهقهة وانما ابتسامة تملأ العينين اشراقا : ورجل رقيق الفؤاد . كثير الوداد . محب لبنى آدم . أخ للقوى وأخ للضعيف . صاحب للوضيع صاحب للشريف . وكان يتناول الكاس فى حان الخمار بمدينة ادنبرج — دليل والله على رقة طبعه ولطف شمائله . وانه لم يك كما يزعم الناس بالشرس النكد الجعد الاخلاق الجهم الطلعة المكفهر الجبين المتعصب الصخاب . كلا انه كان من اثبت الناس امراً وأرسخهم حالا . حازم بصير جلد صبور . طويل الاغضاء عن الأمر الذى لايفسد عليه امره فان عرضت مفسدات الشرف والدين قام لها على قدم . فهو كما قيل

صفوح اذا ما الذنب لم يعد حده   الى الوتر تباع قفا الوتر أرقم

وكما قيل

له سورة مكتنة فى سكينة كما كتن فى الغمد الجراز المهند

لقد جاهد هذا البطل فى الله حق جهاده وركب من عيشته متن صعبة عوصاء ينافح الأمراء. ويكافح الزعماء. بعزم لاتفل من حده الخطوب النوازل. وجنان ثابت على الهزاهز والزلازل.

ترى ساكن الأوصال باسط وجهه يريك الهوينا والامور تطير

كابد والله من حياته هول حروب ضرس. ووقائع حمس. ولكنه خرج منها كالصارم العضب يجول فى صفحتيه رونق الظفر. وفرند الفوز والنصر. وان كان بمضربيه فلول وثلم. وما زال الأمل حليفه حتى دخل معه قبره فلما جاءته سكرة الموت واعتقل لسانه. سألوه «هل عندك أمل؟» فرفع أصبعه يشير بها نحو السماء ثم فاض. له المجد والشرف وسقى عهده الغمام!

كلمة فى الختام عن مذهب نوكس — كان مذهبه سيادة الكنيسة على الحكومة ورئاسة القسوس على الملوك. أوبعبارة أخرى حاول أن يجعل على اسكوتلاندة حكومة دينية. وهذه فى نظر الناس جريمته. وحقا لقد حاول أن يسير الناس جميعا على كتاب الله ملوكا وسوقة وان يعلموا أن هذا قانونهم الذى ليس فوقه قانون. وشد ما ساءه اغتصاب جياع الأعيان أمتعة الكنيسة. وقد جعل يقول ان هذه ليست ملكا مدنيا وإنما ملك ديني. وحقها أن توقف علي منفعة الكنيسة — على

التعليم والمدارس والعبادة. فاجابه الوصى «موران» مستهزئا «هذه أحلام تقية» ذلك مذهب «نوكس» الذى سعى فى تحقيقه. وانه وإن يك أخفق فى بلوغ ذلك ولكنه لم يخفق فى احياء الدين وبعث الأمة من طول رقادها مبعثا كان أصل رقيها ونهضتها. ومجدها وعظمتها. وكيف ينعى الناس عليه مذهبه — كيف ينكرون منه محاولته أن يجعل الحكومة لله وتلك مالا نزال نحاول ونرجو! وما جاءت الرسل والقسوس إلا لذلك. وقد أرادها «هلدبراند» وحاولها «كروميل» وبلغها «محمد» أولم تزل أمنية كل غيور مخلص وكل ولى تقى. وكل رسول نبي! ولا يسعنا الاشكر ذاك القسيس البطل الذى حاول جهده تحقيق هذه الأمنية. وأفنى فى طلبها أيامه بين الكدح والجد. والمعارضة والرد. والنصب والسهر. والحبس والاسر

المحاضرة الخامسة

البطل فى صـــورة كاتب

جونسون. روسو. بارنز الآلهة والأنبياء والشعراء والقسوس هى صور بطلية تتعلق بالأزمان الماضية. وتظهر فى العصور الخالية. وقد أصبح ظهور بعضها فى العالم ضرباً من المحال. فأما البطل الكاتب الذى سنتكلم عنه الآن فانه من نتائج هذه الأعصر الحديثة وسيدوم مادامت تلك الصناعة العجيبة — الكتابة — وهاتيك الحرفة الحديثة — الطباعة — وهذا الصنف من الأبطال بعد إحدى نوادر الدهر

أقول إنه صنف جديد من البطولة لم يكد يتم له فى الوجود مائة عام. ولم يك قبلها رجل كبير ليعيش ويرتزق بهذا الاسلوب العجيب — ينفث وحى ضميره فى صفحات الكتب ويطيرها فى انحاء الأرض باجنحة الأوراق فينال معاشاً ومنزلة بما يسخو له به أهل هذا العالم جزاء عمله ذاك. وما زالت السلع والبضائع تباع ولن تزال ولكن سلعة الحكمة والفلسفة ووحى ضمائر العظماء لم تعرض قبل ذلك فى الأسواق هذا العرض المبين. ويا له من منظر عجب — منظر الكاتب فى أسماله البالية وحجرته الخاوية. يسوس من وراء قبره بعد مماته من أمم العالم وأجيال الأرض من ضنوا عليه أثناء حياته بالقوت الضرورى. بلى عجب وربكم

وأى عجب! ولم أر فى ضروب البطولة وصنوف العظمة ماهو أدهش من ذلك

ووا أسفاه ان البطل مابرح من قديم الأزل يلبس للناس أزياء شتى وأشكالا مستغربة. وما برحت الدنيا تحار فى كنهه لغرابة منظره فلا تدرى ماذا تصنع به! ونحن ننكر من القدماء أن يحملهم فرط الاعجاب بالبطل على ان يعدوه الهاً أو نبياً. وأولى بالانكار أن يرسل الله لخلقه بطلا مثل جونسون أو روسو أو بارنز فتقتحمهم عيون الناس ولا يرونهم الا عجزة ومكاسيل لافضل لهم الا بضع كلمات أكثر مافيها انها ملهاة القوم ومدفعة لآناء السآم والملل ينبذ اليه فى ثمنها من الدراهم مقدار مسكة الرمق. أليس هذا أولى بالانكار والنقمة؟ ومنذ كان الفكر هو سائس المادة وجب علينا أن نجعل البطل الكاتب. امامنا وقائدنا وان لانقدم عليه مخلوقا مهما عظم. فهو روح العالم فى أى صورة برز وأى زى لبس. وما يقوله كان حتما على العالم تعلمه واعتقاده والسير على موجبه. وهيئة استقبال الدنيا اياه ومعاملتها له هى عنوان رفعتها أوضعتها — دليل سموها أو انحطاطها — مقياس قيمتها وفضلها. ونظرتنا فى سيرته نظرة فى لباب حياة تلك العصور التى هو ثمرتها والتى نعيش فيها نحن

والكاتب صنفان جيد وردىء شأن كل شىء فى هذا الوجود. فاذا دل بلفظة بطل على الجودة فوظيفة الكاتب البطل بيننا وظيفة كأشرف

مايكون وأعلى. فهو ينفث لنا ماأودع الله جوفه من وحيه — وهذا اكثر مايستطيع امرؤ أن يفعله. وهو قبضة من طينة الحق وحياته قطعة من فؤاد الطبيعة الأبدى. وكذلك حياة كل امرئ. ولكن الضعاف الاكثرين لايعلمون عن انفسهم ذلك ولايخلصون لتلك الحقيقة. والأقوياء الاقلون اقوياء أبطال مستمرون لأن هذه الحقيقة لاتبرح نصب اعينهم والكاتب البطل مرسل الى العالم ليفهمهم ذلك حسبما يستطيع. وهى عين الوظيفة التى كان القدماء يسمون صاحبها الها أو نبياً أو قسيساً. وهى التى ما ارسل بطل الى العالم الا لكى يؤديها

وقد القى الفيلسوف الالمانى «فيشتى» منذ اربعين عاما سلسلة خطب فى موضوع «طبيعة الرجل الكاتب» فقال مطابقة لمذهب الفلسفة الروحانية التى كان هو أحد اساتذتها: ان جميع مانبصر من الأشياء ولا سيما نحن وسائر الآدميين انما هى اثواب أو ظواهر حسية يكمن وراءها ويستتر تحتها «معنى الدنيا المقدس» وتلك هى الحقيقة المتوارية بحجب المظاهر. واغلب الناس فى عمى عن هذا المعنى وانما يعيشون بين الظواهر والقشور والماديات غير خاطر ببالهم ان تحت ذلك شيئاً مقدساً. ولكن الكاتب مبعوث من قبل الله ليرى ذلك لنفسه ثم يريناه. هذا كلام فيشتى ولا حاجة بنا الى معارضته. وإنما هو اسلوبه فى بيان ما انا باذل الجهد عبثا فى بيانه. وتسمية مالا استطيع ان اسميه وليس له حتى اللحظة اسم — اعنى الحقيقة الالهية التى كلها

رونق وعجب وروعة والكامنة فى كيان كل امرىء وكل شىء — وجود الاله الذى خلق كل امرىء وكل شىء . وقد علم محمد هذا الدرس باسلوبه ولقاه اودين باسلوبه . وهو الدرس الذى مازال كل ذى قلب حى يلقن الناس بهذه الطريقة أو تلك .

ولذلك يسمى «فيشتى» الكاتب نبياً أو قسيساً لايزال يجلو لأبصار العالم المعانى المقدسة . والكتاب كنيسة مستمرة تعلم الناس ان الله موجود . وان جميع الظواهر وكل مانراه فى الكون انما هى ثوب «لمعنى الدنيا المقدس» — ثوب «للسر الكامن تحت الظواهر» . فما من كاتب صادق الا وفيه سر الهى سواء اعترف بذلك الناس ام لم يعترفوا . فهو سراج يستضاء به وقسيس ينصح ويعظ . ويرشد الخلق ويهديهم على طريقهم المظلم . ومسلكهم المبهم . فى معامى الوقت وقفار الدهر كأنه عمود من النور . ويشدد فيشتى جداً فى التميز بين الكاتب الصادق الذى نسميه هنا الكاتب البطل وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الأبطال . فمن كان من الكتاب قد اشتمل ذلك «المعنى المقدس» على جميع نفسه أو اشتمل على ناحية منها ثم لم يحاول ان يدخل البقية فى طى ذلك المعنى فهو دعى وافاك ومزور بل هو لاشىء مهما اكتسى من رونق الابهة وفخامة الجاه والمنزلة . ومثل هذا غير حقيق ان ينعم بين الناس بالسعادة ويفوز بالهناء ! هذا رأى فيشتى فى الكاتب وهو فى اسلوبه عين مانرمى اليه نحن فى اسلوبنا .

ومن هذه الوجهة أرى أن أكبر الكتاب اثناء القرن السالف هو الألمانى الكبير «جيتا» فقد قدر الله لذلك الرجل ان يشتمل عليه «المعنى المقدس» ويوهب البصر النافذ الى اعماق السر المقدس . ولقد تبدو لنا الدنيا من خلال مؤلفاته عليها جلال الله ورونق القدس تشهد انها من صنع الخالق وانها هيكل الله . يحفها نور لين سماوى . ولست أرى هذه إلا نبوة فى عصور ساد فيها الكفر والالحاد وعملا من أجل أعمال تلك العصور وان كان من اسكنها واسكتها . ولولا علل عوائق لكان مثالنا على الكاتب البطل هو «جيتا» هذا . وما كنت الى شيء اشوق منى الى الخوض فى حديث بطولته . وموضوع عظمته . لانى اراه بطلا صادقاً . وعظيما جليلا . بطلا وعظيما فيما قال وفعل وربما كان أشد بطولة وعظمة فيما لم يقل ولم يفعل . وهو فى نظرى آية من آيات الله — وبطل عظيم قديم أشبه فى كلامه وصمته بنبي غابر فى ثياب أديب حديث يلبس أجد أزياء التهذيب والمدنية وما رأينا منذ مائة وخمسين عاماً منظراً كهذا

ولكن ضلة الجيل الحاضر فى أمر هذا البطل وجهلهم بحقيقته . وسوء قدرهم لقيمته . يجعل التعرض لتقديسه واجلاله ضرباً من العبث الباطل . ومهما أقل فيه فسيبقى لمعظمكم لغزاً من الألغاز . ولن تدركوا من أمره الا خلاف الواقع . وانما أمره دفينة سيثيرها المستقبل . وحسب الساعة الحاضرة أن توقف على ثلاثة من أكبر أبطال القرن

السالف: جونسون وبارنز وروسو. ثلاثة كانوا من الفقر وسوء الحال بعكس مافيه «جيتا» اليوم من الرفه والنعمة. هؤلاء لم يظفروا ظفر جيتا ولكنهم حاربوا فصرعوا. ولم يكونوا من جالبي الضياء وانما من طالبيه ولقد كانوا من عيشهم فى أبرح برح. وآلم قرح. كأنما يعانون من ايامهم سلاسل وأغلالا. ويحملون من فوادح دهرهم هضابا وجبالا: فلا بدع ان تعذر عليهم ان يبرزوا من كوامن أفكارهم كل خفية. أو يستقصوا الغاية بكشف الغامض من ذلك «المعنى المقدس» والذى أعرضه الآن عليكم من هؤلاء الأبطال هو قبورهم فانها الكثبان الأثرية التى يثوى تحتها ثلاثة من أضخم جبابرة القلم. مشهد محزن ولكنه لذيذ ممتع. فقفوا بنا على تلك القبور مليا.

كثرت الشكوى الآن مما يسمونه اختلال نظام المجتمع وكيف ان كثيراً من العوامل الاجتماعية تسىء اداء وظائفها. وكيف ان كثيرا من القوى العمرانية الشديدة تكدح فى غير مكدح وتكد فى غير مكد. وتلك شكوى لاشك فى صحتها. ولكن من نظر فى جهة الكتاب والكتب وجدها أشد الجميع اختلالا وفسادا بل أصل كل اختلال وفساد — وجدها كأنها قلب يصدر عنه ويرجع اليه كل اختلاط وتشوش فى العالم! ولست أرى حالا أنكر من سوء مايجزى به الكتاب على جليل مايسدونه الى الملأ. ولو غمسنا العلم فى هذا المبحث غمسناه فى بحر لاقرار له ولكن لابد لنا أن نمس شاطىء الموضوع اذ كنا غير خائضين

عبابه اتماماً للفائدة . وأسوأ ما كان من أمر هؤلاء الثلاثة الكتاب أنهم وجدوا عملهم فى هذه الحياة ومركزهم ضرباً من الفوضى . والسائح اذا صادف طريقاً مذللا ومنهجاً واضحاً مضى فى سننه وأمعن فى قصده . فاذا أصاب عقبة لاتقتحم وسدا لايفتح فجعل يطعن فيه يبغى نفاذا فأحر به أن يظل من عمله هذا فى مصاب جلل وأوشك أن تمر به فريسة بين مخالب الهلاك !

أدرك آباؤنا ماهنالك من الفائدة العظمى فى خطاب الرجل للرجال وعظة المرء لاخوانه فأسسوا الكنائس والمساجد لذلك الغرض . فما من بقعة فى العالم المتمدين الا بها منبر يستطيع منه الرجل أن يعظ باللسان اخوانه فى الله وكانوا يرون ذلك من أهم الامور وانه لاخير فى الحياة من دونه . ولله ما كان أتقاه عملا وأجمله مشهدا ! فأما الآن وقد ظهرت صناعة الكتابة والطباعة فقد طرأ تغيير كلى على ذلك الامر . أوليس الكاتب الذى يضع كتاباً خطيباً ليست خطبته قاصرة على هذه البلدة أو تلك رهينة بذلك اليوم أوذاك ولكنها خطبة لكل انسان فى كل زمان ومكان ؟ وحقاً انه من يخطىء فى عمله فأوجب الواجبات على كاتب الكتاب أن يتوخى الصواب والسداد

والخطب العظيم والطامة الكبرى أن الناس لايحفلون البتة أصاب كتاب الكتب أم اخطأوا — وجد كتاب الكتب أم فقدوا . نعم قد يكون للكاتب شىء من الأهمية عند طابع الكتب الذى يرجو أن يربح

مبلغا من وراء مؤلفه . فاما عند خلافه فلا . كلا ولا يعبا الناس من اين جاء ذلك الكاتب وأين يذهب وكيف وصل وكيف يمكن أن تسهل له طرق التقدم والاستمرار . وإنما يراه المجتمع كأنما هو إحدى الشواذ فيتركونه يهيم كالذى لايدرى أين هو

أنا فى أمة تداركها اللـــه غريب كصالح فى ثمود

وصناعة الكتابة لاشك أكثر الفنون اعجازا وأعجب ماأبدع الانسان و «حروف» أودين كانت أول عمل أتاه أول أبطال العالم . وليست الكتب فى هذه الأوقات الا من قبيل «حروف» أودين والكتب حرسكم الله مستودع حكمة الغابرين وفيها تتجلى لنا أرواح العصور الماضية . والحقب الخالية . بعد أن فنيت أجساما . وأصبحت أوهاما وأحلاما . ولا ننكر أن الجيش اللهام . والاسطول الضخم الجسام . والمرافىء والثغور . والمدائن والقصور . أشياء رائعة جليلة . ولكن ماذا مآلها وأين مصيرها ؟ . وإذا سالت اليوم عن أغاممنون وبيركليس ويونانهم رأيتها عهودا تبكى وتذكر بعد أن كانت مشاهد تروع وتسر . ولم تنل عينك منها الا دمنا عافيات . وطلولا دارسات ورسوما داثرات . ومعاهد خربات . كأنها صحف باليات تنشرها أيدى السحب السواكب . وتطويها اكف الرياح الغرائب . اذا نقشتها أقلام الهاطلات مسحتها أنامل السافيات

لأيدى البلى فيها سطور مبينة عبارتها أن كل بيت سيهجر

ولكن ماذا كان من أمر مؤلفات اليونان ؟ هى اليوم عينها بالأمس. لم يغيرها الزمان . ولم ينكرها الحدثان . ولا أبلتها العصور . ولا اخلقتها الدهور. هذا وقد خلد الله اليونان بين أوراقها وصحفها . وأحياها فى سطورها وحروفها . فكأنها لم تمت وإنما طوتها من تلك الكتب صناديق وخزائن . وأصبحت فى تلك الاسفار ودائع ودفائن . والكتاب رعاكم الله فؤاد العالم يعى كل ماطرأ عليه من حوادث وآثار . وخواطر وأفكار . ووجدانات ومشاعر وفعال ومآثر . ومشاهد ومناظر .فنعم تراث الأوائل للاواخر . وتحفة الغابر للحاضر !

أو ما زالت الكتب تأتى بالمعجزات كالتى زعموا أن «حروف أودين» كانت تاتيها ؟ بلى حسبها أن فيها للناس دوافع ومحركات . وبواعث ومحرضات . ولن تعدم أحقر قصة وأسخفها أثرها الحميد فى قارئاتها ذوات الخرق والحمق من بنات الريف تفيدها بعد الزواج فى ترتيب بيتها وتنظيمه . ثم انظروا ماالذى شاد كنيسة سانت بول . هو كتاب التوراة الذى هو كلمة الرجل موسى الخارجى الطريد راعى الغنم فى صحارى الطور نعم لقد أقامت الكتابة فى العالم دولة المعجزات . وضمت الماضى والحاضر باوثق العقد وأوكد الصلاة . ولاصقت بين الشرق والغرب وصاقبت بين القطب والقطب . وجمعت بين طنجة وبكين فى قرن . وألفت بين نوح ونابليون فى زمن . وغيرت للناس وجوه الأمور وصور الاعمال . وجددت شانا بعد شان . وحالا بعد حال .

فانظروا مثلا إلى التعليم وما احدثت فيه الكتب من الاثر الجميل . وحسن التغيير والتبديل . لقد كانت الجامعات قبل الكتب هى الطريقة الوحيدة لاقتناء العلوم واكتساب المعارف . نشأت الجامعة حين لا كتب تذيع وتنشر وحين كان الرجل يريد الكتاب فيبذر الضياع والعقد . وكان ذو العلم اذا اراد أن يعطى من علمه لم يجد بدامن جمع الطلاب حوله فيلقيهم العلم فمًا لفم فاذا كنت فى ذلك الوقت فاحببت أن تعرف من العلم مايعرفه « ابلادرد » لم يكن أمامك الا أن تذهب الى « ابلادرد » . حتى لقد بلغ قصاد ابلارد وحجاجه نحوا من ثلاثين الفاً يحتشدون حوله ليستمعوا فلسفته واذ وجد بهذا المكان هذا العديد المجمهر من طلاب العلم رآها العلماء الآخرون فرصة يحسن اغتنامها فمن وجد فى نفسه الكفاءة لتدريس علم رأى ذلك المكان احق الامكنة بأن يذهب اليه فيعرض فى سوقه سلعة علمه وهكذا كلما زاد فيه عددالمدرسين زاد عليه الاقبال من الطلاب والمعلمين معا . وبعد ذلك اصبح المكان لا يحتاج الا الى التفات السلطان اليه ليجمع تلك المدارس المتعددة فى مدرسة واحدة ثم يمنحها المبانى والميز والمنح ويسميها جامعة . وهذا هو فى نظرى منشأ الجامعات .

ولكن انتشار الكتب وسهولة اجتلابها قلب الأمر قدماً لرأس . وذروة لأس . ومتى أوجدت الطباعة نسخت أمر الجامعات وعلوتها علوا مبيناً : اذ لا يصبح المعلم فى حاجة الى أن يجمع الطلاب حوله

ليسمعوا منه وما هو الا أن تطبع الكتاب حتى يتناوله من باقاصى الأرض غنيمة بلا عناء . ويرتشفه شربة بلا رشاء — هنيئاً مريئاً وهو متكىء على أريكته . مرتفق فوق وسادته . ليقلب فيه البصر . وينعم فى معانيه النظر ! ولا شك أن فى الخطبة لمزية خاصة . حتى لقد يحسن احياناً بكتاب الكتب أن يخطبوا طلابهم أيضاً . وحسبكم ما نحن فيه الآن ! وأرى أنه مادام للمرء لسان فسيبقى للخطابة فضل لا ينكر . وقيمة لاتحقر . ومنطقة للكلام . خلاف منطقة الاقلام . ولكن الحد الفاصل بين المنطقين لم يعين حتى اللحظة . ولم توجد بعد تلك الجامعة التى يفرض معها نفوذ قوة الكتب وتاثير سلطانها . ولا عرف بعد كيف تكون تلك الجامعة وما معالمها وحدودها . فاذا كنا مفكرين فى ذلك فمثل هذه الجامعة لن تكون الا كأقدم جامعة أعنى ان يكون من شأنها تعليم القراءة — القراءة فى مختلف اللغات والعلوم — اى تعليم مبادىء كل صنف من أصناف الكتب . ولكن ماخذ العلوم ومقتبسها هو الكتب أعينها ! ومبلغنا فى العلم متوقف بعد على مانقرأ بانفسنا مهما صنع لنا المعلمون . وأجاد المدرسون . نخرج من ذلك على ان خير جامعة فى هذه الأوقات هى مجموعة كتب .

وأما منجهة الكنيسة فالتغيير الحادث عليها من نشر الكتب تغيير تام والكنيسة هى جماعة القسوس والأنبياء ذوى الهداية والارشادمن يهدون بعظاتهم عباد الله الصراط المستقيم . وقد كان اللسان يوم

لا كتابة ولا طباعة هو الاداة الوحيدة لبث النور والهدى . فاما وقد ذاعت الكتب فقد أصبح كل كاتب يلين من قلوب الناس ويأخذ بزمامها نحو الحق فذلك بطريق امته وامامها . وطالما قلت ان كتاب الجرائد والمجلات والرسائل والشعر والكتب هم فى الحقيقه الكنيسة العاملة الفعالة فى الامم الحاضرة . وليست الكتب خطباً لنا فقط بل هى أيضاً ضرب من ضروب العبادة وبعضها تكون قراءته أحسن صلاة لله وتسبيح . أو ليس المعنى الشريف يزفه اليك البليغ فى رونق اللفظ المصقول يختال من صفاء السبك واشراق الديباجة فى أكرم حلة وابهج خلعة فيمتزج باجزاء النفس ويجرى مع الروح حتى

يظل سامعه لدنا مفاصله　　كأنما فترت أوصاله الكاس

يفعل بالنفس ماتفعله العبادة ؟ ولعل الكثيرين لايعرفون فى هذه الأوقات الفاسدة من أساليب العبادة الا هذا الأسلوب . والشاعر الذى يريك من جمال الزهرة ما كان قبل غائباً عنك أليس كأنه أطلعك على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته وشعبة من ينبوع الجمال الالهى الشامل وعلى سطر خطه القلم العلوى فى صحيفة الكون فبدأ مبيناً ناصعاً جلياً ساطعاً . وكأنما غنى لنا نشيداً قدسياً فصدحنا معا وإذا كان هذا شان من يصف زهرة الروض فكيف الذى يتغنى لنا بمكارم أولى العزم ومآثرهم . ومناقب ذوى الفضل ومفاخرهم . مثل هذا كأنما يمس اكبادنا بجذوة من مجامر المحراب . ولعلها أشرف طرق العبادة .

وما الادب الا كشف وجلاء لاسرار بدائع الله أو مايسمونه «السر الجلى» وقد عرف الادب «فيشتى» بأنه البيان المستمر لما يكمن من أسرار الله فى الاشياء الارضية العادية . فان أسرار الله مابرحت كائنة فى كل شىء وما برحت تصادف من هذا الكاتب وذاك من يبرزها فى هذه الصورة أو تلك فى مقادير مختلفة من الوضوح ودرجات متفاضلة من البيان كل حسب ماوهبه الله من الفضل . هذا هو الذى مازال ذوو المواهب اللدنية من الشعراء والكتاب والخطباء والمتكلمين يصنعونه عمداً وعفواً . حتى لقد تجد أن شعر بيرون لايخلو من تلك الاسرار برغم ماقد امتلأ به من زوابع الحنق وصواعق القذف والانتقام ومعاسف الغل والحقد والضغينة على بنى البشر . وهى (الاسرار) أيضاً كائنة فى متواضع شعر بارنز ذلك الفلاح الذى كان يختلس القوافى من خلال حركات الفاس والمحراث — صاحب القصائد التى كأنها أغاريد القنبرة صاعدة من أديم التراب . إلى أعلى ذوائب السحاب . والحقيقة أن كل غناء صادق هو عبادة كما أن كل شغل صادق هو أيضاً عبادة . وما الغناء الصادق لو نظرت الاصفة للشغل الجيد الحر وتمثيل موسيقى مطرب ومن أنعم النظر رأى هنالك قطعاً جمة من الاناشيد الكنيسية . والصلوات الدينية . طافية على مياه ذلك البحر الخضم الذى يسمونه بحر الادب ! فالكتب أيضاً كنيستنا .

ننتقل الآن إلى تاثير الادب فى الحكومة . لقد كان البرلمان قوة

عظمى تبرم أمور الرعية وتنقض . وتعقد شؤون الامة وتحل . وتصرف أعنة البلاد وتدبر . وتقطع أحكامها وتقرر . بعد طول الروية والنظر وادمان التامل والفكر . واطالة المناقشة والمحاورة وادامة المجادلة والمناظرة ولكن انظروا الآن أما ترون أن عمل البرلمان هذا يعمل الآن خارج البرلمان فى طول البلاد وعرضها بواسطة المطبوعات من جرائد ومجلات . ورسائل ومؤلفات . وان كان البرلمان لما يزل باقياً . ولقد قال بيرك أن البرلمان ثلاثة أركان ولكن بمجلس مخبرى الجرائد ركناً رابعاً أهم من تلك الاركان الثلاثة ولم تك كلمة هذه بالمجاز والاستعارة ولكنها عين الحقيقة . وقد أصبحت خطارتها اليوم أجسم منها يوم قالها بيرك . فالادب هو برلماننا أيضاً . والديموقراطية أيدكم الله رهن الطباعة التى هى من نتائج الكتابة . وماهو الا أن تخترع الكتابة حتى تنبع الديموقراطية . فالكتابة تنتج الطباعة — الطباعة العامة اليومية كما نرى اليوم فيصبح كل ذى لسان بوقا يسمع الشعب وقوة وفرعا من أفرع الحكومة راجح الميزان عند وضع الشرائع والقوانين . وجميع تصاريف السلطة . ولا ينظر اليه من أى طبقة هو وماذا يملك وماذا يلبس . وانما الامر الجوهرى هو أصاحب لسان . وأخو بيان . فيصغى اليه ويقبل عليه . هذا لاغيره الأمر الأساسى فالأمة محكومة بكل ذى لسان من أبنائها . وهناك الديموقراطية ولا مشاحة . ضف الي ذلك أنه مامن قوة موجودة فى الكون الا

وسيريكها الدهر يوماما فعالة معترفاً بسلطانها . فهى لاتزال تعمل فى خفاء وتكد تحت غطاء . تدافع العوائق والعوائق تدافعها وتصارع الموانع والموانع تصارعها . حتى يجلوها صبح اليقين من غياهب الشبهات . وتطلقها يد النصر من سلاسل العقبات . فتذهب فى شعاب الحق كل مذهب . وتضرب فى مناصى الاصلاح كل مضرب . ولا تستريح الديموقراطية حتى تبرز للعيان . ويصطلى شمسها كل انسان .

أوما يزال فى كل شىء دليل على أن خير مافى طاقة امرىء أن يصنع وأعجب الأشياء طرا وأثقلها فى النفوس وزناً . وأخفها على الاسماع حسناً . وألطفها فى النفوس مكاناً . وأقلها فى العقول رجحاناً . هو كتاب لله تلك الرقع الواهية المرقشة المتون بلمع المداد الأسود أى جليل من الأمر لم تات وأى شىء لم تصنع ولا تصنع ولن تصنع ! ولا غرو فهل كانت تلك الرقع مهما حقر ظاهرها الا أشرف نتائج الذهن البشرى ؟ هى فكر الانسان — الفضيلة الحرة التى بها يصنع كل شىء . وجميع مايفعل الانسان ويحدث انما هو ثوب فكرة . وجسم روحه رأى من آرائه فمدينة لندن هذه بجميع مابها من منازل ودور . وحال وقصور . وعدد وآلات . وكنائس وبيعات . وحركة وصخب . وجلبة ولجب . ماكل هذه إلا فكرة أو مليون فكرة ألف شملها نظام فصارت واحدة . ماهى الا روح فكرة جسيمة قد تجسدت فى الطوب والحديد والخشب والتراب والدخان والقصور والبرلمانات والمركبات والمصانع وسائر ماتنظر من الأشياء

وما من طوبة صنعت إلا وقد أعمل بعض الرجال فكرته كيف يصنعها وما نسميه قطعاً من الورق عليها لمع من الحبر إنما هو أطيب مظهر للفكر البشرى . فلا عجب أن يكون أنشطها وأكرمها

وقد طالما أقر الناس بفضل الكتاب وخطارة شأنهم فى العصور الحديثة واستعلائهم على الكنيسة والبرلمان والجامعات وغيرها ولكنه اقرار لم يشفعه عون ولا مساعدة . وعسى أن يكون قد آن للعواطف أن تخلى مكانها للامدادات المادية واذ كنا نقر ونعترف بان للكتاب على المجتمع النعم الغراء والمنن البيضاء . وانهم يحدون به فى سبيل القدم ويسمون به فى مراقى المدنية فما بالنا اذن نتركهم فى أسوأ حال من نكد الحياة وجحد العيش . من أمرهم فى حيرة عشواء . وضلالة عمياء . ويقينى أن كل شىء فيه فضيلة قوة خفية فسيحسر يوماً مالثامه ويميط قناعه ويسفر لنا ناصع الصورة . واضح الغرة . بين الاشارة جهير الصوت . فأما أن يلبس أناس زى الأدب والكتابة ويقبضون أجرها ويتضور من الجوع الكاتب الحقيقى صاحب الخير والمنفعة فما ذلك بعدل وانما جور وعسف . ولكن رد هذه المظلمة لن يكون واأسفاه إلا بعد الجهد الجهيد . والزمن المديد ! وكم دون ذلك من مشكلات ومعضلات الله وحده المعين على حلها .

فاذا سألتمونى ماهو أحسن نظام تجعل عليه حالة الكتاب فى العصور الحديثة وما هى خير طريقة لتنظيم شؤونهم واستمرارها تكون على تمام

مطابقة لمركزهم ولمركز المجتمع: استقلت من الاجابة على هـذا السؤال لقصور مبلغ عقلي عنه. وانها لمعضلة لو تتابعت عليها عدة عقول راجحة لما استطاعت لها حلا تقريبياً فكيف بعقل واحد؟ نعم ولا أحب ان احدا يقدر أن يقول ماهو احسن نظام لأمر الكتاب. فاما اذا سال سائل ماهو شر نظام واخبثه قلت هذا الذى هو كائن اليوم — هذا الخلط السائد والفوضى المستحكمة. وما ابعد مابيننا وبين نظام صالح طيب.

وثمت شيء لايفوتنى ذكره وهو ان هناك غير امر العطايا المالية أمر أهم وأعظم ألا وهو اجلال الكتاب وتقديسهم وهو امر كان معدوما فى القرن الثامن عشر — قرن الجحود والكفر. فاما هبة العطايا وترتيب الرسوم فهى على ضرورتها فى بعض الاحيان قلما تقربنا وحدها من النظام المطلوب لحالة الكتاب. وانى لاحد الذين اسامهم كثرة مايلغط به من سلطان المال وفضله على كل شيء. بل انى احد القائلين بانه لاضير على الحر ان يكون فقيرا. وانه يجب ان يكون من الفقر محك لاذهان الكتاب ومعيار لقيمهم وأقدارهم. وقد اوجدت الكنيسة النصرانية فرق الشحاذين من رجال ابرار قدرت لهم الشحذ والتسول ورأت الكنيسة ان ذلك من أسباب نشر روح الدين وتاييده. وهل اسست النصرانية نفسها الا على الفقر والحزن والاضطهاد والصلب وسائر أصناف الغم والمهانة؟ ولنا ان نقول ان من لم يعرف هذه الأشياء فيتعلم منها درسها الذي لاتقدر قيمته فقد فاته

من فرص التعليم أثمنها . ومن اسباب التقويم والتثقيف امتنها . ومن فوائد التربية والتهذيب أكرمها وأحسنها . ولم تكن الشحاذة والحفاء ولبس المسوح وشد الحبال فى الأوساط بالشىء الجميل او الجليل فى اعين الناس حتى جمله وشرفه مزاولة الكرام له . واتيان الجلة الاشراف اياه

وليس موضوع الشحاذة من اغراض هذا الكتاب ولكن من ذا الذى لايقول بان كاتباً كجونسون لم ينفعه الفقر وتفيده الفاقة ؟ ولقد كان مثله جديراً ان يعلم أن المال أو النجاح كيفما كان لم يكن الغرض الذى يسعى ليدركه . وكان مليا ان يعرف ان فؤاده لم يخل مما قد جبلت عليه سائر القلوب من الكبرياء وحب الذات بجميع شعبه وفروعه . وانه من اوجب الواجب اقتلاع هذه الاغراس اللئيمة من تربة النفس . ثم اذكروا ان بيرون مع غناه وشرف نسبه كان اقل فائدة وأصغر مأثرة من بارنز مع فقره وضعة نسبه . وما يدرينا أنه اذا وجد فى المستقبل البعيد ذلك النظام المنشود كان الفقر لايزال ركناً من أهم أركانه وكان الكتاب — أبطالنا الروحانيون — لايزالون طائفة من الشحاذين متاحالهم العوز والتكفف حتى يجنوا مافيهما من كرائم الثمرات وينتفعوا بهما انتفاع غيرهم باليسار والغنى ؟ ولا أنكر أن الطيب الكثير يبلغ بالمال . ولكن مايبلغ بالفقر أطيب وأكثر وانما علينا ان نعرف حد المال فنقف عنده ونعلم أن مازاد على ذلك فضول حقه الرد والرفض .

هذا ولو فرضنا وجود الامدادات المادية والرسوم المالية فانى لنا بمعرفة الكاتب الكبير الذى يستحقها ؟ انه لابد قد منع من أن يجوز الامتحان اللائق . وأرى ان الحياة الأدبية — تلك التى كلها فوضى يتلاطم موجها ويتصادم لجها . هى نوع من الامتحان . ومازالهناك عنصر من الحق فى قولهم ان الجهاد فى سبيل الصعود من وهاد الطبقات السفلى الى ذرى الطبقات العليا هو من الأمور التى لابد من بقائها لما يترتب عليها من استمرار رقى العالم . اذ أنه مازال يولد فى الطبقات السفلى من ينبغى أن يكون فى أرفع المنازل وأسمى الطبقات . ولكن كيف ينظم ذلك الجهاد ؟ هذه مسألة المسائل فاما أن يترك هذا الجهاد كما هو الآن رهناً بمحاسن الصدف . فكلما أفلح فيه كاتب من عصابة خاب الباقون . أو نجا واحد من ألف هلك فى الطريق بعد التسعمائة تسعة وتسعون . ويترك مثل بارنز يجود بروحه ولا يجود عليه إنسان بدرهم ومثل جونسون يزجى الوقت بين الثؤباء والمطواء فى حجرته ينطبق عليه قول القائل

تلوم على تبلدها قلوبا تلاقى فى معيشتها جهادا
اذا ماالنار لم تطعم وقودا فاوشك أن تمر بها رمادا

حتى إذا شرع يكتب راح وهو من دفعة العمل وعجلته مع البخس والوكس كأنه فى مضمار أو كأن يديه يدا عائم يكافح التيار . ويترك مثل روسو على جمر الاعسار والاحتقار يتململ ويقذف بشرر الكلم اللذاع فيؤجج الثورات الفرنسوية — هذا وايم الله شر النظام وأسوءه.

فاما النظام الاحسن فهيهات منه نحن وانى لنا به الآن !

بيد أنه لاشك هناك فى أن ذلك النظام آت يحمله المستقبل البعيد فى جوفه جنيناً فى رحم الزمان الآجل . وهذا ماأجرأ على أن أتنبأ به لانه لايكاد الناس يرون فضل الشىء حتى ياخذوا فى تسهيله وتزجيته . وتنظيمه وترقيته . ثم لايستريحون أو يروه قد أبلغ منتهى مايستطيعون أن يبلغوا به وقد قلت أنه ليس فى سلطات الكنيسة والحكومات بانواعها سلطة تستحق أن تقارن بدولة الاقلام . وقد قال الوزير «بيت» وقد سئل أن يكتتب بشىء من المال للشاعر الاكبر بارنز «الادب سيد نفسه يدبر زمامها ويسوسها وليس فى حاجة إلى الناس» قال المستر «سوذى» نعم هو سيد نفسه يسوسها ويدبر زمامها . وهو أيضاً سيدك يسوسك وياخذ بخطام انفك إذا أنت لم تلتفت اليه وتعرف له قدره!»

وما معظم الضرر بواقع على الكتاب فانهم أفراد وجزء ضئيل جدا من الجسم الكلى . وفى جهدهم أن يجاهدوا ويكابدوا . حتى يظفروا أو يموتوا فيعذروا . ولكنه يهم المجتمع أن يضع شهبه ومصابيحه فى الذرى والغوارب وحيث ترى فتهدى . أم يجعلوها تحت أقدامهم ويبددوا جوهرها الساطع شررا يستطير فى حيث لامقتبس ولا متنور ويعرضوا أنفسهم بذلك لما قد عساه يحدث من الحريق . وقد حدث. والنور هذا كم الله هو رأس المنافع وأصل الحياة وأول حاجات المجتمع وآخرها . وان دنيا يتقدمها النور لجديرة أن تظفر فى حربها مع الدهر

وتكون للانسان احسن دنيا . وعندى أن مرض الفوضى الكتابية هو أصل سائر الامراض فداوه تشف المجتمع من كل داء به وعلة . وقد بدأ فى آفاق الادب بفرنسا وبروسيا تباشير نظام نقابلها بالاستبشار والهتاف لانها بشير بان ماقد حدث فى هذين البلدين خليق أن يحدث فى غيرهما .

ان أهم ماسمعت عن الصين أمر فيه علينا لبس وابهام ولكنه يحرك فينا أعظم الشوق على لبسه واشكاله . وهو محاولتهم أن يختاروا ملوكهم من بين كتابهم وادبائهم . وأرى أنه من الخطل والخبط أن يتكلف أحدنا فهم هذا الامر فضلا عن شرحه وبيانه . وما أحسب الا أن مثل هذه الامور لن يكون إلا عديم النجح غير أن فى مجرد محاولتها فضلا كبيرا! ويظهر أن فى جميع أنحاء الصين عناية شديدة بالبحث عن أولى الالباب فى كل جيل من النابتة . ولكل درجة من الطلبة مدرسة فمن أظهر براعة فى دنيا المداس رفع إلى أعلى منها درجة وهكذا حتى يفضى إلى أشرفها منزلة ومن ثم ينقل إلى مراكز الحكومة ومناصبها . وربما قلد عملا أو ولاية. وتلك هى الطائفة التى منها يختار الولاة والحكام مع الأمل والرجاء ففيهم وليس فى غيرهم ظهرت آيات الفضل وأمارات اللب والذكاء نعم فليجرب هؤلاء وان كانوا لما يزاولوا الحكم والادارة وقد يعجزون عنها ويعيون بها ولكن لهم على كل حال فهم وعقل — ذاك الذى لايستطاع الحكم والادارة الابه . وليس العقل بآلة كما جرت العادة بتشبيهه ولكنه يد

يمكنها أن تستعمل كل آلة . فليجرب هؤلاء الفتية ذووا الالباب فانهم أحق الناس بالتجربة . ولاأحسب أن هناك شيئاً أسر لطلاب الاصلاح ذوى الاخلاص والغيرة من إسناد الرئاسة الى ذوى العقل . لأنهم فى الحقيقة ذوو العدل والبر والمروءة والرحمة قلدوهم أموركم تظفروا بكل شيء . دعوا توليتهم تخسروا كل شيء !

ولعلكم ترون مثل هذه المسائل غريباً مما لايجرى فى محاورات الناس ولا يدور فى مذاكراتهم . وليس العيب فى المسائل وانما فى الجيل والعصر . وإنما الواجب أن تطرح هذه المسائل على بساط البحث والمناقشة حتى تنضج فتخرج الى حيز العقل . ويسلينا بعد أنا أينما القينا البصر وجدنا دليلا بيناً وبرهاناً ناطقاً على أن دولة القديم قد زالت . وان طول عمر العادة ليس فى هذا الزمن حجة على وجوب بقائها . وان الأشياء التى كانت قبل اليوم قد بليت وفقدت مزاياها ومعانيها . وان الألوف المؤلفة من الاوربيين قد أصبحوا لايطيقون الاستمرار على أسلوب المعيشة القديم . واذا عادت الملايين من خلق الله وهم لايستطيعون احراز المطعم ويظل ثلث الناس لايطيقون الحصول على أرده أنواع البطاطس مدة ثلاثة ارباع العام فقد آن ولا شك للامور أن تتغير وللاحوال أن تتبدل ! هذا وحسبنا ذلك فى الكلام عن النظام المؤمل لتحسين حالة الكتاب

وان عدم ذلك النظام وان كان من آفات كتابنا الثلاثة فلم يك بعد

اشد الآفات . بل كان ثمت آفة هى أصل عدم النظام واصل كل آفة اخرى . وهى إلحاد القرن الثامن عشر وكفره . فاما خطب عدم النظام فقد كان على مضضه يمكن احتماله . وقد كان الكاتب البطل يطيق الصبر على وعوثة الطريق ووعورته . وعلى وحدة السفر ووحشته . ويثقب بعقله النافذ فى السدود المعترضة والعقبات القائمة لولا أن ذلك العقل قد فلل من حده تأثير ما كان حوله من الكفر والالحاد . نعم لقد كانت آفته العظمى وطامته الكبرى ماساد فى تلك الازمان من شلل الارواح وموت النفوس . ولم يعدم ذلك الوسط السىء والجو الفاسد اثره الخبيث فى قلوب أبطالنا الثلاثة وحسبى أن أقول عن القرن الثامن عشر انه كان عصر الحاد وقد نعته بكل خسيسة ووصفته بكل دنيئة وخبيثة . والكفر وقاكم الله جملة المحن والبلايا وجعبة الداهيات والرزايا . وليس الالحاد هو موت الاذهان فقط بل موت الاخلاق كذلك . وفيه كافة أنواع الكذب وعدم الاخلاص وخمود الارواح كما قلت . ومثل ذلك العصر أبعد العصور من فهم البطولة ومعرفة الابطال . وجوه سام لهم والبطولة روح لا تنتعش الا بنسيم الايمان والتقوى . وكيف وقد كان معنى البطولة قد محى من كل خاطر وبال . وأمسى يراه كل إنسان حديث خرافة وضرباً من المحال . وأصبح قد سار به القارظان . وبات فى خبر كان . وطارت به العنقاء وتبدد فى رياح الكفر تبدد الهباء . وذاب فى موج الجحود ذوب الجفاء . أو ذوب السراب المرقوق فى أكناف القفرة

الملساء . وقام بدل معنى البطولة معانى الشك والاستخفاف والرسوم الميتة والاصطلاحات الجامدة . وأصبح الناس فى عالم لارعاه الله من عالم خلو من الروعة والعجب والعظمة — عالم خلا جوه من التقديس فباض فيه الشيطان وافرخ !

وما كان أخبث الأفكار اذذاك وأخسها وأسفلها اذا قورنت بافكار قدماء الوثنيين المتوحشين لا بافكار الاتقياء دانتى وشاكسبير وملتون ! وكيف وقد كان الوثنين يشبهون الحياة الانسانية والطبيعية بشجرة جذورها فى عالم الموت وفروعها فى الجنان وهى فينانة غيداء . وحفة غناء . كثيفة الورق ملتفة الاغصان . غير محصية الفنون والالوان ممدودة الظلال منفسحة الافياء . قد ضربت فى جميع الارجاء والانحاء وغصت بها كافة الآفاق والاجواء . فنسى كفار المدينة الحديثة — أهل القرن الثامن عشر هذا التشبيه وشبهوا الحياة والكون بمكينة تصل صليل الحديد وترن رنين النحاس يالله أى فرق بين الشجرة والمكينة ! قارنوا أصلحكم الله بين هاتين . أما أنا فلست بقائل قط أن العالم مكينة لست بقائل أنها تدور بلولب وعجل وبما يقوله الاقتصاديون من العوامل والمصالح والموانع والموازين والمقاييس . ولكنى صائح بملء فمى أن هنالك أسرار خلاف رنين آلات المصانع وضجيج صراخ البرلمانات . وأن العالم على كل حال ليس بمكينة ! أفلا ترون بعد فضل آراء الوثنيين المتوحشين على آراء أولئك الجهلة المتمدنين أصحاب

المذهب « المكينى »(١) ولا عجب فقد كان الوثنيون القدماء أمة مخلصة مؤمنة .ولكن هؤلاء الكفرة الاشقياء لااخلاص لهم ولا صدق ولا مروءة ولاشعور . وكان الحق عندهم هو ما أجمع الناس على استحسانه لا ينظرون الى لب الشيء وحقيقته بل الى أقوال الناس فيه . فمقدارك من الفضل بعدد ما تحرز من أصوات المادحين . وكأنما غاب عنهم أن الاخلاص قد يكون فى هذه الدنيا . وانه لم يصر بعد من المستحيلات . بل جهلوا معنى الاخلاص بالمرة وكم من ساقط كاذب كان يسائل الناس من صميم قلبه سؤال مندهش غير متصنع « ألا ترونى رجلا مخلصاً ؟ » أما لو حسبت نفسك أيها اللئيم الدقيق رجلا مخلصاً لشد ما اخطأت معنى الاخلاص . وجملة القول أنه كان عصر موت لاحياة اللهم الا حياة كحياة المكينات حركة بلا روح وكان الرجل العامى حينذاك لا ينجيه من الغرق فى عباب ذلك الكفر الا ركوبة خشبة صلبة من حطام المذهب القديم والدين القويم — ملة القرن السالف الذى عفا الدهر رسمه وأقام على طلله ذلك البناء الخبيث الذى كل طوبة فيه قلب كافر ونفس ملحد . وهو بعد لايسلم من دوافع تيار الكفر وغوالب لجه وغوامر موجه . وهو هالك لامحالة الا أن يكون صارم العزم ماضى الجنان شديد

---

(١) نسبة الى مكينة يقولها كارليل تهكما بالقوم لأنهم كانوا يزعمون أن الكون مكينة .

الا يد . فاذا كان ذلك لم تك حياته بعد الاحياة يحفها الموت ولم يستحق من الاسماء الا لقب « نصف بطل »

•كل ما وصفت الآن هو ما نسميه الشك وهو عنوان هذة الآفات وأصلها . ولو أرسلنا عنان القلم فى ذلك المضمار لا غتال شاوه ما ليس يحصى من الساعات ولكن فى قليل الكلم غنية عن كثيره . وقد يجتزأ عن طول المقال بقصيره . وأن كان ذلك المسمى « الشك » هو الداء العقام وسم الحياة الذى اليه وجهت جيوش الهجاء ونثلت كنائن القذف منذ بدء الخليقة وحرب الشك واليقين هى الحرب التى لا تنتهى ! ولقد تظلم أهل ذلك القرن الشاك أن نحاسبهم حساب المجرم وانما هى سنة الدهر وتصرفات الحال واضمحلال المذاهب القديمة وبلى الاراء العتيقة والاعداد والتجهيز لمذاهب سيجىء بها المستقبل البعيد خير من القديم واسمى . فكيف نأخذ القوم بذلك وانما هو قضاء محتوم . وقدر محموم . وفى الرثاء لهم ورحمتهم مندوحة عن عذلهم وتأنيبهم لو نفقه ولنعرف بعد أن اعدام الصور القديمة والاوضاع العتيقة ليس اعداما للحقائق الخالدة . وان الشك أو الالحاد على شره ونكره ليس بخاتمة وانما هو فاتحة .

ولقد انكرت فى بعض كلماتى مذهب بنتام — مذهب الماديين وما انكارى له بطعن على مؤسسه واتباعه . واذا كان مذهب الماديين هو الجحود المحض بوجود الله واليقين الصراح بأن الكون خال من كل

معنى الهى وليس هو الا مادة جامدة تتحرك بدوافع غريزية فيه — أقول اذا كان مذهب المـاديين هو الـكفر المحض فهو عندى خير من مذهب الشك بمـا انه استقرار وثبات فى ذلك الموضع الذى يحوم حوله أهل شك فى حيرة وتردد . ورأيى ان الاقامة على شر الطرفين . اشرف من الحيرة بين بين . ولأن يرزق المريض الشفاء أو الموت خير له من ان يظل وهو لاحى فيرجى . ولا ميت فيبكى . نعم ورأيى ان هذه المـادية المكينية [1] هى اقتراب من المذهب الايمـانى الجديد بمـا انها كانت اطراحا للتصنع والسفسطة . وكانت كقول الانسان لنفسه « لاشك فى أن هذا الكون انمـا هو مكينة ميتة من الحديد وما الهها الا الجاذبية والا الجوع والشره وحب الذات . فدعنا ننظر كيف يمكننا استخراج اكرم نتائجها بحسن ادارة العجلات ودقة تحريك اللوالب ! » أفلا ترون بعد ذلك فى جرأة المـادية على التمسـك بمـا تعتقد معنى من توفر القوة والرجولة والشجاعة . حتى ليمكنك أن تسميها نوعا من البطولة وان كانت بعد بطولة قلعت عيناها ! هى كما قلت الغاية القصوى لذلك الشك الذى أخذ بخناق القرن الثامن عشر — بلغها أصحابها بفضل الصراحة والصرامة والجرأة والشجاعة . ويظهر لى أن جميع الكافرين والمؤمنين باللسان لا بالقلب سيصيرون يوما ما الى المـادية لو ساعدتهم

(١) المـادية اعنى مذهب المـاديين على حد قولهم النصرانية أى مذهب النصارى والمكينية نسبة الى مكينة وقد مر تفسيرها

جرأة وصدق نية . والمادية كما قلت بطولة عمياء وانما أشبه النوع الانسانى فى المادية بجالوت فى طاحون بيت المقدس يدور مفقوء العينين ثم لايلبث أن ينشب يديه فى أعمدة الطاحون فينهار فوقه البناء خرابا . ولكنه خراب يشفعه الخلاص

ولكنى مع ذلك أقول وأرجو أن اصادف قلوبا واعية أن كل من لم يجد فى ذلك الكون الا آلة جامدة فقد أضل سر الكون شر اضلال . ولست أرى سقطة أشنع من أن يتجرد رأى الانسان فى هذه الخليقة من كل معنى الهى . فان ذلك كذب وباطل — كذب فى سويداء لبه وصميم كبده . ومن كانت هذه عقيدته فاحر به أن يخطىء الصواب فى كل شىء وأن لايقع على سداد قط . فكل نتيجة يستنتجها أفسدتها عليه تلك الغلطة الجوهرية . فهى جديرة أن تعد فى نظرنا شر اضلولة غير مستثنين اضلولة السحر نفسها . وكيف وقد كان السحر يحمل أهله على عبادة شيطان حى . والمادية تحمل أهلها على عبادة شيطانى حديدى ميت . عجبا لها أإذا جردت الكون من آلهة افلا أقل من ان تترك فيه شيطانا ؟ تبا لها لقد عرت ذلك الوجود الرائع من كل آيات الشرف والجلال والروعة والقدس . وتركته جثة بلا روح وهيكلا بلا حياة فانى للانسان بعد ذلك بمساعى الابطال . ومآثر ذوى الهمم والمروءات من الرجال . وانما الذى يستفيده من ذلك المذهب الكاذب هو ان ليس فى الحياة إلا حب الشهوات والملاذ ومخافة الهم والألم . وأن

الحقيقة القصوى فى حياة المرء هى الحرص الممقوت على المدح والمال وسائر الماديات. أو بالاختصار هى الكفر. والكفر عقوبة نفسه

أما الايمان فهو عندى صنع العقل الراجح ونتيجة الذهن الصحيح. وهو عملية خفية مبهمة لاتوصف. شأن كل عملية حية جوهرية. ولم نعط العقل لنعارض به ونسفسط. ونجادل ونلغط. ولكن لنرى به حقائق الأشياء فنفهم ونوقن. ثم نجعل اليقين أساساً نبنى عليه الفعال. ومبدأ نستهل منه فواتح الأعمال. وليس الشك نفسه بجريمة. وكيف وما كان قط للانسان فى مسائل المذاهب والعقائد أن يقع على أول مايصادف فيحتضنه ويعتقده. ولا من العقل أن يركب الرجل رأسه فى الرأى وينخرط فى الأمر من غير تدبير ولاروية. وإنما العاقل من بات يقسم رأيه ويشاور نفسه [1] ولا يمضى الرأى حتى ينضج ويختمر

لا كامضاء جاهل عجرفى يركب الأمر قبل شد الحزام

فاذا فعل ذلك جاء رأيه مشحوذ الغرار محصد الحبل حصيف العقيدة جديراً أن يجلى ليل الخطوب والاتراح. ويخلص بين الماء والراح. ويكشف معالم الحق الصراح. والشك والبحث والتنقيب غريزية فى نفس كل عاقل. وهى جولة العقل فى الأمر الذى يحاول أن يعرف ليعتقده. وتنبت شجرة اليقين كما ينبت غصن الشجرة من مستسر

(١) يقال يشاور نفسه اذا جعل ينظر بأى رأييه يأتمر وذلك اذا اتجه له رأيان لايدرى على أيهما يعتمد

الجذور . ولكنه لما كان الواجب على المرء فى عادى الأمور أن يسر شكوكه حتى يؤول بها طول النظر والتقليب اما قبولا أو رفضاً . فما بالكم باسمى الأمور وأعلاها التى يعجز عن صفة كنهها اللسان . فاما ان يبرز المرء شكوكه ويحسب أن المجادلة و المناظرة هى أقصى مبلغ قوة العقل وأكرم مآثره فهذا مثل أن تقتلع الشجرة فتعكسها وتعرض على الأبصار منظر جذورها القبيح بدل ما كانوا يترقبونه من ناضر الورق ويانع الثمر وفينان الأفرع الخضر — فتريهم منظر الموت والشقاء . موضع الحياة والنماء !

والشك كما قلت ليس فى العقل فقط بل هو فى النفس والأخلاق أيضاً وهو مرض الروح كافة . وانما يحى المرء باعتقاده شيئاً من الأشياء لابالمناظرة والمجادلة فى جملة أشياء . ولن ترى حالا أسوأ من أن يظل الانسان وهو لايؤمن الا بالشىء الذى يزرعليه جيبه ويلتهمه باحدى حواسه ويهضمه ! وهذه مسقطة ليس دونها وأبيكم مهبط ولا منحدر . وانما نسمى الأعصر التى يهوى بها الانسان لهذا الدرك أمرض العصور وأخسها وأحقها بالحزن والبكاء وفى مثلها تشل يمين الدهر وتقرح كبد الدنيا ويجمد نبض الحياة ! وفى مثلها تغيض عيون الخير . وتطمس معالم البر . وينقطع العمل الصادق الحر . ويقوم بدله الحذق بالتقليد والمحاكاة وهو عنوان رق الأنفس وأسرار الاذهان . وعمه البصائر والقلوب وهنالك تنتهب أموال الدنيا وتهمل واجباتها وتستلب خيراتها لاتؤدى

حقوقها ولا تصلح شؤونها . وكيف وقد ذهبت الأبطال وجاء كل كاذب دجال . والحقيقة أنه لم يات منذ العهد الأخير من دولة الرومان قرن هو أجفل باهل الزور والدجل من ذلك القرن الثامن عشر . اذكروا رعاكم الله رجال ذاك القرن وانظروا ماذا كانوا يتصنعون من حمد الفضائل . وذم الرذائل . وهل رأيتم عندهم الا قولا بلا فعل . ومنطقا بلا عمل . شقشقة هادرة . وهمها فاترة . وألسنة خالبة . وقلوبا كاذبة وأعينا تندى وأفئدة كالصخر أوأقسى . ونفوسا وسنى . وجعجعة ولا طحنا وكأنى بهم قد حسبوا أن الغش والنفاق والكذب هى من عناصر الحق التى لايقوم الا بها . ولقد بلغ من ذلك أن الوزير شاتام ذلك المشهور بالجرأة والشجاعة يتصنع المرض ويدخل مجلس البرلمان ملفوف الاعضاء فى الخرق كأنه مكسر العظم مجبره ويشيع عن نفسه أنه فى أشد برحاء الداء وانه لولا حقوق الشرف والمروءة. وحرمة الأوطان لما خرج يتحامل قطيع الخطو مبهور الانفاس . حتى إذا انطلقت به أشواط البيان فى ميادين المناظرة . وطارت به أجنحة البلاغة فى آفاق المناقشة والمحاورة . نسى ماقد تكلفه من التمارض فاستل ذراعه من لفافته استلال الصارم الجراز من غمده وجعل يهزه ويطوحه فعل الخطيب المصقع والمنطيق المفوه ! وكذلك ماانفك شاتام هذا منذ قرع أبواب السياسة إلى أن قرع عليه الحمام أبواب الحياة وهو يمزج بين الصدق والكذب والحق والباطل : نصفه للشرف ونصفه

للخسة وشطره لله وشطره للشيطان . ولعل حجته فى ذلك أن الدنيا لاتنال بارضاء الناس والناس معظمهم بله مخاديع فمن أراد الدنيا فليجعل الغش والخديعة ذريعته . فكيف والحال هذه تؤدى حقوق العالم ؟ وماذا ينشأ عن ذلك المذهب العقيم من البؤس والشقاء . والمحن والأرزاء . وكانى بك قد وقعت على أصل ادواء العالم حينما تسميه عالما كافرا — عالما عديم الاخلاص — عالم كذب وباطل — عالما شيطانيا ! وهذا هو ماأراه منبع كل آفة اجتماعية — منبع الثورات الفرنسوية

وأرى أنه لابد من تغير هذه الحال ولست أتوقع للعالم خيرا ونفعاً حتى يحدث ذلك التغير . وإن أملى الوحيد فى حسن المآل . وعزائى عما أراه من شقاء العيش وبؤس الحال . هو أنى أرى ذلك التغيير قد بدأ وانه مستمر . وانى قد أجد من آن إلى آخر الرجل المؤمن الذى يعرف أن هذا العالم حق وما هو باكذوبة ولعبة . وانه هو نفسه حي وليس بميت ولا مفلوج . وان العالم حي يخفق فيه روح الله ويجول فى ارجائه رونق الجمال والجلال . وانه كحالته فى أوائل الزمن وبكرة الدهر ! وعندى أنه متى عرف أحد الناس ذلك عرفه الكثيرون بل عرفه الجميع على مدى الأيام . وكيف وانه جلى واضح لو كشف الغبى على قلبه الغطاء . وضرح عن إنسان عينه الاقذاء ! وكانى بذلكم الرجل المؤمن وهو ينظر من دولة الكفر فى اعقاب نجم آفل . وبقية ظل زائل . ويستقبل من دولة الايمان تباشير صبح أغر . ونفحات روض عاطر . ولا

يرى الرسوم القديمة على متانتها الا خيالات تهم بالزوال واشباحا تشد للرحيل الرحال . وكانى بذلك المؤمن يخاطب دولة الكفر المدبرة بقوله «ما أنت بحق وانما خيال زور . فاذهبي وعليك العفاء !» نعم ستذهب دولة الالحاد بحواشيها من ماديات وكفريات ورسوم كاذبات وما ذلك القرن الثامن عشر بعد الافلتة من فلتات الدهر لاتجيء حتى تنصرف . وانى لأتفاءل للعالم باقبال السعد والنجاح . والخير والفلاح . ودولة الايمان يقوم عمودها . ويخضر عودها . ويضرب رواقها . وترف أوراقها . وعند ذلك يروح العالم بقدح رابح . وسهم راجح

بل مالنا وفوز العالم وربحه ؟ لشدما لهج الناس بذكر العالم ونجاحه وخيبته وانما يجب على كل رجل أن يعرف أن له حياة تعنيه شؤونها وتؤده اعباؤها مهما يكن من أمر الدنيا وسواء أفلح العالم أو اخفق . وان عمره انما هو لمحة بين ابدين . وما للانسان بعد الموت الى هذه الحياة من كرة . فجدير بنا أن لانعيش عيشة النوكى الأصفار من كل فضل ومكرمة ولكن عيشة النبلاء العامرى النفوس بالحق والهدى . وما لنا والاهتمام بالدنيا وما فى نجاحها ربح لنا ولا فى خيبتها خسارة . وانما هم العاقل أن يعنى بامر نفسه وفى ذلك مندوحة له عن غيره ومشغلة . وأحق الناس بالالتفات الى هذه النصيحة قوم أولعوا بالتطواف فى انحاء الأرض قصد ترقية الامم والشعوب وللامم والشعوب اله أرحم بهم من كل مخلوق واملأ بتعليمهم وترقيتهم . وفكرة الجولان هذه من نتائج تصنع

القرن السالف وكذبه فليتجنبها أهل هـذا القرن . وليكن لهم فى اصلاح شؤون أنفسهم شغل عن القيام بمصالح الغير .

وفى تلك الأحوال وهاتيك الأزمان كان يعيش كتابنا الثلاثة جونسون وبارنز وروسو — فى أزمان أصفرت الحياة أثناءها من كل أثر للحق والصدق فاما الحقائق القديمة فكانت قد هدركنها . وخرس لسانها وأما الجديدة فكانت اجنة فى بطن المستقبل لا جرس لها ولا نبس . ولم يك لاح فى ظلمة الكفر المطلخمة فجر اليقين وصديع الايمان ولم يك نبع فى قفار ذلك الكذب والباطل ينبوع حق كلا ولا الثورة الفرنسوية نفسها التى هى على علاتها نوع من الحق وإن كان يعد حقا ملتفعاً برداء من نار جهنم ! وما أبعد ما بين سيرة لوثر ذات الغاية المحدودة وبين سيرة جونسون المحفوفة بالمزاعم والفروض التى عادت لا تقبل ولا تفهم ! لقد وجد محمد أباطيل زمنه مصنوعة من الخشب قابلة للحرق فاحرقها واخلى من عقباتها سبيله . ولكن أباطيل زمن جونسون كانت مما يحرق بالنار . فبقيت فى طريقه . وما برح كل قوى من الرجال يجد الحياة ملأى من الأعمال أعنى من الصعائب والآلام بما يستفرغ جهده . فأما أن يظفر المرء مبين الظفر فى عصر كعصر جونسون فذلك أصعب الصعائب . فلم يك مصاب جونسون قاصراً على العوائق وفساد النظام والفقر الذى حبس رزقه عند قرشين فى اليوم . بل لقد كان جونسون قد سلب نور روحه . فلا معالم تهديه فى

الأرض . وابرح من ذلك أن أصفرت سماؤه من كل نجم ! . فلا غرو أنه لم ينل النصر المبين من هؤلاء الثلاثة أحد . وحسبهم أن جاهدوا فأبلوا . ولذلك أقول عرجوا بنا على معاهد اولئك الابطال لا كابطال فازوا وظفروا بل كابطال جاهدوا فصرعوا وقد مهدوا لنا السبيل — ثلاثة جبابرة قاتلوا فى حرب الكفر والايمان فنسفوا من جبال الباطل ما بات أثراً جسيما على قبورهم . فقفوا بنا على تلك الاجداث فان فيها عبرة وتذكرة .

لقد سبق لى الكتابة عن هؤلاء الابطال قصداً أو عرضاً ولا أراكم الا عالمين من سيرهم ما لا حاجة بنا الى ذكره . وانما نتكلم عنهم الآن كانبياء ذلك العصر العجيب وان فى الكلام عن حالتهم وحالة عصرهم من تلك الوجهة أى من وجهة أنهم أنبياء مجال لجملة آراء . وانى أراهم الثلاثة رجالا ذوى صدق يحاولون فى اخلاص أن يبلغوا غاية الصدق ويثبتون أقدامهم فى أرسى قواعد الحق فكانت طبائعهم من اكبر البواعث على ميلهم الى سنة الحق اذ كان لهم من عظمة النفس ما لم يستطيعوا معه أن يقيموا على الباطل وقد جعلت سحب الاضاليل والأكاذيب تنهال تحت اقدامهم فلم يكن لهم الا على اديم الأرض معتمد والا فلا مستقر لهم ولا مطمأن وقصارى القول أنهم كانوا ابناء طبيعة فى عصر كلفة وتصنع — كانوا رجالا مخلصين فى حين لا اخلاص ولا صدق . وفدوا بنفوسهم الشريفة على هذا العالم وقد طال عهده بالشرف والمروءة

فاما جونسون فما زلت أراه رجلا من أعاظم رجالنا — قوى النفس متين الخلق شريف الطبع مفعم الفؤاد من كوامن الكرم بما عجز عن استثارته جمود العصر الذى عاش فيه ولو صادف من ايمان جيله جوا أكثر نورا وحرارة لانفجر فؤاده بأعذب ينابيع الفضل والكرم ولجاز أن يصبح ملكا جليلا أو اماماً كبيرا أو شاعرا فحلا وعندى بعد أنه ليس من العقل أن يشكو المرء عصره وقومه ودهره ولا فائدة فى ذلك ولا ثمرة وهب عصره عصر خبث فما باله لايطيبه وجيله ردىء فماله لايحسنه وكان جونسون فى شبابه معسرا رث الحال عاثر الأمل منفردا ولاتحسبوا أن سعة الرزق وفسحة النعمة كانت تجلى عن عيشه سحب الهم لو أنها اتفقت له وذلك أنه كان مصاباً بالسوداء والألم الجثمانى والروحانى الناشىء من محاربة نفسه لجيوش الضلال والكفر فكان كما حدث اليونان فى خرافاتهم عن هرقل اله القوة — اذ قالوا إنه كان يلبس قميصا من نار فهو منه فى عذاب أليم . وبلاء مقيم ثم لاسبيل الى نزعه وكيف وانما هو بشرته وجلدته ! وعلى هذه الحال كان لابد أن يعيش يائسا من الخلاص والنجاة

يا ابن بوران لامفر من اللــــه ولا من قضائه المحتوم

وكأنى به يمشى بين القوم قد قصر خطوه المرض وتركته الوحشة غريباً فى الاقربين يحمل بين جنبيه فؤادا ضخماً شرها الى المكارم منهوما بالعلى وروحاً غاصاً بخليط مشوش من مبهم الأفكار والخواطر يلتهم كل

مايصادف من فائدة دينية وربما قنع من الفوائد الدينية بما قد يعثر عليه من أقوال الكتاب والشعراء وحقا لقد كان سيد أهل زمانه ونابغة قومه الذى كان يجزيه على تلك العظمة والنبوغ درهمين فى كل يوم ولكن ماذا يؤثر ذلك فى نفس جبارة لاتنهزم وعزم ماض لايكل وفؤاد صارم لايفل ثم لاتنسوا تلك الحكاية المأثورة عنه — حكاية الحذاء — وذلك أن جونسون كان قد بلى حذاؤه وبصر به بعض الكرماء فى نعليه الباليتين فرحمه ثم عمد الى حذاء جديد فاشتراه له ووضعه على باب داره فى خفية حتى إذا جاء جونسون ورفع النعلين يحدد اليهما النظر من عينين كليلتين أخذته النخوة وشمخ بأنفه الكبر فرماهما من النافذة ومعاذ الله أن يتدلى البطل العظيم إلى مهابط الشحاذة ويسف إلى محاط السؤال . وقد يحتمل القر والثلج ولذع الجليد للاخمصين . فاما الشحاذة فلا . فانظروا هداكم الله أى قوة كانت فى ذلك الرجل المعوز البائس وأى إباء وعزة وأى توكل على الله واعتماد على النفس انى أرى فى جوف هذا الرجل عالما من القوة والخشونة والبؤس والفاقة ولكنه بؤس أبى عفيف . وفاقة عزوف أنوف . وهذه الحادثه عنوان على حياة الرجل جميعها . نعم لقد كان رجلا حرا جديد الديباجة وليس باخى باطل خلق الأديم . ولا ذليلا ولا شحاذا . وأولى بكل ذى مروءة أن يقوم على ما وهبه الله ولو كان الوحل والترب . لاعلى عطايا الغير ولو كانت الفضة والذهب ! .

ومع مانرى لجونسون من وعورة الاباء . ومرارة الكبرياء . وشدة الانفة أ كان قط رجل أرق حشامنه وأسلس انقيادا نحو الأمر الشريف والمعنى المقدس ؟ وقدما كانت النفوس الكبيرة منجذبات تلقاء ماهو أشرف منها وأسنى قودا نحو كل شيء انبل منها واسمى . وانما صغار النفوس ودقاقها هى التى لاتفعل ذلك وجونسون فى ذلك خير مثال لما ذكرت قبل من أن آية المخلص انه حسن الطاعة . وانك لاترى الخضوع والخشوع لمعانى البطولة الا فى عصر كله ابطال . وقد قلت ان جوهر الفضل والكرم ليس فى انه جديد مبتدع . فلقد كان جونسون فاضلا وكريماً مع اقامته على قديم الآراء . ووجد فى ذلك القديم حاجته وبغيته . فعاش به عيشة شريف حر وماجد بطل وشأنه فى ذلك غريب لانه مع اقامته على تلك الرسوم القديمة الميتة لم يكن من اهل الاكاذيب والظواهر . وانما اخا حقائق واصول وذلك ان الرسوم القديمة التى اقام عليها كانت تحمل فى اجوافها عنصراً من الحق وعجيب والله من هذا الرجل ابصاره اسرار الكون المقدسة وحقيقة الحياة الكبرى فى ذلك العصر الورقى [1] الممحل الجدب المشحون بالكلفة والغش والتصنع ولا نعلم كيف وفق مابين مذهبه ومذهب ذلك العصر بل كيف اطردت له عيشة فيه . وحقاً انه لامر جدير بالتامل المشفوع بالاحترام والرحمة والاجلال .

---

(١) نسبة الى الورق أعنى أن موضوعات الكتابة كانت كلها مادية فهى مثل الورق التى تكتب عليه

والله أشهد ان من اعجب الامكنة عندى و اقدسها تلك الكنيسة — كنيسة سانت كلمنت — التى كان جونسون يعبد الله بها فى زمن فولتير فى زمن الكفر !

وانما عد جونسون نبياً لانه كان ينطق عن ضمير الطبيعة وان كان بالاسلوب الاعتيادى المتصنع . اوليس فى كل اسلوب شيء من التصنع ؟ وما كل شيء متصنع باكذوبة . بل كل شيء متصنع كان فى مبدأ امره حقا وما نسميه بالرسوم المتصنعة و الاعتبارات الباطلة لم تك فى اوائل امرها بمنكرات ولكنها كانت صالحة ضرورية . وما الرسوم والاعتبارات الا طرق واساليب وعوائد توجد حيث يوجد الانسان وانما تتكون الرسوم كما تتكون السبل وتنهج مفضية الى غاية شريفة يؤمها الجم العديد من أخيار الناس . واصلها ان رجلا عالى الهمة شديد الاخلاص يجد السبيل الى فعلة من الفعال — قل مثلا بث شكره لله أو تأدية السلام لرجل من الناس . اقول مثل هذا العمل أو ذاك على ماترون من صغره هو فى الحقيقة جسيم وانما صغرته فى أنظاركم العادة . وما كان ليوجد فى هذا العالم لو لم يقدر له الله مبدعا ومبتكراً هو أول من نطق به و أوجده فهو لذلك بطل وشاعر بما انه قد اعرب عن معنى شريف مازال يضطرب بفؤاده وبافئدة الآلاف المؤلفة من خلق الله . فهذه طريقته فى التعبير عن ذلك المعنى — هذه آثار خطاه هذه مبادىء المنهج . ثم يجيء رجل آخر فيترسم آثار الأول وتلك

خطة أسهل يترسم آثار الأول مع اصلاح وتصحيح . وتحسين وتنقيح وكلما زاد ركاب الطريق اتسعت اقطاره وانفسحت نواحيه حتى يؤول منهجاً واضحاً وسبيلا مضروبا يمتطيه كل غاد ورائح . وما دام لذلك الطريق غاية مقصودة . ونهاية محمودة . فهو مالوف للناس مرضى لديهم . حتى اذا ضاعت الغاية هجر الطريق . فالرسوم رعاكم الله تكون فى أوائل أمرها مملوءة بالمعانى الجليلة . ولكم ان تسموها جلوداً وأجساماً تسكنها حقائق حرة صحيحة ولولا ذلك لما وجدت تلك الرسوم . وقد قلنا عن الاصنام نفسها انها لاتكون باطلة حتى تعتورها الشبهة فى نظر عابدها ويضعف ايمانه بها . وما أحسب ان كثرة ماتعودناه من ذم الرسوم منسينا قيمة الرسوم الصادقة وفضلها . وانها كانت وسوف تكون ألزم مانحتاجه فى سكنى الدار الدنيا من الفرش والآثاث .

وأذكروا أيضاً كيف كان ذلك البطل يتحدث أيام صغره باخلاصه اذ لم يكن يشك فى أنه من أكثر الناس اخلاصاً ومن أكفئهم للقيام باى جليل من العمل ولقد كان فتى شديد الجد والاجتهاد يستنزل الرزق من شاهق ويستدر به صخرة صماء ولو طلبه من غير طريق الحق لأغدق عليه ودر ولكنه رجل حق لايقيم الا عليه ولا مضطرب له من دونه أما ترون فى ذلك لزوماً لمنهاج الحق من غير افتخار ولا اعلان لا كمن خط على جبينه بالمداد كلمة «حق» حتى يظل الناس ولا شان لهم الا

التحدث به واطراؤه وكذلك مابرح الفضل زينة من لايتيه به ويعجب

كان جونسون نبي قومه وكان كلامه لهم انجيلا شان أمثاله من الأبطال واضرابه وكان أنفس ماقال لهم يدور حول موضوع الحزم وما أعظم ذلك الموضوع وأجله فى هذه الدنيا التى قلت فيها معلومات الانسان وكثرت واجباته وكان فحوى ماعلمه القوم هو «قبيح بكم أيها الناس أن تغمسوا أنفسكم فى غمار الشك وأعماق الكفر فى عالم قصرت فيه المدارك وحسرت البصائر وثقلت أعباء الفروض وموازين الحقوق. انكم ان تفعلوا ذلك تلقوا شقوة وبؤساً وتكونوا كالذى تخبطه الشيطان وأنى يكون للملحد الجحود عقل يعمل به ويعيش» هذا هو انجيل جونسون الذى لقنه الناس وعلمه وشفعه بانجيله الآخر الذى فحواه «خلصوا عقولكم من شوائب الرياء ودوسوا على الثلج والجليد فى نعالكم البالية لافى أحذية الغير ذلكم خير لكم «كما كان يقول محمد (١)» وعندى ان هذا انجيل حكيم — أحكم ماتيسر فى هذه الأوقات

أما كتابات جونسون فهى وان نفقت سوقها قديماً فقد أصبحت بين أهل هذه العصور بضاعة كاسدة. ولا أنكر ان كثيراً من آراء جونسون قد أصبح اليوم قليل القيمة ولكن أسلوب تفكيره وعيشته سيبقى عالى القيمة جدير الرونق يد الدهر وانى لأرى فى كتب جونسون من أبين آيات الفضل وأرجح براهين الحكمة والعقل مالا يدفع ولا يفل وما هو

---

(١) يشير الى الآية القرآنية ذلكم خير لكم لو كنتم تعلمون

جدير ان يرحب به على علاته مهما كانت لأنه كلام حر صريح أريد به أغراض سامية وأمور جليلة أما أسلوبه ففيه جفاء وصلابة — خيرما وفق اليه إذ ذاك — أسلوب ضخم البناء يابس المفاصل كأنما يسير الهوينا فى أرجح رزانة ووقار قد أصبح اليوم غير مالوف ولا مستطرف وربما سمعت له طنيناً وجلجلة لا يوازيهما ماضمن من المعنى . ولكن هذه كلها مغتفرة فى جانب ماأودع كلام الرجل من الحكم والآيات وانما العبرة بالمعانى دون الألفاظ وبالأرواح لا الأبدان وكم من أسلوب حلو مونق خلو من المعنى كالقشرة العجيبة النقش لا لب فيها والصدفة المصقولة ولا درة وما كانت أرباب تلك الأساليب الكاذبة الا جناة مجرمين خليق بكل ذى دين ومروءة أن لا يواقع خطيئتهم ويركب سننهم وجدير بكل قارىء أن يتحامى كتبهم ويجتنب أقوالهم: ولو أن جونسون لم يترك لنا الا معجمه «قاموسه» لكان حسبنا دليلا على رجاحة عقله وحدة ذكائه ومن اطلع على وضوح تعريفاته وحدوده ومتانة مبانيه وصحة معانيه وحسن مذهبه كان خليقاً أن نعده أحسن المعاجم جميعها . وانى لأنظر اليه فاراه فى جمال تنسيقه وفخامة صنعته كالقصر المشيد متشاكل الأطراف متشابه الجوانب يطرد فيه روح النظام ويجول فى حجرتيه رونق الاتقان والصناعة — ولا تفوتنا كلمة عن صاحب جونسون وتابعه اللورد بوزويل — ذلك الذى جاوز الحد فى اجلاله وتقديسه لجونسون وقد بالغ الناس فى تفنيده على ذلك وغلوا فى احتقاره واصغاره

ورغما من أن لهم بعض الحق فى ذلك فانهم بعد جائرون وظالمون وعندى أن إجلال بوزويل لجونسون مازال من أجل الآثار . وأعجب الأخبار . وماذا أعجب من منظر اجتماع ذينك الرجلين — اللورد الاسكوتلاندى الابله المغرور يدنو حانى الرأس خاشع البصر اجلالا وهيبة نحو الأستاذ الجسيم فى أطماره الرثة التربة وغرفته الحقيرة الخاوية. هذا والله صريح الاجلال لنفس كبيرة وروح شريف وهذه هى عبادة الأبطال فى زمن أقفر فيه العالم من الأبطال والعبادة بل كيف أقفر منهما وقد بلغ أكمل صورة فى هذين الرجلين

ولعل الوجود ماخلا طرفة عين من الأبطال وعبادة الأبطال . ولا جناح علينا أن ننكر ماقاله القائد الفرنسوى «دى كوندى» من ان الالفة تذهب الاجلال حتى أن البطل الكبير لا يكون بطلا فى عين خادم مرقده . وان نرى أن البطولة أشرق من أن تطمس الالفة شمسها . فاذا وجد الخادم الذى لايرى عظمة سيده فالذنب عليه فى ذلك لا على السيد العظيم . ولعل الخادم حسب أن البطولة هى حلة موشاة وتاج واكليل وأبواق تسجع . واذيال ترفع . واذا كانت الحقيقة كذلك فقد كان أولى بالقائد الفرنسوى أن يجعل كلمته هكذا «لا ملك يكون سلطانا فاخر المظهر فى عين خادم مرقده» ولو عمد انسان إلى الملك المهيب لويز الرابع عشر فنزع ثيابه وتركه عريانا اذن لرأيت شخصاً حقيراً لا موضع فيه لاجلال خادمه والخادم الذى يحمل فى جوفه روح خادم

أى روحا وضيعة ليس خليقاً أن يفهم بطولة البطل ! وانما يفهم البطل من خالط نفسه جوهر البطولة

أفلا ترون بعد أن اجلال بوزويل لجونسون لم يعد موضعه . وانه ما كان ليجد فى بريطانيا نفساً أحق بحنو الهامة وثنى الركبة من تلك النفس الكبيرة . وهل كان جونسون الا رجلا عظيما أركب من عيشته ظهر صعبة شموس فراض جهده من صعوبتها وذلل من شماسها . وخلق فى مضطرب فوضى الأقلام ومختلط فوضى الاديان والسياسات فمهد لنفسه منهجاً واضحاً وسط تلك العناصر المتصادمة المتنافرة . واستطاع على رقة حاله ووهن جسده وغبرته وشعثه أن يستخدم تلك القوى المتضاربة المتلاطمة بما كان فيه نفعه وفائدته . وذلك بهدى الله وبكوكب ارشاد لاح له فى سماء عالم الاسرار فوكل به عيناً كلوأ وعقد به لحظا علوقا وجعله قبلة سفينته فى بحر الحياة العجاج صالحاً عن كل مغرية ومغوية ومال عن حزب ابليس . ولم يرفع على قلعة الكذب لواءه .

***

اما روسوفلم يبلغ فى البطولة الدرجة العليا . وليس بمصيب من اطرائى قسط جونسون ولا نصيب بارنز . وما هو عندى بالرجل القوى . وانما رجل مريض النفس سريع الانفعال كثير النوبات العصبية . ولم يكن أوتى فضيلة الصمت — وأى فضيلة وأيكم ومزية قصر عن غايتها معظم الفرنسويين بل معظم أهل هذا العصر . والرجل القوى هو فى

مذهبي من كتم مصيبته . واخفى عن الناس دخان نيران احشائه . وقد كان يعوز روسو الجلد والصبر على الشدائد . وهما — أول شروط البطولة . وانه لمن الخطأ أن يسمى الناس سرعة الهياج قوة ! والرجل المريض الاعصاب ليس جديرا أن يسمى قويا وان عجزت ستة رجال عن امساكه حين تثور به النوبة الشديدة وانما القوى من استقل بالحمل الفادح ثابت الوطاة قائم الصلب . وخليق بنا فى هذه الأوقات الكثيرة الصخب العالية الصراخ أن لانزال نذكر ذلك . والرجل الذى يعييه أن يسكت حتى يحين وقت الكلام والعمل هو رجل عاثر الرأى جائر عن القصد .

وأرى فى وجه روسو عنوانا على خلقه . حاجبين مشرفين وعينين غائرتين تجول فيهما حيرة وقلق ويضطرب فيهما نزاع ولهف . ووجها حافلا بآيات الشقاء الوضيع ومعنى السوقية والحطة — عيوب لايعوض منها فى ذلك الوجه إلا آية الجد الشديد والحدة الصارمة . وقصارى القول أنه وجه رجل متعصب وبطل مشوه . وإنما نذكره هنا لأن فيه على علاته وهى كثيرة أول صفات البطولة والاخلاص . ولست مخطئا ان قلت انه لم يك قط فى الأبطال من هو أشد إخلاصا منه . حتى لقد كان له من شدة الاخلاص مالا يقوم له طبعه الحاد — الضعيف لولا هذا الاخلاص — طبعه الذى بلغ به أخيرا من المناقضات المنكرة مايوشك أن يكون جنونا . بل لقد أصابه بالفعل فى آخر أمره صنف من الجنون . وذلك أن أفكاره ركبته كما تركب الشياطين الانس وساقته اعنف السوق

الى كل قحمة ومهواة!

وكان منشا عيوب روسو ومصدر شقائه هو مايعبر عنه بهذه اللفظة المفردة «الاثرة» حب الذات. وهو منشا كل عيب ومصدر كل شقوة. ولم يرض روسو نفسه على قدع النفس — والنفس طلعة ان لم يزعها الانسان نزعت به الى شر غاية. ولم يشحذ عزيمته لقهر جيوش الاهواء والشهوات وكان قد ملكه جوع خبيث للشهرة وغير الشهرة وأخشى أنه كان رجلا كثير الغرور والزهو. به غلة الى مدح الناس وتذكرون قصته مع السيدة «جنلين» وذلك أنها سارت به الى دار التمثيل بعد أن اشترط عليها أن يخفى نفسه عن أعين شهود التمثيل ويجلس بحيث لايراه انسان قائلا «أنا لا أود أن يرانى الناس هناك ولو ان لى الدنيا بما فيها» ولكنه اتفق رغماً من ذلك أن أرخى الستر ورأى القوم روسو ولكنهم لم يحفلوا به كثيرا. فاظهر أشد الغضب وقضى ليله آسفاً مكتئباً ولم يفه الا بمر الكلام ومضيض القول. ولم يزل من عقيدة السيدة أن غضب روسو لم يكن لرؤية القوم اياه وإنما لقلة احتفالهم به حينما رأوه. واأسفاه على ذلكم البطل لقد خالط دمه سم الانانية وتقسم فؤاده الريبة والوحشة والتبرم بالناس والاكتئاب والاطراق والهم. حتى أصبح لايطيق عشرة انسان وكان رجل من سادة الريف يتردد اليه ويجالسه فرحا به مسرورا بحديثه مبديا له أصدق آيات الوداد والولاء فجاءه ذات يوم فوجده فى أسوأ حال من الغم والاكتئاب بلا سبب ظاهر. وبينما الرجل في حيرة من ذلك

المنظر العجيب صاح به روسو وعيناه تاتهبان غضباً « سيدى لايدر بخلدك أنك يستطيع أن تموه على سبب زيارتك هذه فانى أعلم به منك . لقد جئت الآن لتفاجئنى وسط مصائبى وآلامى وتنظر أى عيش نكد أكابد وأى حال شديدة أقاسى . وكيف أحرق واتوجع . وماذا اذوق واتجرع . فليكن ذلك ياسيدى وهاك مرجلى على النار فانظر بها عنوان الفاقة واستمع من ازيزها قصه البؤس . انظر سيدى فى تلك القدر هل ترى بها الا رطلا من اللحم وكراثة وثلاث بصلات . وأنت بعد ذلك فى حل أن تقول ذلك لكل من لقيت ! » فمثل هذا الرجل قد جاوز مصابه كل مصاب وعدا فى الشذوذ كل مقدار . وأصبحت أعماله تلك نوادر حديث الناس وفكاهات سمرهم يلهون بها ويضحكون منها . وماهى بلهو له ولاضحك وكذلك رجفات المصارع المتخبط فى دمائه وافته سكرة الموت هى مصيبة له وعذاب وهى فرحة الجمع المشاهد ولذته .

لاتحسبوا أن رقصى بينكم طرباً فالطير يرقص مذبوحا من الألم

وبعد كل ذلك فلا يسعنا الا القول بأن روسو هذا قد عمد نحو الحقيقة فى عصور الباطل بتلك الكتب — التى كتبها — العقد الاجتماعى واشادته بذكر الطبيعة والحياة الهمجية الطبيعية . وكان يؤدى بذلك لقومه رسالة نبى حسب طاقته وطاقة الوقت ! ومن العجب أنه كان فى فؤاد روسو هذا وسط هذه العورات والخسائس والحمق الذى كاد يكون جنونا جذوة من النور الألهى . وما ذلك الا أن الله قد أثار بعد

تقادم عهد من بين ذلك الكفر والجحود والفسوق شعوراً قوياً فى فؤاد ذلك الرجل يوحى اليه أن هذه الحياة حق — وانها ليست بكفرية ولا نظرية من النظريات وانما حقيقة عظيمة هائلة . بذلك أوحت اليه الطبيعة وأمرته أن يصدع . فصدع فاذا لم يأت قوله محكماً بليغاً فانه جهد المجتهد . بل أن خطاياه وشواذه وسرقته الأقمشة وشروده فى الآفاق وبؤسه وشقوته كل هذه آيات الحيرة والدهشة والترنح التى تبهر رجلا حمل من الامر مالاطاقة له به وترك فى مجهل طامس الاعلام لايعرف كيف يهتدى فيه

أما مكانه فى الكتابة فمقدور فوق قدره . وعندى ان كتاباته كعقله مريضة . وليست من النوع الذى أسميه صالحاً . وانما يمتاز روسو فى كتاباته بتغلب الحيوانية والمادية وتلك هى التى تعينه على تصوير صوره المثقلة بالزخرف الجذاب . ولكنها صور خلاف كرائم الصور الشعرية مما أبدعه عقل شاكسبير أو «جيتا» كلا ! ولا كتصويرات «والترسكوت» . وكل من نظر فى بدائع هؤلاء ففهمها عرف الفرق بينهما وبين مصنوعات روسو ومن رمى على منواله — عرف الفرق بين الجمال الحر والكاذب . وظل جديراً أن يفرق بين هذا وذاك ماعاش . فانه فرق كالذى بين نور الشمس ونور المراسح الصناعى .

لقد تبينا فى جونسون ماذا يستطيع البطل أن يقدم إلى العالم من الخير رغماً من كل مايحفه من المكاره والآفات . أما فى روسو فلنتبين

أي شر وضر وبلاء قد تصحب مايهديه البطل من النفع والخير . والحقيقة أنا لو ننظر إلى موقع روسو من التاريخ لرأينا مشهداً جللا ومنظراً هائلا . ولشد ماأساء العالم إلى نفسه باساءته إلى ذلك البطل وماذا أفادهم أن شردوه وتركوه يأوى من الفاقة إلى أسطحة المنازل يحدق به من همومه وأحزانه شر صحابة ويطيف به من العوز والكربة أنحس خليط . شريداً طريدا يلجأ من غار إلى كهف كأنه الريح الهوجاء حيرى مولهة «حسرى تلوذ باطراف الجلاميد» بلى ماذا أفادهم انهم ألحوا عليه بالضر والأذى وهاجوه وأوغروه حتى تميز من الغيظ وجن جنونه وحتى جعل يعتقد أن العالم شر والمدنية سوأة وجريمة وان الدنيا أكبر أعدائه وقانونها الظلم وناموسها الجور وأساسها اللؤم . وكان أولى بالعالم أن لايعادى مثل هذا الرجل ويستنزل عقابه ونقمته فيصبح معه كما قيل

حداك إلى الحين حتى استثرتنى عليك وانى فى عرينى لمخدر

لقد قدر العالم على إلجاء ذلك البطل الى الاسطحة وعلى اتخاذه اضحوكة يسخرون منه كما يسخر بالبله والمجانين وعلى اجاعته وتركه يتضور من السغب كالوحش المسجون . فهلا قدر العالم على منعه من اضرام الثورة واشعال الأرض نارا تلظى ؟ لقد وجدت الثورة الفرنسوية انجيلها فى كتابات روسو وقد احدثت آراؤه الشبيهة بالجنون فى آفات المدنية وتفضيله عيشة المتوحشين على عيش المتمدينين جنوناً فاض فى أنحاء فرنسا وغمرها . ولنا بعد أن نسأل ماذا عسى العالم وملوك العالم أن يلغوا من ذلك الرجل

وماذا يصنعون به ؟ هذا سؤال نعيي ويعيي العالم وتعيي ملوك الأرض بجوابه. فأما ما يستطيع روسو أن يصنع بالعالم وملوكه فذلك يا للاسف واضح بين . يضرب اعناقهم ! انتهى كلامنا عن روسو .

كان من أعجب العجائب أن ظهر فى القرن الثامن عشر — قرن الكفر والضعف بين رجاله الذين كلهم تكلف وتصنع كأنهم تماثيل الخشب وعرائس الورق بطل كبير فى زى فلاح حقير يحمل الفاس ويسحب المحراث ألا وهو روبرت بارنز الاسكوتلاندى . الذى جاء فى ذلك العصر القفر كالينبوع الشبم الفرات وسط البسابس الملس . او كالفتقة الزرقاء فى الغيم المتلبد . أو كمنظر السماء وزينتها من خلال سقف القصر المزخرف . اذ كان القوم لا يعرفون من سماء الله ونجومها الا صورها المنقوشة بسقف ذلك القصر أو ما يمثلونها به من الأشكال النارية[1] فبينما هم فى وسط تلك الصور والاكاذيب انفرج لهم سقف المكان عن منظر السماء والكواكب فدهشوا وتملكتهم حيرة ولم يدروا ماذا يفهمون من ذلك المشهد وماذا يقولون فيه . وبعد أن طالت بهم الحيرة أجمع رأيهم على أن هذه السماء ونجومها الباهرة ما هى الا من قبيل تلك الصور والاشكال التى اعتادوا رؤيتها جهلا منهم وضلة وعماية وماذا ترجو من أناس ختم الله على قلوبهم فهم لا يبصرون . وضرب على آذانهم فهم لا يسمعون . فوا أسفاه ! لبئسما تلقى به القوم هدية الله

---

(١) التي يسمونها بالعامية « السواريخ »

اليهم — ذلك البطل الجليل وبئس منزلته بينهم وجواره فيهم . ولا أعلم رجلا لقى من الغبن والوكس . والتعس والنكس . مالقى روبرت بارنز . فيالله أي جوهرة كريمة نبذت بأكناف صحراء . وأي درة مكنونة ألقيت بكف خرقاء . وأي بلبل صداح تقاذفته أيدي الاطفال. وحر كريم تناشبته أظفار السفلة الانذال

اضاعونى وأى فتى اضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

وكان أبوه صانعاً فقيراً وقد حاول جملة أشياء فخاب فيها جميعاً . وما زال من عيشه فى عذاب دائم وبرح مستمر . وقد حدثنا بارنز فقال «كانت ترد على أبى طلبات الغرماء يتقاضون ديونهم فكانت تنخب أفئدتنا وتستذيب دموعنا — دموع الوالد الكدود المكدود المعنى المعذب وزوجه الجلدة الصبور وصبيتهما وفيهم بارنز . كان لهم الله لقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وحمئهم مشارعها العذبة وهى حل مباح للوراد ومنعتهم مراتعها الخصبة وهى طلق حلال لكل مرتاد . تأملوا رحمكم الله فى قوله «كانت رسائل الغرماء تستذيب دموعنا» أى مشهد حزن ومنظر ألم ! وانى مازلت أرى فى والد بارنز بطلا صامتاً وشاعراً مفحما ما كان ابنه لولاه ليكون ذلكم الشاعر الناطق والبطل الكبير . ومما يدل على فضل ذلك الوالد شهادة معلم ابنه حيث يقول «لقد جئت مدينة لندن وحضرت بها نوادى السراة والأعيان فلا والله مالذ أذنى كحديث والد بارنز ولا نعمت فيها بمجلس كتلك التى أمتعتنى مدة حول

مائدة ذلك الصانع المسكين» وقد كان فى الحقيقة مسكيناً منغص الحياة مرنق موارد العيش جامد أخلاف الرزق . لم يصادف نجحاً فى السبعة الفدادين التى رزقه الله ولافى أى شىء غيرها فكان بينه وبين الدهر حرب لاتنتهى كان المغلوب فيها أبداً وسوق لاتفض كان الخاسر فيها دائماً ولكنه ثبت فى تلك الحرب طول عمره وما كان منه قط حيصة ولا فرة . فياله من كريم باسل أيد الركن ثابت الاس . لاتهيل من جانبيه الحوادث . ولاتتخون من قطريه الكوارب والكوارث حمول يغضى على الأقذاء . ويرد أنفاس الصعداء . وتضيفه النوازل والكرب فيقريها الصمت والسكون وتهم المصائب ان تلتهمه فيلتهمها ويجعل لها من صدره الرحب قبراً لاتنبش دفينته . ولاترد وديعته .

مفازة صدر لو تطرق لم يكن ليسلكها فردا سليك المقانب

* * *

حليم اذا ضاقت بلاد بأهلها يضل الفضاء الرحب فى صدره الرحب

ياله من بطل يناضل كتائب الدهر مستورا عن الأعين لاتسير محاسن ذكره جريدة يومية . ولاتطير روائع خبره أسلاك برقية . ولا تقيد نوادر مجده مصايد الشعر . ولا تطلق غرائب همته شوارد النثر . ولكنه لم يذهب عمله سدى : ولا شىء فى العالم يذهب سدى . نعم لم يضع من هذا ولده ! وان يذهب فهذا روبرت بارنز سليله — وسليل عدة أجيال كلها أمثاله .

لقد خرج بارنز الى هذه الدنيا محفوفاً بالمكاره والشدائد بين سوء حال وسوء تعليم وكد ونصب . يختلس النظم من ساعات الكدح اختلاساً ويسترق النظر فى كتب الفحول استراقاً ويكتب بلغة ريفية مجهولة الا لاقليم صغير من البلد الذى ولد فيه ولو كتب ما كتب باللغة الانكليزية الشائعة لما شككت فى أنه كان ينال اجماع الناس على انه من أعاظم رجالنا . وان كان فيما حمل ألوف الناس على معالجة لغته الصعبة واستفتاح اغلاقها عما أودعت وفض أختامها عما ضمنت . دليل قاطع على أن هنالك جوهراً مكنوناً . وسراً مصوناً . وبعد فقد أحرز اقرار الكثيرين بالفضل واعترافهم بالقدرة والسبق وما تزال دائرة ذكره فى اتساع . وصوت صيته فى ارتفاع وقد شرع الناس فى جميع أنحاء العالم السكسونى حيثما طارت الريح بلفظة انكليزية يدركون ان من خير ما أنجبت التربة البريطانية رجلا فلاحا اسكوتلاندياً اسمه روبرت بارنز . نعم ولا حرج على ان قلت انى أرى فى بارنز هذا جوهرة كريمة بريطانية أبدى الله صفحتها . وجلا رواءها وبهجتها . على حين لاعهد للناس بالجوهر — نعم جوهرة هى على لألائها ووقدتها أمتن الأشياء وأصلبها كالحجر الكامن فى أحشاء الأرض — كالحجر ولكنه المطوى على آبار الرأفة والرحمة وعلى نيران الذكاء وزلازل الحدة والشهوة . وعلى حلو النغم ومطرب الغناء . طبع شريف خشن وسذاجة قوة وعظمة . فيها بوارق الحدة وفيها انداء الرأفة — فهى

كاله الرعد «ثور» — اله المزارع والريف!

ولقد حدثنى أخو بارنز وهو المستر جلبرت — رجل فاضل عاقل فقال لى ان بارنز كان فى صباه شديد الفرح. مستعذب الحديث جذل الكلام أخا لعب وضحك ومراح شريف الوجدان وفير العقل. وكان يوم هو غلام ينثر الحب ويحصد الزرع أفرح حديثاً وأعذب اشارة وأبعث لسرور الجليس بمراحه وجذله وانطلاق فكاهته منه فى سائر أطوار حياته. وهذا كلام جدير بالتصديق. ومراح بارنز الغريزى وجذله الفطرى — ذلك الخلق الذى لا أشبهه الا بشعاع الضحى أو بالزهر الضاحك فى رونق الربيع الجديد — ذلك الخلق ممزوجاً بمرارة جده وحرارة حدته. وذوب رحمته ورقته. كان من أخلب صفات بارنز. وكان ذلك البطل جم عتاد الامل غزير مادة الرجاء. ولم يكن بالمطرق الحزين. أخى الشكوى والانين. رغماً من شدة مصابه. وطول عذابه. وانما كان ينفض الاحزان عن كبده. نفض الغضنفر لؤلؤ الطل عن لبده. وكان كالجواد العتيق يستقبل قعقعة السلاح بقهقهة الصهيل. ويرقص على صدح الابواق وقرع الطبول. ويهز الاعطاف والاوصال. كهز الكماة القنا العسال. ويضرم الشد أيما اضرام. كتضريم المهند الحسام. نيران الموت الزؤام. فى الجيش الكثيف اللهام. ولا أرى مراح بارنز ونشاطه وفرحه وأمله الا نتائج ما أوتى من عواطف الحنان والرأفة أصل كل فضيلة واساس كل مكرمة.

وربما أخذك العجب ان قلت ان بارنز هذا اكبر نوابغ البريطان فى القرن الثامن عشر ولكنى أوقن انه سيجىء اليوم الذى لايعجب الناس فيه من قولى هذا . وشعره على مافيه من قوة وفحولة ماهو الا حفنة طفيفة من كنوز فضله . وثمرة فجة من بستان عقله . وقد قال عنه الاستاذ «ستوارت» كلمة تقال فى كل شاعر ذى قيمة وهى ان شعر بارنز لم يكن ملكة خاصة فيه وإنما هو النتيجة العامة لذهن حاد متوقد مطبوع بدا له أن يعبر عن أفكاره بطريقة الشعر . هذا ولقد كان حديث بارنز المرتجل العادى ابدع من شعره وابدع من حديث كل مخلوق . فكان اعجوبة القوم ونادرة العصر وكان

شرك العقول ونزهة مامثلها للمطمئن وعقلة المستوفز

ان طال لم يملل وفى ايجازه يهوى المحدث انه لم يوجز

وكان حديثه كسلم الموسيقى قد جمع درج الالحان من اخفض جرس التحية وألين عبارة الملاطفة الى ارفع صوت الغضب واشد صيحة الوجد . وفيه ضحك الجذلان . وزفير الولهان . ورنة الثكلان . وايجاز المجتزىء باشارته واطناب ابن المقفع فى يتيمته .

***

وقد شهره الاميرات البارعات الأدب بانه كان يخلبهن بحديثه ويستخفهن حتى يكدن يطرن فى الهواء . فهذا والله عجيب . ولكن أعجب منه ماروواه النقادة النابغة المستر لوكهارت من خدمة الفنادق

كانوا اذا رقدوا فى فرشهم للنوم فسمعوا بارنز يتكلم وثبوا من مضاجعهم فالتفوا به وكلهم اقبال عليه واصغاء لحديثه . خدمة الفنادق ! ومالى أعجب من ذلك ؛ أليسوا رجالا ينصتون الى رجل ؟ ولقد قرأت وسمعت كثيراً فى صفة حديث بارنز ولكن أجل مابلغنى عن ذلك هو ماحدثنى به العام الماضى شيخ مسن كان من أخص اصدقاء بارنز وهو أن بارنز مافتح فاه قط الا ألقى منه حكمة . قال ذلك الشيخ «وكان بارنز قليل الكلام كثير الصمت فاذا تكلم جلى من غوامض الموضوع وأوضح من مشكلاته .» ولا ادرى لماذا يتعرض المرء للكلام فى الموضوع اذا لم يفعل كذلك ! وجملة القول اذا نظرنا الى قوة نفس ذلك البطل وفحولته فى كل مانطق وكتب وصنع وشدة صراحته . وسمو همته . وكمال مروءته . ونفاذ بصيرته . ووفرة رجولته . تعذر علينا ان نجد له فى القرن الثامن عشر نظيرا

قد طلبنا فلم نجد لك فى السو دد والمجد والمكارم مثلا

ولكنا اذا أجلنا النظر فى عظماء القرن الثامن عشر وجدنا بينهم رجلا فيه مشابه من بارنز — وهذا هو ميرابو . فهما فى الجوهر متشابهان وان تباينا زيا وتخالفا ظاهرا . نعم انهما سواء فى قوة البدن وقوة الروح كلاهما غليظ الرقبة شديد الكدنة (١) كبير النفس ضخم الفؤاد . ولكن ميرابو أكثر صخباً وأشد دفعة وقلقاً بالفطرة والنشأة

(١) الكدنة القوة

والشبه القومى . ومزية ميرابو بعد هى الصدق والعقل ونفاذ الرأى وحدة الجنان . وكل أقواله جدير أن يحفظ ويمتثل . وماكلمته الا طعنة الراى فى حشا المشكل ولمحة برق اليقين فى دجى الشك

ألمعى موفق بهدى اللـــه لدى الخطة العياء العقام
وإذا باده الحوادث بالرأ ى أصاب الصواب بالالهام

***

المعى يرى باول ظن آخر الأمر من وراء المغيب

***

وكذلك كان بارنز . وكلاهما كان جياش الصدر بمراجل الأهواء والشهوات طورا تعصف عصف الجنائب وتارة تخطر مر النسيم . وفى كليهما العارضة والبديهة والمزح والضحك والفكاهة والقلق والنشاط والتوقد والعزم والهمة والصدق والصراحة والجد والاخلاص . فهما من محتد واحد فى الكرم وان تشعبت بهما بعد ذلك الأشكال . ومن جوهر بعينه فى النبل وان تنوعت بعد بهما الاعراض والاحوال . فلوأن بارنز شغل مكان ميرابو فى الحكومة والسياسة لاجاد مثله فى كليهما ولكن شجاعته العتيدة كانت ياللاسف تصرف فى اسر مهربى البضائع فى خليج سولواى بتلك البحار الشمالية . وفى السكوت عن كثير من المغضبات حيث كان لايجدى الكلام وإنما الحنق الاخرس . ولو صادفت تلك الشجاعة موضعها لألجمت اللد الخصام فى المناظرة

واستحقت قول القائل

كم حومة للخطاب فرجها والقوم عجم فى مثلها خرس
شك حشاها بخطبة عنن كأنها منه طعنة خلس

ولبدت تلك الشجاعة لعيون الملأ طرا فى تدبير الدول وتنظيم الممالك واصلاح شؤون العالم . ولكن القوم أغنى الحكومة . قالت لبارنز قول موبخ «لست للتفكير . إنما أنت للعمل . » فكأنها قالت له ضمناً «لاحاجة بنا الى قوتك المفكرة — أكبر قوى البلاد فى هذا القرن . وإنما نريد منك أن تمسح الأراضى . ولسنا لغير ذلك نريدك» حسن والله هذا وجميل ! حتى لكان قوة التفكير ليست فى كل آن ومكان أهم ماتحتاجه الدنيا . أو ليس شر الناس هو الرجل الذى لارأى له ولاتفكير عنده الذى لايفكر ولايرى . وإنما يتجسس ويعيث ويتخبط ويهذى ويخطىء حقيقة الشىء الذى يزاوله ويظل حائرا مضللا لاخير فيه ولا ثمرة . هذا هو شر الناس وهو الآفة والبلية . وعسى قائل يقول مابالك تعلن شكواك وندمك على ذلك ؟ أما تعلم ان ذا القوة قدما ممنوع من مجال اظهار قوته ؟» نعم وذلك أضر بما نعيه وأبرح . واذا كانت الشكوى قليلة الجداء فما ذكر الحقائق بقليلة . ولا يسعنى الا القول بان استغناء العالم الأوربى عن مثل بارنز والثورة الفرنسوية على الأبواب لايدعونى إلا الى الحزن والأسف !

وبعد فأهم صفات بارنز الاخلاص وهو أيضاً أكبر مزايا شعره وعيشته

وما قصيده الذى يتغنى به بمجرد تصورات وتوهمات وانما احساسات تجيش بخاطره وتثور بوجدانه . وسر ذلك وسر فضله فى جميع أركان حياته هو الحق . وحياة بارنز هى مايمكن أن نسميه رواية محزنة سداها الحق . ولحمتها الاخلاص . الاخلاص المر الوعر ليس القاسى ولكنه اخلاص جرىء ثائر يساور الحقائق ليروضها ويقتادها . ومن ثم ترى فى جميع الأبطال روح التوحش والسطوة .

عبادة الأبطال — أودين بارنز ! لقد يعزينا عن شقاء أولئك الكتاب الأبطال انهم لم يخلوا من اجلال بعض الناس اياهم . ولكن أى حالة عجيبة وصل اليها ذلك الاجلال ! اما أن فى إزدحام خدمة الفنادق بباب غرفة الجلوس يرهفون الآذان لاستراق كلمة من كلام بارنز لاجلالا منهم لذلك البطل وان كانوا بذلك لايشعرون . هذا وقد أوتى جونسون فى اللورد بوزويل اخشع محترم ومعظم . وسخر الله لروسو أشراف الدولة وأمراء بيت الملك يزورونه فى غرفته الحقيرة ويجلون منه رجلا تقاسمته النوائب فشطره للبؤس وشطره للمس والخبل . تناقض وايم الله عجيب وحياة لايلتئم طرفاها . وينكر أسفلها أعلاها . فبينا هو يجالس العيون والسراة . ويؤاكل الرؤساء والقضاء . إذا هو ينسخ بيده سطور الغناء . لينال من القوت مسكة الذماء [١] . ومن مأثور قوله فى هذا الصدد « لقد حملت نفسى بالتغدى فى منازل الأمراء

(١) الرمق

على خطر الهلاك جوعا فى منزلى» وفى ذلك على عاشقيه ومعظميه من العار مافيه . وعلى كل حال سواء نال الكتاب الابطال حقهم من الاجلال أولم ينالوا فهم أساتذة العالم يؤدبونه ويحكمونه ويعظونه ومانافذ فيه الا كلمهم لا مرد لها ولا ملغى لحكمها . فعلى الكاتب البطل أن يفكر ويرى وعلى الملأ أن يذعن ويخضع . وعلى الكاتب أن يأمر وعلى العالم أن يصدع . وللعالم بعد أن يختار طريقة الاذعان والطاعة فاما قهراً واما اختياراً . واما حسبة واما اضطراراً . اما صحو خريف فينان الظلال . ناعم الآصال . طيب اردان الصبا . مصقول رونق الضحى . واما سحب صواعق تمطر الحين والبوار . ونكباء تنسف الدور وتقتلع الاشجار . طريقان متعاكسان مفضاهما واحد . وصورتان متباينتان والجوهر فرد . فاما نور مقيد . واما برق مبيد . وليس الامر الهام هو ماذا نسمى البطل وبماذا نعامله . وانما هو أنصدق كلمته ونصدع بامره أم لا . واذا كانت كلمته صادقة وأمره الحق فسنعتقدها ونعمل بها طوعاً أو قسراً . ان لم يكن بميلنا ورغبتنا فبرغم أنوفنا . فاما هيئة استقبالنا إياه ومعاملتنا له فذلك من شؤوننا وراجع الينا . وأما كلمته فتلك رسالة الله إلى العالم ولا بد من أن ترغمنا على تصديقها وتستولى على نفوسنا

وآخر أقوالى فى هذا المبحث كلمة عن أهم حوادث حياة بارنز أعني وفدته على ادنبرج . وطالما رأيت أنه قد كان في رباط

جاشه هنالك وثبات جنانه أوضح آية على وفرة رجولته ورجاحة فضله . لقد كان فى انتقاله من أسفل حضيض البؤس والكرب والخمول إلى أشرف ذرى النعمة والهناء والذكر ما هو جدير أن يطير بلب أى امرىء ويذهب بعقل أى إنسان . فبينما روبرت بارنز فلاح مسكين قد رزأه النحس أجرته الزهيدة — سبعة جنيهات فى العام — فعادت الدنيا فى عينه أضيق من بياض الميم وخرج على وجهه يريد الهجرة إلى أمريكا إذا به قد ولج زمرة الاشراف والامراء فافسحوا له بينهم أكرم مقام وبوأوه صدور المحافل وخاصرته ربات القدود يسايرنه مزهوات بمسايرته رانيات اليه بأعين الجآذر عاطفات سوالف الآرام[1] وتلعت نحوه الاعناق . وازدحمت فيه العيون فعليه من حدق نطاق . والضراء ثقيلة على كاهل الرجل — ولكن السراء أثقل وفى كل الف من الناهضين بعبء البؤس واحد ينهض بثقل النعمة . ونادر فى الناس من له أن يقول

كل بلوت فلا النعماء تبطرنى ولا تخشعت من لأوائه جزعا

ولا نعلم فى الناس من فوجىء من النعمة بمثل ما فوجىء به بارنز ولا نظن ان رجلا غيره كان يبدى ما أبداه من الرزانة والوقار . فلقد لقى ذلك الحادث الجليل لا حائراً ولا وجلا . ولا هائباً ولا خجلا . ولم يؤت من ذلة ولا استخذاء . ولا من نخوة ولا غلواء . وكان يشعر

(١) سوالف جمع سالفة وهي صفحة العنق . الآرام جمع رئم وهو الظبي

وسط هذا الجمع الزاهر أنه هو روبرت بارنز الفلاح المتواضع وأن هذه المرتبة السامية والجاه العريض ليس الا من قبيل النقش فى صفحة الدينار لا ينقص من قيمته ولا يزيد . وأن الشهرة ما هى الاضياء يرسل على الرجل فيريك أى رجل هو . ولكنه لا يجمل منه ولا يقبح ولا يشوه من صورته ولا ينقح . غير أنه ربما قبح وشوه بما يملأ الرجل كبراً وغروراً ويصعر خده ويصلف جانبه . وبما ينفخه حتى يتصدع فيعود كالأسد الميت خير منه كلب حى . فبارنز فى هذا الأمر قد برع وفاق . وجاء غرة زهراء فى جبهة السبق

ولكن هؤلاء الجماعة — عشاقه المعجبون به — هم كانوا سبب شقوته وموته . هم الذين حرموه لذة العيش وحرموا عليه طيب الحياة ! هم كانوا يلتفون به فى حقله . ويحولون بينه وبين عمله . لا يقعدهم عنه بعد الدار ولا شطط المزار

فأضحوا ولو كانت خراسان دونهم رأوها مكان السوق أوهى أقربا

لقد أعي عليه مع صدق الجهد والمحاولة أن يمحو ذكر نفسه من اذهان الجماعة . وكم أراد أن يفصم عروة ما بينه وبينهم فما أفلح . وهكذا تقلب عليه الدهر بالاكدار والمحن والخطايا وادبرت عنه الدنيا وزايله الأمن والعافية والغبطة وحسن السمعة . وأصبح الامن الهموم والاشجان منفرداً . وأن فى ذكراه والله لحزناً وبثا . وفيم كانت زيارات

القوم اياه اذا لم يكونوا يقيلون عثرته . ويسدون خصاصته [1] بلى انه مامن رحمة كانت زيارتهم وانما للهو والتفكهة . وذهبت حياة البطل ضحية ذاك !

قال ريشتار ان فى جزيرة «صوماطرا» ضرباً من جسيم الذباب براق الاجنحة يستصبح به سراة القوم فيجعلونه فى أطراف العصى كالنبال ويسيرون فى ضوئه . وهكذا ينعم سراة القوم بامثال النجوم الطوالع والشهب اللوامع . فسلام الاله وريحانه على تلك الذباب ! ولكن —!—

---

(١) الخصاصة الفقر

المحاضرة السادسة

البطل فى صـــورة ملك

كروموبل — نابليون : نذكر اليوم آخر أشكال البطولة — ذاك الذى نسميه الامارة . وأمير الناس وقائدهم الذى عن رأيه يصدرون ولامره يذعنون . وبه فى جميع الامور يقتـدون . واجدين فى ذلك الخير والفلاح والفائدة لجدير أن يبوأ من ديوان الأبطال صدره ويحمل فى دولة العظماء اللواء . وانمـا هو فى الحقيقة جملة البطولة على اختلاف اصنافها وهو الخلاصة والزبدة والعصارة . وقد جمع الله فى ذاته سائر ضروب الابطال وليس ذلك على الله بمستنكر .

وقد تعرض هنا مسائل خطيرة ومباحث معضلة يمنعنا من طروقها ضيق المجـال . وانمـا نذكر كلمة شبيهة بكلمة «بيرك» حيث يقول « اسناد القضاء الى نخبة من القضاة يشتركون فى اصدار الاحكام هو روح الحـكومة » فكذلك نقول نحن ان خلاصـة اعمـال المجتمع الانسانى سواء سارت على طريق الخطا أم على منهج السداد هو الاهتداء الى أعقـل رجال بلدك وافضلهم واحزمهم ثم تقليده الحـكومة والسلطة واعطاؤه الخضوع والطاعة حتى يستطيع بذلك ان يهـدى الناس حسبما يلهمه عقله ويوحي اليه فؤاده وانمـا الى ذلك قصدت البرلمـانات وخطبها

ولوائح الاصلاح والثورات فرنسية وغير فرنسية . اهتد الى أعقل رجال بلدك واكفئهم وارفعه الى المكان الأعلى وبجله وا ّبره تحرز لبلادك خير حكومة . وانك ان تفعل هذا فقد بلغت المدى وكل شيء بعد ذلك فضول ولغو . فان اعقل الرجال هو ايضاً اكرمهم وابرهم وارحمهم . وليس فوق نصحه نصح . وقول الامام امام القول . وكل ما يامرنا به فهو ولاشك احكم واليق وأعلى مانستطيع ان نجده تحت قبة الفلك . وهو مايجب علينا ان نأتمره ونصدع به مع الحمد والشكر ! وتلك الحكومة هى الضالة المنشودة والغاية القصوى

أقول الغاية القصوى والله يعلم ان الغايات تبلغ بالامل . ولا تنال بالفعل . وللامانى جياد سابحات تسبق وفد الرياح يرسلها الفكر فى مضمار الوهم فتطير باجنحة الرجاء الى كل غاية ابعد منالا من الثريا . فاذا طلبت تلك الغاية بافراس العمل فى ميدان الحقائق قامت العقبات . واعترضت النوب والآفات . وسقطت الجياد اثناء المضمار طلحا انضاء حسرى الجهد والاعياء . دامية السنابك من الحفا . مهزولة الاعطاف من الأين والوجى . وكذلك تبقى الغايات مناطعمة المنى سخرة الواقع كالخيال فى المرآة يبيح العين مايمنع الكف

أو كالسماء وكل مازينت به وكبعدها وكقربها من لاق

وانا وان استحال علينا ان نبلغ الغايات . فحسبنا ان ناخذ فى سمتها أو نقع منها على مسافة ترضي وتسر ! ولا يفعل أحد من الناس مانهي عنه

الشاعر الالمانى «شلر» اذ قال «المرء تلقاء الحوادث ضعيف فلا يقس احد منكم مجهوده النزر القليل بمقياس الكمال» ومن خالف هذا القول كان مريض العقل بداء السخط مأفون الرأى مصدودا عن الحق . ولكن لاينس المرء مع ذلك أن تجعل الغاية نصب العين فانه لايقوم عمود صلاح الدين والدنيا على أساسه ويستقر فى نصابه حتى ينزل الانسان قريباً من الغاية . فاذا لم يتم له ذلك انهارت دعائم الصلاح وتقوض رواقه . ونحن نعلم انه ليس فى العالم بناء يمكنه أن يشيد جداراً فيجعله فى أقصى درجة العمودية أى أن يجعل الزاوية الحادثة بينه وبين سطح الأرض تسعين درجة بالضبط لاتنقص درجة ولا تزيد درجة كلا ! فهذا مستحيل علميا فكيف باستحالته عملياً ! ولكن اذا لم يدن البناء بالجدار من هذه الغاية بعض الدنو فاحر بجداره أن تنهار أركانه . وينهدم جثمانه . نعم اذا استهان بقانون العمودية وطرح مقياسه ومعياره وجعل يراكم الطوب بعضه على بعض بلا نظر ولا حساب كيفما اتفق فاجدر به أن تسوء عقباه ويشقى . فانه قد اغفل أمره ونسى نفسه . ولكن قانون التوازن — ناموس الطبيعة لم ينس أن يسرى عليه وعلى بنائه . وما هى الا برهة حتى يسقط هو وبناؤه فيرتد كثيبا مشوشاً ومعهدا خربا! —

وهذا هو أصل كل فتنة وتاريخ كل ثورة وحديث كل انفجار اجتماعى فى الازمان القديمة والحديثة أجل انما سببها هو انك وليت الرجل العاجز وجعلت غير الكفؤ على رؤوس الأعمال ! — الرجل الخسيس السافل

الدنىء الكاذب . ونسيت ان هنالك قانوناً أو ضرورة طبيعية تستدعى تولية القادر الكفء . وظننت أنه لا بأس عليك أن تراكم الطوب بعضه فوق بعض كيفما جاء واتفق بلا قاعدة ولا حساب . والرجل الكاذب اذا وليته كان جديرا أن يتخذ كل كاذب خبيث مثله ومن ثم يروح أمر الناس مختل النظام مبدد الشمل . تأكل جوفه الخيبة ويهدم أركانه الشقاء والبؤس . وترى الملايين من خلق الله قد اضطربت عليهم أمور دينهم ودنياهم واسودت فى عيونهم ظلمات اللبس والحيرة فهم يمدون الايدى استهداء ولا هادى ولا مرشد . ويبسطون الاكف استعطاء ولا مانح ولا رافد . حينئذ ينفذ قانون التوازن حكمه وتسرى نواميس الطبيعة وهى التى ماغفلت عن العمل طرفة عين . فتثور الملايين ويجن جنونهم . ويسقط البناء والبناء :

ان من يفتش الآن المكاتب العامة والخاصة يلق بها أسفارا ضخاما ومؤلفات جساما . تفيض فى موضوع (حقوق الملوك المقدسة : ومعناه ان كل ملك مهما كان هو خليفة الله فى الأرض قد ولاه الملك القدوس زعامة خلقه بعقد مقدس خفى فعقد فى رقاب العباد بيعته . ووجبت عليهم طاعته . واستحكمت فى نفوسهم مهابته وخشيته) تلك هى عقيدة القرون الغابرة . ورأى آبائنا الاول . عقيدة دفنت معهم فى قبورهم . ورأى بان بينهم . ومذهب عفت رسومه وطمس الدهر أعلامه ومجلدات كالقبور تبلى فيها أفكارها . وتنخر فى أجوافها عظام محتوياتها . لا يزورها انسان

ولا يعوج بها مخلوق . وباطل لاح فى ظلم الجهل ثم محا آيته نور اليقين ودولة زور استقل نجمها ثم خوى . واشمخر طودها ثم هوى . وأكذوبة اديل منها الحق. وانى مع ذلك لا رى من كرم الطبع وشرف الشيمة أن نتبع ذلك الباطل المدبر لعناتنا . ونلحقه أهاجينا وشتماتنا . فحسبه هزيمته . وكفاه خزيه وفضيحته بل أرى (ولا يعجب القارئ ولا يرع) أنه لا يحسن بنا أن نترك هذا الزور والمحال يمضى من غير أن نفتش أجزاءه ونفحص انحاءه وارجاءه ونقلبه بطناً لظهر علنا نجد فى ثناياه معنى من الحق وان فيه لحقا يجدر بنا وبسائر الناس ذكره . أما قول هذه المؤلفات ان أى انسان تأخذه عينك من بين الناس وتمسكه يدك فتجعل على رأسه صفيحة من الذهب مكللة بالياقوت والزبرجد وتسميه ملكا يرسل الله عليه فى الحال شعبة من نوره ويمده بروح من عنده ويعمر فؤاده باسراره القدسية ويؤهله فى التو واللحظة لأن يحكم عليك حسبما تقتضى مشيئته فذلك حمق وخرافة وحسبه منا أن نتركه يبلى ويعفن فى أجواف كتبه أو بعبارة أصدق اجواف قبوره . ولكنى أقول — وهو ماعناه وأراده أرباب مذهب «حقوق الملوك المقدسة» وهو انه يوجد فى الملوك وفى جميع العلائق والمسؤوليات والسلطات التى تكون بين الولاة والرعية إما حق مقدس او منكر شيطانى . لابد من أحد هذين ! اذ انه من أفحش الخطا والكذب ماقاله القرن السالف الكافر من ان هذه الدنيا آلة ومكينة . بل ان فى الكون لاالها وكل مايجرى بهذا العالم من حكومة وال وطاعة

رعية بل كل عمل وحركة لابد أن يبوء إما برضى وإما بغضب من الله . وأشرف مايجرى بين الرجل والرجل هو لاشك الحكومة والطاعة . والويل لمن يطلب من طاعة الناس مالا يستحق . ولمن يأبى ان يؤدى من الطاعة ماأوجبه الله عليه لزعيم أو أمير ! بذلك يجرى قانون الله المقدس مهما سنت شرائع البشر ونهجت نواميس الحكومات . نعم ان فى كل دعوى يدعيها الرجل على أخيه إما حقاً مقدساً أو منكرا شيطانياً

هذا أمر جدير بالنظر والتدبر . وخليق ان نذكره فى جميع شؤوننا ولا سيما فى أمر الزعامة والولاء أهم تلك الشؤون . وعندى انه شر من مذهب «حقوق الملوك المقدسة» هو ذاك المذهب القائل ان العالم يدور على محور المصلحة الذاتية وتدبير الثروة وانه لامعنى هناك مقدساً فى تعاشر الناس وتخالطهم . وانى أكرر عليك قولى «انك ان تاتنى بالملك القادر الكفء لأجعلن له على حقاً مقدساً .» ولعل دواء أدواء الأمم فى هذه العصور هو ان يوفقها الله بعض التوفيق الى ايجاد الملك الكفء وان يلهمها طاعته والانقياد اليه اذا وجد ! وانى أرى فى الملك القادر — هادى الأمة فى سبيل الأعمال الدنيوية — خلة الدين كذلك ومعنى القسوسية . فهو أيضاً هادى الأمة فى سبيل شؤونها الروحانية التى هى مصدر الشؤون الدنيوية فالملك لذلك رئيس الكنيسة أيضاً . ولندع بعد مذهب «حقوق الملوك المقدسة» يبلى فى أجواف مؤلفاته أو قبوره لانوقظ صداه ولا نستثير هامته

وحقاً ان التماس الرجل الكفء والحيرة فى ذلك لمن أشق الأمور وأجسمها ! وتلك هى آفة الامم فى هذه العصور والازمة الحرجة . هذه أوقات ثورات . وانى أرى بناة شؤون الدنيا قد اطرحوا المقاييس والمعايير وأغفلوا قانون التوازن فانهار البناء بهم فاذا هم والبناء خليط انقاض مشوش ! وليست الثورة الفرنسية هى مبدأ هذا التهدم والسقوط بل لعلها الغاية والنهاية ولا نخطئ اذا قلنا ان المبدأ كان منذ ثلاثة قرون أى منذ نهضة لوثر . وكان داء العالم اذ ذاك تحول كنيسة الله اكذوبة ووقاحتها وصفاقة وجهها اذ تدعى لنفسها القدرة على غفران ذنوب العباد بالدرهم والدينار . وكان هذا مرضاً فى الدين — داء فى الروح والجوهر ومتى ادوى الجوهر واعتل الروح فأحر بالجسم والظاهر ان يفسد ويدوى — ثم تزداد فسادا ومرضاً . لقد كان الايمان قد فنى وباد . وفاض الشك وتفشى الجحود والالحاد . وطرح البناء معياره ومقياسه وقال لنفسه « أى قيمة لقانون التوازن وأى فضل فى الحساب والنظام . ضع الحجر على أخيه كيفما جاء واتفق ولا يعنيك ان نجشم النفس مراعاة قانون أو حساب ! » وكانت العاقبة يا للأسف كما تعلمون ! —

وانى لأتبين اتصالا طبيعياً والتئاما تاريخياً مابين مقالة لوثر إذ قال للبابا « انت أيها الملقب نفسه « البابا » افكا وزورا ماأنت بأب فى الدين ولا والد لنا فى الله . انما أنت اكذوبة يعجز اللسان أن يجد بين الالفاظ المهذبة الرقيقة مايليق بنعتك وصفتك ! » وبين صيحة الثورة

الفرنسوية إذ علا بها ضجيج الثوار فى قصر الامارة يصيحون «إلى السلاح ! إلى السلاح !» . ولا يحسب الحاسبون أن هذه الصيحة المزعجة الجهنمية كانت شيئاً حقيرا أو باطلا ! كلا انما كانت صوت الامم النائمة هبت من رقاد كاد يخنقها اثناءه الكابوس — نعم صوت الامم هبت من حاله بين الرقاد والموت . فبدأت تشعر أن الحياة شيء حق . وان عالم الله ليس بمكينة تساس بالدهاء والمكر وتدبر بعلوم الاقتصاد والرياضة . نعم لقد هبت فارسلت صيحة جهنمية — وانما أتت جهنمية لان طغاة الملوك وعتاة الحكام أبوا الا أن تكون كذلك . لقد هبت الامم وقالت لابد للأباطيل والاضاليل أن تنتهى ويخلفها نوع من الاخلاص كيفما كان . ولا بد لنا من عودة إلى الحق ولو جرت علينا أهوال ثورة فرنسية وجلبت على رؤوسنا شر الفظائع وأشنع البلاء . هذه هى الثورة الفرنسوية — هى كما ترون حق ولكنه حق ملتفع فى شواظ الجحيم ولظى جهنم ! —

وكان قد ذاع لدى جماعات كثيرة من أهالى انكلترا أن الامة الفرنسوية كانت فى تلك الاوقات (أوقات الثورة) قد جنت . وان الثورة الفرنسوية كانت صنفاً من الجنون تحولت فرنسا وفرق عظيمة من سكان المعمورة اثناءه مارستانا . ذلك كان رأى العدد العديد من الانكليز وفلاسفتهم ان الثورة كانت حريق جنون شب ثم خمد واصبح الآن فى عالم الاحكام والاوهام والقصص والعجائب . والنوادر

والغرائب ! فليت شعرى كيف كان وقع الثورة الثانية — ثورة ١٨٣٠ فى نفوس هؤلاء الفلاسفة الذين حسبوا أن الثورة الاولى كانت فلتة جنون وبيضة الديك وان حديثها أصبح كحديث الخرافات لايكاد يصدق ؟ ماذا كان شعورهم حينما رأوا فرنسا قد ثارت ثانيا إلى السلاح تكافح كفاح المستميت تذبح وتذبح . وكل ذلك لتؤيد الثورة الاولى وتحفظ آثارها ونتائجها . نعم ان أبناء رجال الثورة الفرنسوية وأحفادهم يبررون عمل آبائهم وأجدادهم ويأبون الا تمسكا به واصرارا عليه . هم لايبرأون منه إلى الله . بل يعملون على حفظ أثره. واستنتاج ثمره . باذلين الدماء والارواح فى سبيل ذلك . ولعل فى هذا الحادث (حادث الثورة الثانية) أكبر مصاب لاولئك الفلاسفة الذين أسسوا مبدأهم وشادوا مذهبهم على أن الثورة الفرنسوية فلتة جنون تبرأ منها فرنسا ولا يعود بها الزمن أبدا . نعم أن فى ذلك الحادث نكبة لاولئك الفلاسفة حتى لقد ذاب قلب الاستاذ المؤرخ الالمانى «نيبور» كمدا وتقطعت نفسه حسرة لما بلغه نبأ هذا الحادث . ثم اعتل على أثر ذلك وقضى نحبه قتيلا بداء الايام الثلاثة (هو اسم ثورة ١٨٣٠) وما هكذا تموت الرجال ولست أشبه هذه الموتة الا بموتة الشاعر الفرنسى الكبير (راسين) الذى قتله أن لويز الرابع عشر تجهمه [١] مرة ورمقه شزرا . فياليت الاستاذ الالمانى علم أن الكرة الارضية صلبة جلدة وانها طالما تحملت صدمات

---

(١) عبس فى وجهه سخطا .

الدهر وضربات القضاء وانه ليس من البعيد أن تعيش وتبقى وترى دائرة حول محورها بعد ثورة «الأيام الثلاثة» ! ولقد جاءت تلك الثورة الثانيـة لتعلم الناس جميعا أن الثورة الفرنسوية لم تكن قط فلتة جنون ولـكنها ثمرة حرة من ثمار هذا العـالم — عالم الله . وانهـا كانت حقاً يحسن بكل انسان أن يعده حقاً لا باطلا ولا جنونا ! الى هنا

وحقاً أنه لولا الثورة الفرنسوية لأشكل علينا ماذا نصنع بعصر مثل ذلك العصر الملعون ولعميت علينا وجوه الرشد واستبهمت معالم القصد وكنا لا محالة هالـكين . وانا لنرحب بالثورة الفرنسية ترحاب المشرفين على الغرق بالصخرة العبوس . وهل كانت الثورة الفرنسوية الا كذلك أو وحياً صادقا ورسالة حقا وان راعت القلوب وأزعجت الخواطر فى عصر تصنع وكذب — رسالة تنبىء ان للكون سرا فان لم يكن الهيا فهو اذن شيطانى . ولـكنه سر على اية حال . وأن التصنع والغش ليس بحق . وانه لابد أن يتحول حقا . والا اشتغل العالم تحت مايستره من أثواب الغش واللؤم والباطل فاحرقها وليت شعرى اذا احترقت فصارت «لاشىء» أفهل كانت قبل ذلك الا «لاشىء» نعم بالثورة الفرنسوية انتهى التصنع والغش والباطل الاجوف الفارغ وانتهى شر كثير وفساد جم . والثورة الفرنسوية رسالة الله الى الأرض صدع بها صوت من الرعد وصرخت بها نفخة اسرافيل فى السور يوم القيامـة ! فمـن اسرع الى اعتقاده اصاب خيرا وحمـد العقبى . ثم

لاطمأنينة ولا صفاء ولا أمن ولا سلام أو تعرف هـذه الرسالة حق اليقين ! وقد كان الرجل وسط هذه الاباطيل والاكاذيب والاضاليل جديرا أن يصبر وينتظر — جديرا أن يمضى فى شأنه ويعنى بعمله . ويعلم أن القلم العلوى قد جرى بحكم الهلاك والموت على هذه الموبقات والشرور وأن هذا الحكم الصارم قد كتب اليوم فى الأرض بعد أن صدر فى السماء . لقد كان الرجل المخلص جديرا أن يرى ذلك . فيغتبط ويصبر وينتظر . ثم هو من وجهة اخرى اذا أبصر ما قد وقع فيه العالم من الأزمات والشدائد وصيحاته المتوالية يطلب انفراج الازم وتراخى الخناق كان جـديرا أن ينصرف بحكم هذه الضرورة عن شأنه وعمـله الى شؤون أخرى لاسيما وقد نال السيل الزبى وبلغت الروح التراقى ! وعندى أن أنفس الحقائق فى مثل هذه الحوادث « حوادث الثورة » هى حقيقة « عبادة الابطال » فانها أجمل العزاء واحسن السلوة فى هـذه الاوقات وأملنا الوحيد فى سياسة الدنيا وتدبيرها . ولو أن الثورة هدمت جميع التقاليد والنظامات والعقائد والمذاهب والملل والنحل لسلمت لنا هذه الحقيقة . فان ثقتنا بأن الله مرسل لنا الا بطال . وما جبلنا عليه من اجلالهم حينما يرسلون الينا — هذه والله نعمة تشرق علينا كنجم هداية وسط غياهب الدخان وغياهب النقع ووسط كل انهدام وانفجار

ولو انك اسمعت ثوار الثورة الفرنسية كلمة « اجلال الابطال » لوقعت منهم موقع التكذيب والانكار ولأرخوا دونها حجب الآذان

وقالوا حديث خرافة . فقد كان هؤلاء المجاهدون فضلا عن عدم احترامهم الابطال لا يصدقون بوجود الابطال بل لا يودون أن يجيء الزمن يبطل قط ! وكأنهم ظنوا أن الكون بعد أن تحول مكينة وهن وبلى حتى ضعف عن اخراج الابطال وعقم صلبه منهم . واذا صح أن الكون قد أصبح كذلك فانى قائل له أولى لك أن تكف بالمرة عن اخراج الرجال . فانا لا نقبل بضاعة ليس فيها التحف والنفائس ولا نرضى بانسجة ليس فيها الخز والديباج او بالاختصار لا غنى لنا عن الابطال . أما مذهب « الحرية والمساواة فقد كان من نتائج تلك الأحوال وكان اذ ذاك شيئا طبيعيا فلذلك لايجمل بى ان أرد عليه . ومعنى « الحرية والمساواة » هو هذا « بما أنه قد استحال وجود العظماء والأبطال فللعالم الآن أن يستغنى عن هؤلاء الافذاذ النوادر بالجماهير العديدة المتساوية فى ضؤولة القدر وخسة القيمة وخفة الاحلام وعجز الآراء . » ماذا أقول فى هذا المذهب وبماذا أقابله الا بعذر أربابه والسكوت عنه كحقيقة كان لابد منها اذ ذاك ولا مفر . ذهب أرباب ذلك المبدأ الى أن الناس أحرار متساوون وأنه ليس لرجل ان يسود ويقود ويتسلط . وحجتهم على ذلك أن عبادة الأبطال واحترام المسلطين والزعماء والقادة قد ظهر فسادهما وما هما الا كذب وباطل فحسبنا منهم ما كان . لقد خدعنا من هذا الطريق مرارا حتى فنيت الثقة به . وطال تصديقنا حتى لانصدق . واذا كثر مجال النقود الزائفة فى

الأسواق كذب الناس بوجود الذهب الصراح وانه قد تصلح الامور وتستقيم الحال بلا ذهب . انا لا آخذ القوم بهذه الآراء بل أعذرهم عليها وأرى أنها كانت ثمرة ذلك العصر الطبيعية وان كانت صابا وعلقما .

وبعد فليس هذا المذهب الا تحولا وانتقالا من الباطل الى الحق وليس هو بالحق . فاذا رؤى [1] أنه الحق باكمله فهو اذن باطل محض نتيجة الشك الأعمى يحاول أن يكشف عماه ليبصر . فان عبادة الأبطال موجودة فى كل زمان ومكان . وما هى قاصرة على اجلال الملوك والسادة والسواس والقادة . بل انها لتمتد من عبادة الله الى احط مواطن الحياة العملية وانحناء الرجل لاخيه بالسلام مالم يكن خديعة وملقا فهو من قبيل عبادة الأبطال واعتراف بان فى كل انسان خلقه الله روحا من الخالق . وان كل امرىء مظهر لجلال الله . وعندى ان الذين ابدعوا اشارات التحية ودلائل الملاطفة والاحتفاء التى تجمل الحياة وتزينها هم شعراء ! وآداب المقابلة والمعاشرة ليست بكذب ولا باطل . والولاء — والاجلال المفرط المشرف على العبادة لايزال من الممكنات بل من المحتمات .

وانى اقول انه وان رأينا كثيرا من أبطال العصور الاخيرة قد ظهروا فى الثورات وكانوا ثوارا فانهم بفطرة الله أبناء نظام لاثورة . واشتغالهم بالثورة بلية عليهم ومصيبة اذ يرى أحدهم فى الفتنة وكأنه فوضوى .

---

(١) رؤى فعل ماض مبني للمجهول والضمير عائد على المذهب

وما هو بفوضوى ولا كانت الفوضى قط من شانه . ولكن جوا من الفوضى يحيط به وعقبات منها لاتزال تعتاقه وتعرقل مسعاه . وهو عدو الفوضى وخصمها . وانما النظام عمله ووظيفته بل وظيفة كل انسان . وما خلق الله الانسان الا ليصلح الفاسد ويلم الشعث ويعمد الى الشىء المختلط فيصبه فى أبدع قالب من النظام . ويلقيه فى أكمل صورة من التنسيق والاحكام . والانسان رسول النظام . أو ليس كل مايصنع المرء فى هذه الدنيا هو تنسيقا وتنظيما فالنجار يعمد الى الشجر الغليظ الاشعث فينعم نحته وتمليسه ويحسن تقديره وتصويره . ويجيد خرطه وصقله . ويلقيه فى أعجب القوالب والصور ويتركه ذا نفع للناس ووظيفة فى المجتمع ؟ وقد خلقنا الله جميعا اعداء الفساد والفوضى وانه لمن البلية علينا جميعا وسوء الحظ أن نصرف عن التنسيق والتنظيم . الى التقويض والتحطيم . وسوء الحظ فى ذلك والبلية مضاعفة على الرجل العظيم الذى يكون حبه للنظام على قدر عظمته .

وكذلك نرى ان أشد أعمال الثورة الفرنسوية جنوناً كانت تسير نحو النظام أقول وليس رجل من أولئك الثوار قد طار فى دماغه جنون الحنق والفتك الا وهو مدفوع فى كل حركاته نحو النظام منجذب اليه . وكيف وما حياته نفسها الا مسيرة نحو النظام بل لهى النظام ذاته . اذ ان الفوضى هى الفساد هى الموت . وما من فوضى تثور الا ويجعل الله لها قطبا

تدور عليه فتتحول بفضله نظاما. وما دام الانسان انساناً فسيكون للثورة رجل كنابليون أو كرمويل تختم به وتتم. عجباً والله كيف تكون عبادة الأبطال فى أزمان الثورة ضرباً من المحال فى عقيدة الشعب السائر ثم لاتلبث أن تبدو للعيان فلا يستطيع أحد انكارها. وأرى «الحق المقدس» معناه على وجه العموم «القوة المقدسة» فاذا حسبت الامارة والسلطة فى عصور الثورة انمحت وماتت اذا بها قدعادت اليك فى شخص نابليون أو كرمويل وانما هى المظاهر الكاذبة والقشور قدهتكت وأتلفت وظهرت الحقائق والجواهر من ورائها صحيحة خالدة. وتاريخ نابليون وكرومويل هو ماسننظر فيه الآن ان شاء الله. وهو آخر أصناف البطولة كما قسمنا. وانى ارى فى تاريخ هذين البطلين مايعيد الينا عهد الملوك فى طفولة الأمم اذ يرينا كيف كانت تنشأ الامارة فجر تاريخ العالم وكيف كانت تولى الملوك يومئذ